الدافعية والانفعال

تأليف

إدوارد ج. مــوراى

ترجمة

الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة

أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر
وجامعة الملك سعود وجامعة الكويت

مراجعة

الدكتور محمد عثمان نجاتى

أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة
وجامعة الكويت وجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية سابقاً

دار الشروق

الدافعية والانفعال

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٥٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL 637 2743/4, TELEX SHOROK 267706

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة أصول علم النفس الحديث
بإشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي

الدافعية والانفعال

تأليف
إدوارد ج. موراي

ترجمة
الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة
أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر
وجامعة الملك سعود وجامعة الكويت

مراجعة
الدكتور محمد عثمان نجاتي
أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة
وجامعة الكويت وجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية سابقًا

دار الشروق

هذا الكتاب ترجمة لكتاب

Edward J. Murray: **Motivation and Emotion**
Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice-Hall,
Inc., 1964

مَكتَبَة أصُول عِلم النَفْس الحَديث

إن النمو الهائل لعلم النفس والتحامه المتزايد مع العلوم الإجتماعية والبيولوجية قد جعل من الضرورى البحث عن أساليب جديدة لتعليمه فى المستويات الأولى من التعليم الجامعى . ولم نعد بعد نشعر بالرضا عن المقرر الأساسى التقليدى الذى يُكَيَّف عادة لكتاب واحد يحاول أن يعرض كل شىء عرضاً خفيفاً يضحى بالعمق فى سبيل الشمول . إن علم النفس قد أصبح متعدد النواحى بحيث لم يعد من المتيسر لأى شخص واحد ، أو عدد قليل من الأشخاص ، أن يكتبوا فيه عن تمكن تام . والبديل الآخر لذلك وهو الكتاب الذى يهمل ميادين كثيرة رئيسية فى سبيل عرض ناحية أو وجهة نظر معينة فى علم النفس عرضاً أكثر شمولاً وفعالية هو أيضاً غير كاف ، لأن فى هذا الحل لا يُعرض كثير من الميادين الرئيسية على الطالب إطلاقاً .

إن مكتبة أصول علم النفس الحديث كانت المحاولة الأولى فى إصدار مجموعة من الكتب الصغيرة الحجم التى تتناول موضوعات أساسية مختلفة ، يكتب كلا منها عالم متخصص كفء . ثم أخذ هذا الاتجاه فى التأليف فى علم النفس يتزايد بعد ذلك . ولقد كنا متأثرين فى إصدار هذه السلسلة من الكتب بفكرة تزويد القائمين بتدريس المقررات العامة فى علم النفس بمادة تكون أكثر مرونة من المادة الموجودة فى الكتب الحالية الكبيرة ذات الطابع الموسوعى ، وعرض موضوع واحد فى كل كتاب عرضاً أكثر عمقاً مما لا يتوفر فى كتب المداخل التى لا تفرد لهذه الموضوعات عادةً حيزاً كبيراً .

إن أول كتاب فى هذه المكتبة ظهر عام ١٩٦٣ ، وآخرها ظهر فى عام ١٩٦٧ .

ولقد بيع من هذه الكتب أكثر من ربع مليون نسخة مما يشهد على استخدام هذه الكتب استخداماً واسع النطاق فى تدريس علم النفس . وقد استخدم بعض كتب هذه المكتبة ككتب إضافية ، واستخدم بعضها كالكتاب المقرر فى كثير من مقررات المرحلة الأولى الجامعية فى علم النفس ، والتربية ، والصحة العامة ، وعلم الاجتماع ، كما استخدمت مجموعة من كتب هذه المكتبة ككتب مقررة فى المقررات التمهيدية فى علم النفس العام فى المرحلة الأولى الجامعية . وقد ترجم كثير من هذه الكتب إلى ثمانى لغات هى الهولندية ، والعبرية ، والإيطالية ، واليابانية ، والبولندية ، والبرتغالية ، والأسبانية ، والسويدية .

ولوجود اختلاف كبير فى زمن نشر هذه الكتب ، ونوع محتوياتها فإن بعضها يحتاج إلى مراجعة ، بينما بعضها الآخر لا يحتاج إلى ذلك . ولقد تركنا اتخاذ هذا القرار إلى مؤلف كل كتاب ، فهو الذى يعرف جيداً كتابه من حيث علاقته بالوضع الحالى للميدان الذى يتناوله الكتاب . وسيظل بعض هذه الكتب بدون تغيير ، وبعضها سيعدل تعديلاً طفيفاً ، وبعضها سيعاد كتابته كلية . ولقد رأينا أيضاً فى الطبعة الجديدة لهذه المكتبة أن يحدث بعض التغيير فى حجم بعض الكتب وفى أسلوبها لتعكس بذلك الطرق المختلفة التى استخدمت فيها هذه الكتب كمراجع .

لم يكن هناك من قبل على الإطلاق اهتمام شديد بالتدريس الجيد فى كلياتنا وجامعاتنا كما هو موجود الآن . ولذلك ، فإن توفير الكتب القيمة والمكتوبة جيداً والمثيرة للتفكير والتى تلقى ضوءاً على البحث المتواصل المثير عن المعرفة يصبح متطلباً أساسياً . ويصبح ذلك ضروريا على وجه خاص فى مقررات المرحلة الأولى الجامعية حيث يجب أن تكون فى متناول يد عدد كبير من الطلبة كتب تمدهم بقراءات مناسبة . إن مكتبة أصول علم النفس الحديث تمثل محاولتنا المستمرة لتزويد مدرسى الكليات بالكتب المقررة التى يمكننا تأليفها .

ريتشارد س . لازاروس

(المشرف على إصدار المكتبة باللغة الإنجليزية)

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

تصدير الطبعة العربية

إن الدافعية والانفعال مجالان هامان من مجالات علم النفس التى حظيت باهتمام كثير من علماء النفس ، فأجروا حولهما كثيراً من البحوث ، ووضعوا فيهما كثيراً من النظريات . فدوافعنا وانفعالاتنا تؤثر فى جميع نواحى سلوكنا : إدراكنا الحسى ، وتعلمنا ، وتفكيرنا ، وخيالنا ، وإبداعنا ، وتذكرنا ونسياننا ، وأدائنا لأعمالنا . وتؤثر دوافعنا وانفعالاتنا أيضاً فى سلوكنا الاجتماعى وعلاقاتنا الاجتماعية : حبنا للناس أو كرهنا لهم ، ميلنا إلى الاجتماع بهم أو تجنبهم والابتعاد عنهم ، تعاوننا معهم أو تنافسنا ، تسامحنا معهم أو عدواننا عليهم ، الخ .. وقد تتعارض دوافعنا وتتصارع ، فيؤدى بنا ذلك إلى القلق والاضطراب النفسى . وقد يدرك الإنسان دوافعه التى تجعله يتصرف فى بعض المواقف على نحو ما ، غير أنه كثيراً ما تؤثر فى سلوك الإنسان دوافعه اللاشعورية التى لا يكون على وعى بها . لذلك ، كانت معرفة الدوافع التى تؤثر على سلوك الإنسان فى موقف معين من العوامل الهامة التى تساعد على فهم السلوك الذى يصدر منه فى ذلك الموقف .

وبالرغم من الأهمية الكبيرة التى يحتلها مجال الدوافع والانفعالات فى علم النفس ، وبالرغم من كثرة البحوث التى أجريت فيه ، إلا أنه مع ذلك مجال اختلفت فيه الآراء ، وتعددت فيه النظريات ، ولم نصل فيه بعد إلى آراء يتفق عليها جميع الباحثين .

وقد تناول الكتاب المفاهيم المختلفة للدافعية ، والنظريات المختلفة التى وضعت لتفسيرها . فذكر النظريات المعرفية ، والنظريات القائمة على مبدأ اللذة ،

ونظريات الغرائز ، ونظريات البواعث التى تفسر الدافعية على أساس مفهوم الاتزان الحيوى . وذكر أهم العلماء البارزين من رواد هذه النظريات المختلفة .

وتناول الكتاب أيضاً الانفعال ، وبيّن الدور الهام الذى يقوم به الانفعال كدافع ، وذكر النظريات المختلفة التى وضعت لتفسير الانفعال .

وقدم الكتاب عرضاً شاملاً وجيداً للبحوث المختلفة فى مجال الدافعية والانفعال ، مع توضيح الخلفية النظرية التى تولدت منها هذه البحوث ، وبيّن نموها وتطورها ، والوضع الحالى التى وصلت إليه ، ومحصلة معرفتنا الحالية التى أدت إليها نتائج هذه البحوث .

وقد وفق مؤلف هذا الكتاب الدكتور ادوارد ج . موراى فى عرض مجال الدافعية والانفعال عرضاً شاملاً دقيقاً واضحاً ، فى شىء من الإيجاز ، لكى يكون فى متناول فهم طلاب علم النفس والعلوم الأخرى ذات العلاقة بعلم النفس .

ووفق الزميل الأستاذ الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة كل التوفيق فى ترجمة هذا الكتاب ترجمة دقيقة ، وفى أسلوب يتميز بالوضوح وبالقدرة على توصيل المعنى بدقة وبعبارات بليغة سلسلة . فله جزيل الشكر على ما بذله من جهد فى ترجمة هذا الكتاب الذى سيسد فراغاً فى مكتبتنا العربية التى تفتقر بالفعل إلى كتاب جيد فى هذا الموضوع .

١٩٨٧/٥/٥ — محمد عثمان نجاتى

تصـــدير المؤلــف

إن مجال الدافعية والانفعال مجال مثير للخلافات الكثيرة . فهناك تساؤل عما إذا كان هذا مجالاً واحداً أم مجالين . وهناك بعض علماء النفس الذين يلغون الدافعية والانفعال كلية من موضوعات علم النفس العام . فهم ينظرون إلى الموضوع باعتباره الملاذ الأخير للقائلين بالمذهب الإنسانى ، والمذهب الحيوى ، والغائية . وربما كانوا على صواب ، على نحو ما ، وذلك لأننا عندما ننظر إلى الدوافع فإن المماثلة بين الإنسان والآلة تنهار . ولكن العلم ليس محصوراً فى مماثلات بسيطة ، فمجال الدافعية والانفعال يضطرنا إلى النظر فى تعقيد الإنسان من حيث هو كائن عضوى اجتماعى حيوى .

إن ميدان الدافعية والانفعال ميدان مضطرب إلى درجة كبيرة بحيث أنه من المحتمل جداً أن يتخذ أحد مسارات مبسطة كثيرة . فأولاً ، قد يعتنق كاتب ما إحدى النظريات الكبيرة المتنافسة ـ نظرية التعلم ، أو نظرية التحليل النفسى ، أو نظرية المجال ، أو نظرية اللذة . وثانياً ، قد يحصر الكاتب نظره فى مصدر واحد للمعلومات ـ التجارب على الحيوان ، أو التجارب على الإنسان ، أو الملاحظة الإكلينيكية ، أو الدراسات الميدانية الأنثروبولوجية . وأخيراً ، قد يكون التبسيط فى توجيه الاهتمام فقط إلى الدوافع الفسيولوجية فقط ، أو إلى المتغيرات السيكودينامية ، أو إلى القوى الاجتماعية . وقد وجدت أن جميع هذه الخطط الاستراتيجية المبسطة تؤدى إلى تشويهات خطيرة .

إن المنهج المتبع فى هذا الكتاب هو منهج تعددى وتكاملى . فلم أعرض المادة من

وجهة نظر نظرية واحدة لأنى أحب تصارع الأفكار ، ولأنى أرى أنه لم يظهر بعد حتى الآن إطار نظرى ملائم حقا للسلوك الإنسانى . وإنى أفضل أن يبقى الطالب مضطرب التفكير قليلاً ، بدلاً من أن يقيد تفكيره بنظرية واحدة . وقد حاولت أن أوصِّل الإثارة التى يحدثها علم السلوك، وذلك بالتأكيد على ميلاد المفاهيم ، وأفولها ، وتجديدها ، وكذلك على الأهمية النظرية للاكتشافات الحديثة ، والكفاح الذى لا ينتهى من أجل الفهم . وحاولت فى نفس الوقت ، أن أنسق بين الدراسات المختبرية والميدانية والإكلينيكة ، كما حاولت أن أبين كيف أنها جميعاً مصادر صحيحة ومتكاملة للمعرفة . وأخيراً ، بالرغم من أنه ليس من الممكن عرض مسح شامل فى كتاب فى مثل هذا الحجم ، فقد حاولت أن أعطى أمثلة من جميع مجال الدافعية والانفعال ـ مثل الجوع ، والجنس ، والخوف ، والتطلع ، والحب ، والإنجاز .

أدوارد ج . موراى

الفصــل الأول

تصوّرات مختلفة للدافعية

الإنسان كائن حى عجيب يستطيع أن يدرك الأحداث ، وأن يصدر الأحكام المعقدة ، وأن يتذكر ما مر به من المعلومات ، وأن يحل المشكلات ، وأن يضع الخطط موضع التنفيذ . لكن هذا الجهاز الدقيق المعقد يمكنه أن يُستَخْدَم من أجل أغراض شتى ـ من أجل التخطيط للحرب ، أو من أجل ارتياد الفضاء ، أو من أجل إذلال شخص آخر ، أو من أجل توفير الراحة للمريض ، أو من أجل الحصول على التقدير ، أو السيطرة ، أو المودة . والأغراض التى يسخر المرء من أجلها قدراته البشرية إنما تتوقف على الدافعية عنده ـ على رغباته ، ومطالبه ، وأمانيه ، وحاجاته ، واشتهاءاته ، وجوعه ، وحبه ، وكراهيته ، وخوفه . ولعل المثال التالى يزيد الأمر وضوحاً ، لنفرض أننا بصدد ثلاثة من الشبان طلاب الجامعة . ولنفرض أنهم جميعاً على درجة واحدة من الذكاء والاستعداد الدراسى . ولكن أولهم يحصل دائماً على تقديرات (ممتاز) ، والثانى على تقديرات (جيد) ، والثالث يرسب باستمرار . هنا قد يكون التفاوت فى الدافعية سبباً لهذه الاختلافات بينهم فى الأداء .

إن الشاب الأول من أسرة مهاجرة فقيرة ، أبواه يعقدان الآمال عليه ويرجوان له أن يصبح رجلاً ناجحاً فى مهنة راقية . وقد دأبا على تشجيعه وإثابته حين يحصل على التقديرات المرتفعة منذ طفولته المبكرة ، ولذلك ، نمت عنده الرغبة القوية فى الإنجاز ، وزال عنده الخوف من العمل بجد واجتهاد . والواقع أنه يفرض على نفسه بلوغ مستويات عالية ولا يشعر بالرضا إلا إذا حصل على تقدير (ممتاز) .

وأما الشاب الثانى فقد نشأ فى أسرة ثرية ، لا يحمل هم المستقبل . فإنه بعد أن ينتهى من دراسته الجامعية سوف ينضم إلى عمل والده التجارى . وهو لا يجد لديه دافعاً إلى الحصول على تقديرات مرتفعة . بل ، فى الواقع ، أنه قد يعد الطالب الأول منفراً ، أو أقرب إلى أن يكون سوقياً مملاً . أما هو نفسه فلا يهدف إلا إلى التقدير (جيد) الخاص بأبناء الأسر الرفيعة الطيبة .

وأما الفشل فقد يكون تفسيره أمراً أكثر تعقيداً . ولكننا قد نجد فى حالة أب وابنه سنحت لى فرصة لقائهما حديثاً ما يوضح نوع المواقف التى يمكن أن تعين على تفسيره . كان الأب قد نشأ فى أسرة فقيرة ولكنه عمد إلى الارتفاع بنفسه بجهوده الشخصية حتى صار محامياً ناجحاً كادحاً . وهو يتوقع من ابنه أن يفعل كما فعل هو ، ولكن الابن كان يخشى الأب ، كما كان موقنًا من أنه لا يملك أن ينجح النجاح الذى أحرزه الأب . وكان التوتر يستبد به فى الامتحانات ، فيظل قلبه يخفق بشدة ، والعرق يتصبب من يديه . لقد كان القلق يعرقل أداءه ، ولذلك ، بدأ طريقه إلى الفشل .

ففى الحالة الأولى كان لدى الطالب دافع يدفعه إلى الحصول على التقديرات العالية . ولكن الطالب الثانى لم يكن كذلك . بينما كان لدى الطالب الثالث دافع يدفعه إلى الإنجاز ، ولكن دافعاً انفعالياً معارضاً آخر كان يحول بينه وبين النجاح . فى كل هذه الحالات كانت عمليات الإدراك والتذكر والتفكير ملائمة للعمل ، ولكن الأداء الحقيقى كان يتوقف على الدوافع والانفعالات .

على أن الاهتمام بالدافعية ليس مقصوراً على علماء النفس . فإن لكل واحد منا مفهومه الخاص عما يدفع الناس ويحركهم ، والواقع أن مثل هذا المفهوم قد يكون أمراً لابد منه من أجل المضى فى الحياة . إننا كثيرا ما نتساءل عما يريده هذا الشخص ، وعما قد يؤثر فيه ، وعن الشىء المهم بالنسبة له . ألسنا نجد أن البائع الناجح يتعلم متى يركز على رخص السلعة ، ومتى يركز على حاجات الأفراد إلى المكانة الاجتماعية . والطبيب الذى ينسى أن مرضاه يفتقرون إلى شىء من التعاطف

افتقارهم إلى الدواء ، سوف يتناقص عدد زبائنه حتماً .

ومفاهيم الدافعية تجدها ملتحمة بكثير من أنظمتنا الاجتماعية . من ذلك أن عقوبة مَنْ يقتل إنسانا آخر تتوقف على دافع القاتل ، وعلى ما إذا كان القتل قد تم فى حالة تمالك القاتل لأعصابه ، أم تم فى حالة ثورة الانفعال . وعضو المجلس التشريعى أو النيابى قد يطالب بإباحة المراهنات على الخيول بدعوى أن لدى الإنسان غريزة تدفعه إلى المقامرة ، غريزة لا يمكن أن نقتلعها مهما فعلنا . ورجال السياسة والدولة عندما يتناولون التوترات الدولية قد يطلقون افتراضات كثيرة تتصل بالدوافع ، كأن يقولوا إن الحرب لا يمكن تجنبها لأن لدى الإنسان غريزة التدمير ، أو إن الناس لن يترددوا فى تفضيل الحرية إن ترك لهم حق الاختيار . وهذه الافتراضات قد تكون صحيحة أو غير صحيحة .

لقد ظل الفلاسفة والمشتغلون باللاهوت عدة قرون يتجادلون فى طبيعة الإنسان . وكثيراً ما كانوا يثيرون الأسئلة ويستخرجون النتائج عن الدافعية وهم فى غمرة هذا الجدال . من ذلك ، مثلاً ، أن فيلسوف القرن السابع عشر الإنجليزى توماس هوبز Thomas Hobbes ذهب إلى أن الإنسان فى جوهره أنانى ، ميال إلى التدمير ، والوحشية . ثم استنتج من هذا أنه لابد ، لكى نمنع الفوضى والاضطراب ، من أن يستسلم كل فرد لقوة سلطان مطلق . وفى هذا القرن نفسه ، نجد جون لوك John Locke ، أحد الداعين بقوة إلى الحكومات البرلمانية يكتب قائلاً إن الطبيعة الأصلية للإنسان هى المسالمة ، والنوايا الطيبة ، والميل إلى التعاون مع الغير .

من هنا يتضح ، إذن ، أن تصوراتنا عن الدافعية عند الإنسان لها تأثير عام شامل على حياتنا . إن المسألة هى إلى أى حد هذه التصورات دقيقة؟ لقد كان كل من هوبز ولوك يدافعان بحرارة وإقناع عن مواقفهما ، على الرغم من أن المرء يميل إلى الظن بأن معتقداتهما السياسية هى التى أملت عليهما آراءهما عن طبيعة الإنسان . ترى أى واحد منهما صاحب الرأى الصحيح ؟ قد يتوقف الجواب بالنسبة لكثير من الناس على

اقتناعه الشخصى . أو خبرته الخاصة . أو على المنطق وقوة الحجة ، أو على غالبية الأصوات . ولكن هذه كلها ليست بأساليب علمية .

وإنما يقوم المنهج العلمى على صياغة فروض نظرية واضحة ، ثم نقوم باختبار صحتها بالملاحظة المنضبطة الدقيقة . وقد بدأت حديثاً الدراسة العلمية للدوافع والانفعالات عند الإنسان . وسوف نصف فى هذا الكتاب بعض المناهج والنتائج التى توصل إليها علماء النفس ممن درسوا الدافعية دراسة علمية . على أن الحقائق المنعزلة تكون قليلة الأهمية إذا هى لم ترتبط وتتكامل فى تصور نظرى شامل . كما أن ميدان الدراسة حديث جداً حتى إنك لا تجد إطاراً نظرياً ينعقد عليه الإجماع فى الدافعية . وإنما نجد . بدلاً من ذلك ، عدداً من التصورات المتنافسة التى ورثناها عن الفلسفة أو استعرناها من علوم الحياة . والآن سوف نصف هذه التصورات الرئيسية ، ثم نشير ونحيل إليها بعد ذلك كلما مضينا فى الكتاب .

النظريات المعرفية

أقدم الآراء عن الإنسان أنه كائن عاقل فى جوهره ، وأن له رغبات شعورية ، وأنه يستخدم قدراته فى إشباعها . كانت هذه هى الفكرة الأساسية عند الفلاسفة القدماء من أمثال أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle ، وعند فلاسفة العصور الوسطى من أمثال القديس توماس الأكوينى St. Thomas/Aquinas ، وعند المفكرين الأكثر حداثة ومنهم ديكارت Descartes وهوبز وسبينوزا Spinoza . وهذا هو كذلك الرأى الذى تجده عند رجل الشارع العادى . فالمرء يفكر فيما هو بحاجة إليه ، ثم يحاول أن يجد الوسائل للحصول عليه .

وقد لعبت فكرة إرادة الإنسان ، فى هذه النظريات دوراً كبيراً . كانت الإرادة تعد واحدة من « ملكات » العقل شأنها شأن التفكير والشعور . ومادام الفرد يستطيع أن يتحكم فى إرادته ، فلابد أن يكون مسئولاً عن أفعاله . والإنسان لا تتجاذبه من حوله قوى لا يملك السيطرة عليها . وإنما هو يستطيع أن يشكل العالم حتى يشبع رغباته ويحققها . وقد بلغ من أهمية القضية بالنسبة لمستقبل الإنسان عند الفيلسوف

أبيقور Epicurus إلى حد أنه نسب الحرية للذرات فى المادة الجامدة حتى يمكن أن يعد الإنسان حراً كذلك .

لكن علماء النفس لم يجدوا لمفهوم الإرادة ـ الحرة أو غير الحرة ـ نفعاً كبيراً فى تفسير ما يكون لدى الشخص من رغبات ومطالب معينة . لذلك ، اتجه البحث عن مصادر الدوافع إلى التراث البيولوجى للإنسان وإلى خبراته السابقة فى الحياة الاجتماعية . بل إن المرء قد لا يكون على دراية أو وعى بالدوافع التى تؤثر فى سلوكه . ولذلك ، كانت الدوافع تُميَّز عادة عن التفكير والعمليات المعرفية الأخرى .

ومع ذلك ، لا يزال نفر من علماء النفس اليوم يحتفظون بقوة بوجهة نظر معرفية فى أساسها فى مسألة الدافعية . ولعل أحسن مثال على هؤلاء هو جورج كيلى George A. Kelly الذى لا يكاد يكون لمصطلح الدافعية وجود عنده . فهو لا يؤمن بأن السلوك أمر فى حاجة إلى ما يدفعه أو يحركه ، وإنما يؤمن بأن السلوك نشط على الدوام ، وأن المشكلة الرئيسية تتركز فى اختيار البدائل . والقرار الذى يتوصل إليه الإنسان إنما يتوقف على تكويناته الشخصية ـ من أفكار ، وقيم ، واتجاهات نحو العالم . وهكذا تجد أن الإنسان فى كثير من البلاد المتخلفة من العالم تكون تكويناته الشخصية من النوع الذى يجعله يقرر الاختيار بين الرأسمالية المستغلة أو الشيوعية . ويقول كيلى : إنك قد تجد طائفة أخرى من التكوينات الشخصية لدى الفرد بحيث يصبح عليه أن يقرر الاختيار بين الاستبدادية أو الديمقراطية بالمعنى الواسع لهذين المصطلحين .

على أن كثيراً من علماء النفس يرون أن هذه النظرية المعرفية ، ولو أنها تزودنا بتحليل دقيق لعملية التوصل إلى قرار ، إلا أنها لا توضح لنا شيئاً من المتغيرات الدافعية . وأن وراء الاختيار بين نظام سياسى ونظام سياسى آخر تكمن رغبات الناس فى الطعام ، والأمن ، وتقدير الذات . صحيح أن التكوينات الشخصية للإنسان تحدد بلا شك السبل التى يسلكها بحثاً عن هذه الأهداف ، ولكن التحليل المعرفى

لا يتعارض بالضرورة مع الرأى القائل بأن لدى الإنسان دوافع أساسية يسعى إلى إشباعها .

النظريات القائمة على مبدأ اللذة

من بين التفكير الفلسفى الذى انصب على عقل الإنسان وإرادته نجد فكرة ثانية ـ مؤداها أن الإنسان يسعى إلى تحصيل اللذة وتجنب الألم . وهذه الفكرة ، التى تسمى مذهب اللذة ، عبارة عن محاولة لتفسير السبب فى أن الناس يسلكون كما نراهم يسلكون . ولا ينبغى أن نخلط بينها وبين مذهب اللذة بوصفه نظاماً خلقياً ينبغى للفرد فيه أن يبنى حياته بإرادته على السعى إلى اللذة وتجنب الألم . ونظرية اللذة فى الدوافع وإن كان يمكن تتبعها عند الفلاسفة الأقدمين ، إلا أنها كانت أبرز وأظهر ما تكون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وقد رفض علماء النفس نظرية اللذة ، كما رفضوا أغلب النظريات الفلسفية العقلانية . فعلماء النفس لم يكونوا راضين عن كون نظرية اللذة تقتضى معرفة خاصة بخبرات الشخص . فماذا لدينا من معرفة عما لدى الشخص الآخر من إحساسات داخلية باللذة؟ إن مايستمتع به فرد من الناس قد يؤذى فرداً آخر غيره. ثم إنهم يرفضون هذه النظرية لسبب آخر هو أنها تدور بنا فى حلقة مفرغة. تقول النظرية إن الإنسان يسعى إلى تحصيل اللذة، وإذا كان يسعى إلى شىء ما، إذن، لابد أن هذا الشىء لذيذ. فماذا نقول عن الرجل الذى نراه يسعى إلى الفشل؟ وماذا نقول عن الانتحار؟ كما أن هناك أناساً نراهم يرفضون أن يجعلوا من السعى إلى تحصيل اللذة مبدأً لهم فى الحياة . خذ لذلك ، مثلاً ، جماعة المتطهرين The Puritans الذين كانوا يرون فى اللذة خطيئة ينبغى تجنبها . قد تقول ، طبعاً ، إن المتطهرين كانوا يجدون اللذة فى التعفف والامتناع ، ولكننا بمثل هذا الجدل إنما نفسر السلوك بعد وقوعه فقط ، ويترتب على ذلك أن تفقد نظرية اللذة كل قدرة على التنبؤ .

ومع ذلك، فقد وجدنا نظرية اللذة تعود إلى الحياة فى السنوات الأخيرة. إذ

وجدنا بعض علماء النفس من أمثال بول ت . يونج Paul T.Young ، ودافيد ك . ماكليلانـد David C. Mc Clelland يقدمون لنا صورة أكثر رقياً وتعقيداً من نظرية اللذة . وهم لا يعتمدون على التقارير الذاتية الصادرة عن الشخص عن اللذة والألم ، وإنما يلجأون إلى مقاييس موضوعية لسلوك الاقتراب والتجنب . أى أنهم أصحاب نظرية تجريبية فى اللذة . وسوف نرى فيما بعد أن هناك عدة أدلة على وجود عمليات فيسيولوجية فطرية خاصة باللذة والألم .

أما نظرية اللذة عند ماكليلاند فإنها تستخدم نموذج الإثارة الوجدانية ، بمعنى أن هناك مثيرات بيئية معينة من شأنها أن تستثير بالفطرة حالة من اللذة أو الألم ، وأن لدى الإنسان بفطرته ميلاً إلى السعى نحو هذه المثيرات أو إلى تجنبها . وتتوقف درجة الشعور باللذة أو الألم (أو الانفعال) على التكيف السابق للشخص . ومثال ذلك أن الصوت القوى الشديد قد يكون مزعجاً للفرد فى الظروف السوية ، لا بعد أن يكون قد قضى عدة ساعات فى مطار يعج بالطائرات النفاثة . فالفروق الطفيفة عن مستوى التكيف تكون مثيرة للذة ، بينما تكون الفروق الكبيرة منفرة . ولعل هذا يعيننا على تفسير كيف أن الشخص يجد اللذة أحياناً من الدغدغة الصادرة عن تيار كهربى طفيف جدا ، ولكنه ينفر ويجفل منه إذا اشتد .

والدافعية ، عند ماكليلاند ، تتألف من توقعات نتعلمها بأن هذا الهدف سوف يستثير استجابات (أرجاعاً) انفعالية إيجابية أو سلبية . وهكذا نجد أن الإنسان يسعى نحو الأهداف الذى سبق له أن عرف أنها تثير اللذة ، ويتجنب ما سبق له أن وجده مؤلماً ، وبهذا المعنى يقول ماكليلاند : إن كل الدوافع متعلمة . فالاستثارة الوجدانية فطرية ، ولكن التوقع مكتسب . وبهذا الشكل يبدو أن من الممكن تحوير مفهوم اللذة إلى نظرية علمية مفيدة .

نظريات الغرائز

البداية الحقة للنظريات العلمية فى الدافعية نجدها فى نظرية تشارلز داروين Chorles Darwin فى التطور . فقد رأى داروين أن بعض الأفعال « الذكية »

المعينة موروثة. وأبسط أنواع هذه الأفعال هى الأفعال المنعكسة، مثل منعكس المص الذى نجده عند الصغار. لكن هناك أنواعاً أخرى أكثر تعقيداً، مثل ميل الطيور إلى تجنب الإنسان مع أنه لم تسبق لها خبرة به. وهذه الأفعال التى هى أكثر تعقيداً تسمى بالغرائز، وهى فكرة يمكن أن نتتبعها إلى قديم الزمان. وقد رأى داروين أن الغرائز تنشأ عن طريق الاختيار الطبيعى. كما أن الغرائز تعد عادة أكثر مرونة من الأفعال المنعكسة، وأنها لذلك تسمح بسلوك أكثر تغيراً.

وعند بداية هذا القرن أخذ بعض أصحاب النظريات من أمثال وليام جيمس William James، وسيجموند فرويد Sigmund Freud ووليام ماكدوجال William MC Dougall يجعلون من فكرة الغريزة مفهوماً تفسيرياً هاماً فى علم النفس. وإذا كان بعض المؤلفين قد رأوا أن الغرائز أقرب إلى أن تكون ميكانيكية عمياء، إلا أن ماكدوجال، أكثر أصحاب هذه النظريات منهجية، كان يرى أن الغرائز ميول تتصف بالغرضية، وأنها متوارثة، وأنها تسعى إلى أهداف. ومن أقواله: «نستطيع، إذن، أن نعرف الغريزة بأنها استعداد نفسى جسمى موروث أو فطرى يجعل صاحبه يدرك بعض الأشياء المعينة أو يلتفت إليها، ثم يخبر عند إدراكه لها نوعاً معيناً من الاستثارة الانفعالية، ثم يسلك بإزائها على نحو معين، أو يخبر فى نفسه على الأقل نزعة تدعوه إلى أن يسلك كذلك(*)».

ومن الواضح أن كثيراً من الأفعال لدى كثير من الفصائل الحيوانية يمكن أن تعد غريزية. ولكن، لما كان هدف العلم التبسيط، فقد استهدفت الجهود البحث عن عدد محدود من الغرائز الأساسية التى يمكن أن تفسر كل السلوك. أما بعض أصحاب النظريات فقد ركزوا أكبر الاهتمام على غريزة واحدة أو غريزتين، وذلك كما فعل فرويد حين أكد الغريزة الجنسية وغريزة العدوان. وأما ماكدوجال فكان أقرب إلى الاتجاه العام حين افترض وجود عدد قليل من الغرائز. وقد اشتملت قائمته التى أوردها سنة ١٩٠٨ على: الهرب، والنفور، وحب الاستطلاع، والمقاتلة،

---

* W. Mc Dougall, An Introduction to Social Psyehology.
New york: Barnes and Noble. 1960 (Original, 1908).

وتحقير الذات ، وتأكيد الذات ، والوالدية ، والتناسلية ، والجوع ، والتجمع ، والامتلاك ، والبناء .

وقد سادت فكرة الغرائز فى علم النفس خلال الربع الأول من القرن الحالى . ثم أخذت تواجه الصعوبات . أولى هذه الصعوبات أن قائمة الغرائز جنحت بشكل مزعج إلى النمو والازدياد ، إذ كان كل مؤلف يضيف عدداً منها ، حتى وصل طول القائمة فى العشرينيات إلى ما يقرب من ستة آلاف غريزة ، من بينها «غريزة لدى الإنسان تجعله يتجنب أن يأكل الفاكهة من بستانه هو». وفى العشرينيات وجدنا جون واطسن John Watson وغيره من أعضاء المدرسة الفكرية السلوكية ، ومعهم عدد كبير من المشتغلين بالأنثروبولوجيا الحضارية ، يبدأون هجوماً على نظرية الغرائز ، ويحاولون تفسير أكبر قدر ممكن من السلوك على أساس من التعلم ، بل ويتحدثون عن «علم النفس بدون وراثة» .

وعلى الرغم من أن نظرية الغرائز بدت وكأنها تموت موتاً بطيئاً ، إلا أنه لم يتم التخلى عنها تماماً ، وأنها عادت إلى الحياة على يد بعض علماء الأخلاق الاجتماعية الأوروبيين من أمثال نيقولاس تنبرجن Nikolaas Tinbergen وبعض المشتغلين بعلم النفس المقارن من الأمريكيين من أمثال فرانك بيتش Frank Beach وقد أكد هؤلاء العلماء الأوصاف المفصلة للسلوك الغريزى ، وخصوصاً عند الكائنات الحية الدنيا . وهكذا انتقلوا من التفكير النظرى الخامل فى الغرائز إلى التجريب فى المختبرات . كما أن دراساتهم تربط كذلك بين السلوك الغريزى وما يكمن وراءه من عمليات أو ميكانيزمات فسيولوجية .

ومن الأمثلة على هذه الدراسة الجديدة للغرائز اكتشاف ظاهرة الانطباع . فلعلك شاهدت البطة الأم تسبح فى بركة ومن ورائها صف من صغار البط يتبعها . مثل هذا السلوك نمط غريزى عند الطيور . ولكنه لاينشأ إلا فى ظروف خاصة فقط . ذلك أن هناك فترة حرجة تتكون من عدة أيام من بعد الفقس والخروج من البيضة يمكن لصغار البط فيها أن يصبح مرتبطاً بأى واحد من عدة موضوعات مثيرة . هذا الموضوع المثير يكون فى العادة هو البطة الأم ، ولكن البطة الصغيرة قد

تصبح مرتبطة كذلك بدجاجة ، أو قارب ، أو إنسان تصدر عنه أصوات البط . ولعلك تذكر ، فى هذا الصدد ، قصة البطة الصغيرة القبيحة[1] . ولكننا نجد أنه بعد أن يتم التعلق أو الارتباط ، يصبح الشىء الذى تتعقبه البطة الصغيرة منطبعاً ثابتاً لا يقبل التغيير . فالبطة الصغيرة القبيحة لم يكن بإمكانها ، فى واقع الأمر ، الرجوع إلى أمها البجعة الجميلة .

نظريات الباعث

إن أبرز مفهوم فى مجال الدافعية اليوم هو مفهوم **الباعث**. وقد أورد هذا المفهوم العالم روبرت س . وودورث Robert S. Woodworth فى سنة ١٩١٨ ليصف « الطاقة » التى تضطر الكائن العضوى إلى الحركة وذلك فى مقابل العادات التى توجه السلوك فى هذا الاتجاه أو ذاك . وعلى الرغم من أن وودورث كان يعنى بالمصطلح ذلك المخزن العام من الطاقة ، إلا أن الناس سرعان مابدأوا يتحدثون لا عن الباعث ، ولكن عن عدة « بواعث » مختلفة ، من قبيل الجوع والجنس والعطش ، وما إلى ذلك . وكانوا يقصدون بذلك الميل للتوجه نحو أهداف معينة أو للابتعاد عنها . وبذلك أصبحت فكرة البواعث تشبه من عدة وجوه فكرة الغرائز . معظم علماء النفس كانوا مع ذلك أكثر تقبلاً لنظرية الباعث .

من أسباب ذلك أن البواعث تم التوصل إليها واحداً واحداً . وعلى أساس من التجارب المدققة ، كما أعطيت تعريفات إجرائية محددة . والتعريف الإجرائى للباعث هو التحديد الدقيق للظروف التى يمكن أن يقال فيها بوجود الباعث وللوسائل التى تستخدم فى قياسه . وهكذا قد نتمكن من قياس الباعث بعدد ساعات الحرمان من الطعام ، أو بدرجة تركيز الهورمونات الجنسية فى الدم ، أو بمدى شدة الصدمة الكهربية . وخفض الباعث يمكن تحديده أو تعريفه بإجراءات

(١) قصة البطة القبيحة The Ugly Duckling هى إحدى قصص هانز كريستيان أندرسون Hans Christian Anderson وتذكر القصة أن بجعة صغيرة فقدت أمها فتتبعت بطة كبيرة بدلاً من أمها الحقيقية البجعة . وارتبطت بها كما يرتبط صغار البط بأمهم (المترجم) .

من قبيل إشباع الجوع بالطعام ، أو الإنهاك الجنسى ، أو انتهاء الصدمة .

وقد أعان كثيراً على تقدم المنطق الذى تقوم عليه نظرية الباعث ، مفهوم الاتزان الحيوى (أو الهوميوستاز) التى أتى بها عالم الفسيولوجيا المسمى والتر ب . كانون Walter B. Cannon فى سنة ١٩٣٢ . ومؤدى هذا المفهوم أن حالة من عدم الاتزان تنشأ فى الجسم كلما انحرفت الظروف الداخلية عن حالة ثابتة سوية . والبواعث النفسية (السيكولوجية) هى وسيلة يحاول بها الجسم استعادة اتزانه . ولذلك ، فإن مخزون الغذاء حين ينضب من الجسم ، ينشط باعث الجوع ، ويبدأ البحث عن الطعام واستهلاكه ، وبذلك تتم استعادة الاتزان . وهكذا أصبحت الدافعية تعرَّف بأنها البواعث الناشئة عن اختلال الاتزان الحيوى أو توتره .

وقد كان لفكرة الباعث الهوميوستازى تأثيرها العظيم فى مجال التعلم . من ذلك ، مثلاً ، أن كلارك هل Clark L. Hull المنظِّر فى التعلم ذهب فى سنة ١٩٤٣ إلى أن كل السلوك تحركه بواعث هوميوستازية أو بواعث ثانوية تقوم عليها . وحالات البواعث الداخلية يمكن تحقيقها عن طريق حرمان الحيوان من الطعام أو الماء أو الخبرة الجنسية . وحالات البواعث هذه إنما تعكس اختلالاً فى الاتزان الحيوى (الهوميوستازى) ، أو توترات داخلية .

وكذلك ذهب «هل» إلى أن كل أنواع الإثابة تقوم فى آخر الأمر على خفض لواحد من البواعث الأولية الهوميوستازية . والإثابة بتقديم الطعام تخفض من اختلال الاتزان الهوميوستازى الذى يحدثه الجوع . والإنسان ، أو حيوان المختبر ، يمكنه أن يتعلم استجابة ما من أجل أن يحصل على الإثابة (أو المكافأة) . والأنواع الثانوية من الإثابة ، من قبيل الاستحسان الاجتماعى ، إنما تحدث مفعولها لأنها ارتبطت من قبل ذلك فى الماضى بالطعام ونحوه من الأنواع الأولية من الإثابة .

وحديثاً انصب قدر كبير من الاهتمام على المصادر الخارجية للدافعية ، وذلك فى مقابل العوامل المسببة الهوميوستازية الداخلية . مثال ذلك أن الشىء المستهدف نفسه قد يستثير الدافعية بالإضافة إلى كونه إثابة على نوع من التعلم . فالإنسان قد لا يشعر

شعوراً متميزاً بالجوع إلا بعد أن يشم العبير الشهى الصادر عن دجاجة يتم شواؤها على النار . ويقال إن رائحة الطعام ، أو منظرة أو طعمه تعمل بوصفها حافزاً . وفى المواقف الاجتماعية بصفة خاصة يكون التأثير الدافعى للهدف فى كثير من الأحيان أكثر وضوحاً من تأثير العوامل الداخلية . فالدافعية تستثيرها الحوافز المالية ، ورؤية الفتاة الجميلة ، والإعلان التليفزيونى .

وعلى الرغم من أن نظرية الباعث لاتزال تمثل، فى هذه الصورة منها أو تلك، حجر الزاوية فى التفكير الحديث عن الدافعية . إلا أن كثيراً من علماء النفس يرون فيها أوجه قصور ونقص . وقد تركز الجدل والخلاف حول ثلاثة أسئلة رئيسية : هل البواعث الأولية مرادفة للحاجة الفسيولوجية الداخلية ؟ هل كل الحوافز والإثابات تتوقف على التوتر الهوميوستازى وخفض هذا التوتر؟ هل كل الدوافع الاجتماعية تقوم وترتكز على بواعث فسيولوجية أولية من قبيل الجوع والجنس والألم ؟ هذه الأسئلة وغيرها سوف تكون موضعاً لدراستنا فى الفصول التالية .

تعريف للدافعية

من الواضح أن أصحاب النظريات يختلفون فيما بينهم فى تصوراتهم عن الدافعية . ولكن هناك مع ذلك اتفاقاً عاماً على أن الدافع عبارة عن عامل داخلى يستثير سلوك الإنسان ، ويوجهه ، ويحقق فيه التكامل . ونحن لا نملك أن نلاحظه ملاحظة مباشرة ، وإنما نستنتجه من سلوكه أو نفترض وجوده حتى يمكننا تفسير سلوكه . ثم إن الدافعية تتميز عن بعض العوامل الأخرى التى تؤثر كذلك فى السلوك ، مثل الخبرات السابقة للشخص ، وقدراته الجسمية ، والموقف البيئى الذى يجد نفسه فيه ، ولو أن هذه العوامل الأخرى قد تؤثر فى الدافعية .

والدافع يتم تقسيمه أو تحليله إلى عنصرين اثنين هامين . ذلك أن مصطلح الدافع يشير، أولاً ، إلى العملية الداخلية التى تضطر الشخص إلى الفعل. والدافع قد يتأثر بالبيئة الخارجية ـ بدرجة الحرارة مثلاً ـ ولكن الدافع ذاته داخلى . ثم إننا نجد ، ثانياً ، أن الدافع قد ينتهى بالوصول إلى **هدف** ، أو الحصول على **إثابة** .

ونحن نفترض أن الهدف أو الإثابة تحدث شيئاً من الإشباع أو الخفض على هذا الإلحاح الداخلى ، بحيث أننا نجد ، بعد بلوغ الهدف أو الحصول على الإثابة الكافية ، أن الدافع يتوقف عن توجيه السلوك فترة من الوقت . إن الهدف أو الإثابة قد يتضمن شيئاً خارجياً مثل الطعام ، ولكن عملية انتهاء الدافع ذاتها مسألة داخلية .

على أن بعض علماء النفس يضيفون إلى ذلك أن الدافعية تتضمن بالإضافة إلى ذلك **رغبة شعورية** فى شىء من الأشياء. وهذا هو مايسمى أحيانا مطلباً. والرغبة أو المطلب تكون مرتبطة بوظيفة للدوافع هى أنها تحدد اختيار الهدف . ولكننا نجد مع ذلك أن علماء النفس الآخرين يرون أن الرغبة أو المطلب أمر موغل فى الذاتية بحيث تنعدم قيمته العلمية . وهم يؤثرون أن ينظروا إلى التقرير اللفظى الذى يقدمه الشخص عن مشاعره الداخلية على أنه جانب من السلوك الذى يتأثر بذلك الدافع الذى نستدل عليه .

الفصـل الثـانى

الدافعيّـة والسّـلوك

الإنسان فى كل لحظة وفى كل وقت تدفعه عوامل شتى داخلية وخارجية . ومن شأن هذه الدوافع بقوتها وأنماطها أن تؤثر فى إدراكنا للعالم من حولنا . وفيما نفكر فيه من الأشياء ، وفيما ننغمس فيه من الأفعال . تخيل طالبًا يسير فى الطريق معرضا لكل أنواع المشاهد والأصوات . إنه لا يستطيع أن ينتبه إلى كل هذه المثيرات . وإنما هو يستجيب لعدد محدود منها فقط . وقد تستثير بعض المثيرات غير العادية حب الاستطلاع عنده ـ كأن يتوقف ليشهد بناءً يقوم العمال بهدمه . وحب الاستطلاع قد لا يكون الدافع الوحيد . وإنما قد يكون الطالب قضى يومًا عصيبًا شاقاً ، ولذلك تراه يتأخر ليستمتع بما يشهد من هدم وتدمير . وقد تمر بذهنه أفكار خاطفة من نوع تدميرى مشابه نحو أستاذه . أو صديقه . أو نحو المجتمع بصفة عامة .

ثم يستأنف الطالب أخيرًا سيره . فيلحظ مطعمًا ويتبين أنه جائع . وقد يتعجب من أنه كثيرًا مامر بهذا المطعم من غير أن يلتفت إليه أو يدرك وجوده ـ فإنه لم يكن جائعًا فى المرات السابقة . وبينما هو يوجه طلباته إلى الفتاة العاملة بالمطعم يجد نفسه يغازلها . وهو يستمتع بذلك . ولكنها هى متعبة تشكو صداعًا . ولذلك فإنها تراه بغيضًا مزعجًا . ولكنها مع ذلك ، ولحاجتها إلى (البقشيش) تسايره وتتحمل دعابته .

بعد ذلك وهو يستذكر دروسه فى غرفته تراه يركز فكره على تعلم الرياضيات . أو البيولوجيا ، أو اللغة . ثم يدركه التعب فيحفز نفسه بالتفكير فى التقديرات التى

لابد له من الحصول عليها لكى يستطيع الالتحاق بكلية مرموقة . وهو قد يتوقف ليفكر فى والديه ويسأل نفسه إن كانا يدركان مدى الجهد الذى يبذله حتى يحرز النجاح الذى يتوقعان . وأخيرًا بعد أن ينام تجده يحلم حلمًا مضطربًا يرى فيه أستاذه ـ وعلى ملامحه نظرات الريبة والتشكك مثل الأب ـ يصافحه فى حزن وهو يعيد إليه ورقة الإجابة . كما يرى فيه الفتاة عاملة المطعم وهى توجه إليه نظرات خبيثة ، ثم يرى نفسه فى الحلم وهو يدير جهازًا يهدم به مبانى يبدو أنها من نوع المبانى الأكاديمية .

فى هذا المثال يمكننا أن نرى تأثير دوافع الفضول ، والعدوان ، والجوع ، والجنس ، والتعب ، والألم ، والإنجاز ، والحب على كل من الإدراك ، والتفكير ، والعمل ، والكلام ، والتعلم ، والأحلام . فالدوافع تتذبذب وترتب نفسها فى أنماط مختلفة فى الأوقات المختلفة . وهناك بعض الدوافع تجدها تؤدى عملها على الدوام عند الشخص بحيث تجد سلوكه واقعًا تحت سيطرتها إلى حد كبير . وتأثير هذه الدوافع يمكن أن يتضح من تجارب المختبر التى نقوم فيها بضبط الدوافع ضبطًا دقيقًا ، والتى تزودنا بمقاييس موضوعية للسلوك . والآن ندرس الوسائل التى استخدمها علماء النفس لدراسة آثار الدافعية على الوظائف السيكولوجية المختلفة .

قياس الدافعية

كيف نتعرف على أن رجلاً من الناس عنده دافع يدفعه ، وكيف يمكننا تحديد نوع الدافع ؟ وكيف نقيس هذا الدافع ؟ هناك وسيلتان لذلك ـ أن نقيس بعض الظروف الخارجية المعينة التى نظن أنها تولد الدافع ، أو أن نقيس بعض جوانب السلوك عند الشخص ، تلك الجوانب التى تعكس ما لديه من دوافع [1] .

---

(١) يستخدم المؤلف أحيانًا اصطلاح « الباعث » drive للبواعث الفسيولوجية ، واصطلاح « الدافع » motive للدوافع السيكولوجية والاجتماعية . غير أنه فى كثير من الأحيان يستخدم الاصطلاحين باعتبارهما مترادفين ، فيقول دوافع فسيولوجية ، وبواعث سيكولوجية واجتماعية . ولذلك رأينا أن نوحّد المصطلح فى الترجمة العربية ، واستخدمنا مصطلح « الدافع » بالنسبة لكل =

أما استخدام ظروف الدافع الخارجية لقياس الدافعية فأكثر ما يكون فى المختبر. من ذلك أننا نقيس الجوع عادة **بعدد الساعات** التى تم خلالها **حرمان** المفحوص من الطعام. كذلك يمكن قياس الجوع عن طريق النسبة المئوية لما تم فقدانه من وزن الجسم، أو عن طريق عدد السعرات الحرارية التى تم استهلاكها فى فترة زمنية معينة، أو بغير ذلك من الوسائل. وأما الألم فكثيرًا ما نقيسه عن طريق **قوة الصدمة الكهربية** التى توجه إلى الحيوان فى المختبر. ودافع الإنجاز يمكن استثارته عن طريق **توجيه تعليمات** إلى المفحوص بأن العمل المطلوب أداؤه مقياس للذكاء. وعلى الجملة، نقول: إن **الحرمان**، **والإثارة**، **والتعليمات اللفظية** هى الوسائل الأساسية للاستثارة التجريبية للدوافع.

ولكن هذه الوسائل أو الأحوال أو الظروف المستخدمة لإيجاد الدافع ليست مساوية تماما للدافع. قد تؤدى هذه الوسائل إلى إيجاد الدافع فى كثير من المرات. ولكنها لا تؤدى إلى إيجاده دائمًا. فعندما يمتنع الشخص عن تناول الطعام نهائياً لعدة أيام، فإنه لا يشعر بالجوع. والتعليمات المتصلة بالعمل المطلوب قد تستثير الإنجاز فى بعض الناس، ولا تستثيره فى بعضهم الآخر. ولذلك، فلابد من أن يكون هناك أثر معين على السلوك من قبل أن نتمكن من القول إن أحد الظروف التى من شأنها أن توجد الدافع قد أوجدته بالفعل.

إن من بين الآثار الرئيسية للدافع على السلوك أنه يحدد اختيار الأهداف. فلو أن حيوان المختبر رفع أنفه عن الطعام ثم جعل يشرب الماء، قلنا إنه عطشان ولكنه غير جائع. وكذلك قد يستجيب بعض الناس للتعليمات الموجهة لاستثارة الإنجاز، ويستجيب بعضهم الآخر للتعليمات الموجهة لاستثارة المودة، فنقول عندئذ إن الجماعة الأولى يدفعهم الإنجاز، والجماعة الثانية يدفعهم الانتماء. كما أن الإثابات تتوقف على الدافعية. فإن الحيوان قد يتعلم الجرى فى الممر ليصل إلى أنثى مستجيبة

= من الدوافع الفسيولوجية والدوافع السيكولوجية، إلا فى بعض الحالات القليلة كما حدث فى الفصل الأول من الكتاب حينما تكلم المؤلف عن نظريات الباعث (المترجم).

متقبلة ، ولا يفعل ذلك من أجل الطعام . والنجمة الذهبية قد تكون إثابة فعالة بالنسبة لبعض الأطفال ، ولا تكون كذلك بالنسبة للبعض الآخر . وعلى الجملة ، نقول إن وجود الدافع يستدل عليه من الأهداف التى يتخيرها الشخص ومن المكافآت التى تكون لها فاعليتها وأثرها .

كذلك قد يستدل على الدافعية من بعض الجوانب الأخرى للسلوك . فإن قوة الاستجابة ، وتكرارها ، وسرعتها قد تكون فى بعض الأحيان مؤشرًا للدافعية . كما أن غلبة فكرة معينة على أحاديث الشخص ، وخيالاته ، وأحلامه تشير إلى بعض الدوافع الكامنة عنده . فإن الشخص الذى لا يتحدث عن شىء ولا يفكر فى شىء إلا فى تحصيل المال يمكن أن يقال عنه إن دافعيته فى هذا الاتجاه قوية . ولكن الاستدلال على الدافعية من السلوك أمر صعب ، وقد يكون مضللاً فى بعض الأحيان. وذلك لأن السلوك لا تحدده الدافعية فقط ، وإنما تشترك فى تحديده أيضًا عوامل أخرى مثل الموقف الراهن والخبرات السابقة . فقد يكون الشخص تعلم من سابق خبراته أن امتلاك المال وسيلة للحصول على التقدير. وعندئذ يكون الدافع لدى هذا الشخص ، فى حقيقة الأمر ، هو الحصول على التقدير ، بينما يكون تحصيل المال مجرد وسيلة لتحقيق هذه الغاية . وكذلك ، قد يحصل الرجل على التقدير فى أحد المواقف عن طريق التحدث عن المال ، ويكسبه فى موقف آخر عن طريق التحدث عن الأنشطة الثقافية . ولذلك ، فإنه لا سبيل إلى الاستدلال الصحيح على دوافع الشخص من سلوكه إلا إذا عرفنا خبراته السابقة واستطعنا التحكم فى الموقف الذى يجد نفسه فيه . وفيما يلى سوف نضرب الأمثلة التى توضح كيف أن الدافعية مرتبطة بأنواع مختلفة من السلوك يتم فيها ضبط تأثير الموقف الراهن والخبرات السابقة .

التعلم والأداء

ظل تأثير الدافعية على التعلم والأداء موضوع الاهتمام الرئيسى بالنسبة لعلماء النفس عدة سنوات . وقد ظلوا يبحثون بهذا الصدد عددًا من القضايا الأساسية

بالنسبة لكل أنواع السلوك . ونظرًا لأن للمشكلة تطبيقات واسعة ومترتبات كثيرة ، فقد حاول المجربون تنقية العملية عن طريق استخدام حيوانات بسيطة جداً ـ هى الفئران البيضاء عادة ـ وهى تتعلم استجابات بسيطة جداً كذلك . والفكرة هنا هى أن من السهل علينا أن نفهم الطبيعة الأساسية لتأثير الدافعية على التعلم والأداء فى هذا الموقف البسيط أولاً ، ثم نقوم من بعد ذلك بتعميمه على السلوك الذى هو أكثر تعقيدًا .

والسؤال الأساسى هو : هل زيادة الدافع تؤدى إلى زيادة فى الاستجابات الهدفية الملائمة لهذا الدافع ؟ هل زيادة الجوع تؤدى إلى زيادة الأكل ؟ هل يزيد الاتصال الجنسى بازدياد الدافع الجنسى ؟ والواقع أن هذه العلاقة قد ثبتت وتأكدت بالنسبة لعدد من الدوافع .

ولما كانت الاستجابات الهدفية أقرب إلى أن تكون من نوع الاستجابات المنعكسة ، لذلك كان يصبح من العجيب جداً ، فى الحقيقة ، أن نجد أنها لا تختلف بازدياد مستوى الدافع . ولعل السؤال ذا القدر الأكبر من الأهمية النظرية هو : هل ازدياد الدافع يسهل تعلم استجابة **جديدة** من أجل الحصول على الإثابة الملائمة ؟ وبعبارة أخرى ، هل يتعلم الطالب الذى يكون لديه دافع أكثر مما يتعلم الطالب الذى لا يكون لديه دافع ؟ لقد أظهر عدد كبير من الدراسات التجريبية على الحيوانات ، والأطفال ، والراشدين أن كل أنواع الاستجابات التالية : الجرى فى المتاهة ، والضغط على الرافعة ، والاستجابات اللفظية يتم تعلمها بمعدل أسرع عندما يزداد الدافع إلى مستويات معتدلة . وبالإضافة إلى ذلك نجد ، بعد أن تكون الاستجابة قد تم تعلمها ، أن أداء الاستجابة يتوقف على درجة شدة الدافع .

هل الدافعية من شأنها دائمًا أن تسهل التعلم والأداء ؟ إن قدرًا ملحوظًا من الأدلة التى تجمعت لدينا الآن تشير إلى أن ازدياد الدافع إلى نقطة معينة يسهل السلوك ، على حين أن الدرجات المتطرفة من الدافع قد تؤدى بالفعل إلى التدهور . وقد يكون هذا الأثر راجعًا إلى الإنهاك الجسمى ، أو إلى ظهور استجابات غير ملائمة ومتداخلة ، أو إلى حدوث حالة انفعالية .

على أن تحديد النقطة التى يبدأ عندها الدافع يتدخل فى التعلم والأداء أو يعرقلهما مسألة تتوقف على طبيعة العمل نفسه . فأما الأعمال البسيطة السهلة جداً فإنه يتم تسهيلها بأقوى الدوافع التى استخدمها المجربون ، على الرغم من أننا نتوقع ، عندما يصل مستوى الدافع إلى نقطة الإنهاك الفسيولوجى للحيوان ، أن تتدهور كل الأعمال حتى ماكان منها بسيطًا سهلاً . ثم إن الأعمال إذا ازدادت صعوبتها ، وجدنا المستوى المسهل أو الميسر للدافع ينخفض أكثر فأكثر. وقد تمت صياغة هذه العلاقة منذ عدة سنوات على يد اثنين من الباحثين فى علم النفس المقارن وعرفت باسم قانون يوركيس دودسن (The Yerkes-Dodson Law). ولعله يمكن التعبير عنه ببساطة فيما يلى : يتناقص المستوى الأمثل للدافع إلى التعلم بازدياد مستوى صعوبة العمل .

وقد تم التحقق من صحة هذا القانون عدة مرات . ولعل من أحدث وأوضح الدراسات التى تثبت صحته تلك الدراسة التى قام بها عالم النفس الإنجليزى ب.ل. برودهيرست P.L. Broadhurst . فقد درب الفئران على أن تسبح من خلال متاهة مغمورة تحت الماء على شكل حرف Y . وكان على الفأر حين يصل إلى بداية نقطة التفرع أن يختار فيما بين باب مضىء إضاءة ساطعة يمكن المرور منه والخروج من الماء ، وباب آخر مظلم يظل مغلقًا فلا يمكن المرور من خلاله والنجاة من الماء . وكان من الممكن أن نجعل الاختيار أو التمييز سهلاً كل السهولة إذا نحن جعلنا الباب الصحيح مضيئًا إضاءة شديدة بحيث يصبح شديد الاختلاف عن الباب غير الصحيح ، أو أن نجعله صعبًا إذا نحن قارنا بين البابين من حيث مستوى الإضاءة . وقد استخدم برود هيرست ثلاثة مستويات من صعوبة العمل . سهل ، ومتوسط أو معتدل ، ثم صعب .

كذلك كانت الدافعية تتركز فى الحاجة إلى الهواء بعد البقاء تحت الماء ، بمعنى أن مجموعات الفئران كانت تحتجز مغمورة تحت الماء لمدد متفاوتة مقدارها صفر ، أو ٢ ، أو ٤ ، أو ٨ ثوان من قبل أن يسمح لها بالعوم من خلال المتاهة . وهكذا نجد أنه كانت هناك أربعة مستويات من الدافعية وثلاثة مستويات من صعوبة العمل . كما أن مقياس التعلم الذى استخدم كان عبارة عن عدد الاختيارات الصحيحة التى

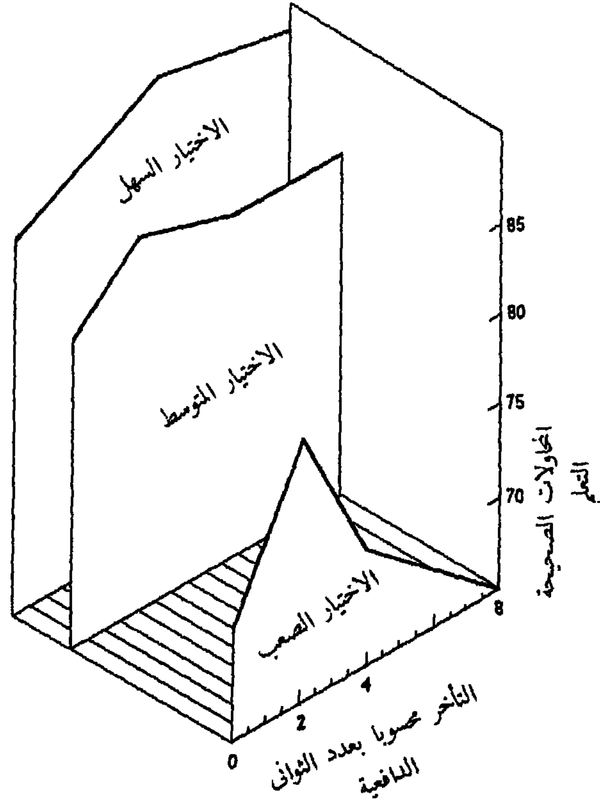
تصدر عن الحيوان عند نقطة التفرع فى المتاهة التى هى على شكل حرف Y .

ويوضح الشكل رقم (١) نتائج هذه الدراسة . ومنه نشهد أن المستوى الأفضل أو الأمثل للدافعية يتفاوت بتفاوت صعوبة العمل . أما بالنسبة للعمل السهل فقد كانت الدافعية على أفضل ما يمكن عند أربع ثوان من الحرمان من الهواء ، مع شىء طفيف من التناقص من بعد ذلك . وأما المستوى الأفضل من الحرمان بالنسبة للعمل الصعب فقد كان لمدة ثانيتين مع تدهور ملحوظ شديد من بعد هذه النقطة .

وقد تم التوصل إلى نتائج مماثلة إلى حد ما مع طلاب الجامعات عندما يقومون بأعمال مشابهة للامتحانات . بمعنى أننا وجدنا أن الدرجة المتوسطة المعتدلة من التوتر أو القلق قد تفيد ، ولكن الطالب إذا تزايد قلقه فإنه قد يعجز عن أن يصل إلى ذلك المستوى من التعلم والأداء الذى تسمح به قدراته . وفضلاً عن ذلك ، وتمشيًا مع قانون يوركيس ـ دودسن ، وجدنا أن الطلاب القلقين يتحسن أداؤهم فى الأعمال السهلة ، ويتدهور فى الأعمال الصعبة . وعلى الجملة ، نقول إن الدافعية تيسر التعلم والأداء إلى نقطة معينة فقط ، وأن موضع هذه النقطة يتوقف على طبيعة العمل .

فيما سبق كنا نناقش جانب الدفع فى العملية الدافعية . ولكن جانب المكافأة له أهمية مماثلة أيضًا . فإن من الطبيعى أن عدد المرات التى يثاب الكائن العضوى فيها على القيام بالاستجابة يحدد لنا قوة عادة القيام بهذه الاستجابة . فالإثابة أو المكافأة ، إذن ، هى بالدرجة الأولى مشكلة تتعلق بالتعلم ، لا بالدافعية . لكننا مع ذلك نجد أن طبيعة الإثابة ، لها فيما يبدو تأثير مباشر على الدافعية بأن تزيد أو تنقص من جاذبية الهدف . ومثل هذا التأثير يعرف فى بعض الأحيان بالقيمة الحافزة للإثابة .

من ذلك ، مثلاً ، أنه قد تبين أننا إذا كنا نعطى الحيوان عدة مئات من أقراص الطعام بعد كل مرة ينتهى فيها من قطع الممر جريًا ، فإنه يجرى أسرع مما لو أننا أعطيناه عشرة أقراص فقط ، أو نحو ذلك . وكذلك نجد أن لمذاق الطعام أهميته . فإن الحيوان يضغط على القضيب من أجل الحصول على طعام يحتوى على السكارين



شكل ١ ـ نموذج من أبعاد ثلاثة يوضح قانون يوركيس ـ رودسن . كانت الفئران تحرم من الهواء عن طريق حجزها تحت الماء لعدد متفاوت من الثوانى ثم يسمح لها بعدئذ بالهرب عن طريق اختيار الباب الصحيح . وقد اتضح أن أنسب الدافعية للتعلم انما تتوقف على درجة صعوبة عملية الاختيار .

(نقلا عن : P.L.Broadhurst. Emotionality and the Yerkes-Dodson Law.
J.exp. Psychol., 1957, 54, 345-352.)

أضعاف المرات التى يضغط فيها على القضيب للحصول على طعام عادى . كما أنه يضغط عددًا أقل من المرات لو أننا أضفنا إلى طعامه حامض الليمون . هذه الجوانب من الإثابة لها تأثيرها المباشر على الدافعية ، كما أن لقيمة الجائزة أو مكانتها تأثيرًا مباشراً على مدى اهتمام الشخص بالعمل من أجل الحصول عليها .

الإدراك الحسى والانتباه

إدراك العالم الخارجى ـ من خلال حواس الرؤية والسمع والشم والتذوق ونحوها ـ يتوقف إلى حد كبير على طبيعة المثير المادى الذى نواجهه . لكن هناك ، مع ذلك ، عوامل أخرى تؤثر كذلك فى اختيار الإدراك لهذا المثير بالذات من بين كل المثيرات التى تواجه الفرد فى وقت معين ، كما تؤثر فى طريقة تفسير هذا المثير . هذه العوامل تتضمن الخبرة السابقة ـ وهل الفرد مهيأ لهذه المثيرات أو متوقع لها ـ والدافعية .

وقد اتضح وتأكد دور الدافعية فى الانتباه والإدراك الحسى فى عدد كبير من التجارب . من ذلك ، مثلاً ، أن الجوع (أو العطش) المعتدل يؤدى إلى زيادة عدد الأشياء المرتبطة بالطعام أو الماء التى يراها الفرد فى الصور الغامضة التى تعرض عليه . ولعل المثال الصارخ هو أن الرجل العطشان فى الصحراء يبدأ يرى سرابًا من بحيرات باردة منعشة تظللها أشجار النخيل . وكذلك قد تؤثر الدوافع الاجتماعية المعقدة مثل الإنجاز والقيم الثقافية فى عملية الإدراك الحسى . ولكن الآثار تكون فى العادة معقدة وتصعب دراستها . ثم إن الجوع إذا كان يؤدى فى درجاته المتوسطة إلى تسهيل إدراك الأشياء المرتبطة بالطعام ، إلا أنه عندما يشتد ويقوى قد يؤدى إلى تأثير مضاد تمامًا ، ولعل السبب عندئذ أننا نميل إلى تجنب رؤية ما لا نستطيع الحصول عليه . أضف إلى ذلك أن كثيرًا من الدراسات الأولى لم تكن تلتفت إلى أثر **التوقعات** ، أو حالة التهيؤ عند الشخص. ذلك أن التعليمات التى توجه إلى الشخص قد **تهيئه** لأن يتوقع أو لا يتوقع الأشياء المتصلة بالدافعية عنده. بسبب هذه المشكلات لا يزال هناك قدر كبير من الخلاف والجدال حول التأثير الدقيق للدافعية على الإدراك الحسى .

وقد تمكن الباحثان ج . جيلكرست J. C. Gilchrist ول . س . نسبرج L.S. Nesberg ، فى واحدة من أكثر الدراسات انضباطًا فى هذا المجال ، من أن يقدما الدليل المقنع جداً على تأثير الدافعية على الإدراك الحسى . طلب هذان

الباحثان من طلاب الجامعة أن يمتنعوا عن الطعام لمدة عشرين ساعة. ثم طلبا من الطلاب عندئذ أن يصدروا أحكامًا إدراكية بعد تناول وجبة الغذاء مباشرة، وبعد انقضاء الموعد الذى كان من المفروض أن يتناولوا فيه العشاء، وبعد انقضاء الموعد الذى كان من المفروض أن يتناولوا فيه وجبة الإفطار فى صباح اليوم التالى. وكان الاختبار الإدراكى يتألف من مضاهاة درجة نصوع شرائح ملونة تحتوى على صور للدجاج المشوى واللحم المحمر ونحو ذلك. وكانت كل شريحة تعرض أولاً بدرجة نصوع قياسية أو موحدة ثابتة، ويطلب من الطلاب أن يدرسوها. ثم تنقضى بضعة ثوانٍ قليلة، وتعرض الشريحة مرة أخرى بدرجة أعلى أو أدنى من النصوع، ويكلف الطلاب أن يديروا مقبضًا ليعدلوا درجة النصوع حتى تماثل درجة النصوع التى عرضت بها الشريحة فى أول مرة. وقد تبين وجود خطأ منتظم، على الرغم من أن الطلاب كانوا يحسبون أنهم يصدرون أحكامًا دقيقة. فقد كانوا يزيدون من درجة نصوع صور الطعام كلما اشتد عندهم الجوع، على حين أن أفراد المجموعة الضابطة، الذين لم يتعرضوا للحرمان من الطعام، لم يظهر عندهم هذا التغير المتزايد. كذلك أوضح الباحثان أن الأفراد الذين حرموا من الماء وتعرضوا للعطش يجعلون صور الماء المثلج وعصير البرتقال والسوائل الأخرى تزداد نصوعًا كلما زاد عطشهم.

وأخيرًا أثبت جيلكرست ونسبرج أن هذه النتائج لم تكن راجعة إلى تأثير الدافعية على الإبصار بصفة عامة، وإنما كان تأثير الدافعية يقتصر على الإدراكات الحسية المتصلة بالدافع. فقد طلب من مجموعة من الأفراد الذين تعرضوا للعطش أن يعدلوا درجة نصوع صور محايدة (مثل الجبال والأشجار) بالإضافة إلى صور الماء المثلج وعصير البرتقال. وتبين النتائج أن مستويات نصوع الأشياء المتصلة بالعطش كانت أعلى بصورة متزايدة من مستويات نصوع المشاهدة المحايدة. وفضلاً عن ذلك، تبين أنه بعد تقديم ماء الشرب لهؤلاء الأفراد، انخفض مستوى نصوع صور الأشياء المتصلة بالعطش انخفاضًا ملحوظًا، بينما انخفض مستوى نصوع الصور الأخرى انخفاضًا طفيفًا.

وكذلك قد يكون للخوف والدوافع السلبية الأخرى تأثيرها كذلك على الإدراك

الحسى . فإن هناك بعض الأدلة التى تشير إلى أن هناك بعض الأفراد الذين يستخدمون **الدفاع الإدراكى** (Perceptual defense) مع المثيرات التى تكون مزعجة انفعالياً ، وخصوصًا هؤلاء الأفراد الذين يميلون إلى تجنب الأشياء غير السارة. ولا يزال التساؤل قائمًا إن كان أمثال هؤلاء الناس لا يدركون بالفعل تلك المثيرات المزعجة ، أم أنهم لا يتمكنون من الإبلاغ عنها ، أو حتى التفكير فيها ، بسبب القلق أو الحرج .

كذلك قد يؤدى الخوف إلى أن يطرأ سوء التفسير أو التشويه على الإدراك الحسى . فمثلاً ، قد ينظر رجل الشرطة الحذر إلى جماعة من الغلمان المنغمسين فى اللعب فيراهم شيئًا يتهدد الأمن ويخل به . ثم إن الخوف إذا اشتد بدرجة كافية ، فقد يتشوه الإدراك الحسى حتى يتحول إلى هلوسة ــ وذلك كما نجد فى حالة المريض عقلياً الذى يرى فى الظلام أشكالاً خطرة تتهدده. وقد تمكن هنرى موراى Henry Murray من إثبات هذه الظاهرة منذ عدة سنوات . طلب موراى من خمس بنات فى الحادية عشرة من العمر كن يشهدن حفلة أقامها فى بيته لصديقات ابنته ، أن يقدرن عددًا من الصور الفوتوغرافية التى انتزعت من المجلات على مقياس من تسع درجات وذلك من حيث مدى تحقق الشر فيها . ثم عقد لهن فى تلك الليلة لعبة تسمى « جريمة القتل » ، وفيها تطفأ الأضواء وتقوم واحدة منهن بمطاردة الأخريات . وكان تأثير هذه اللعبة أكبر مما كان يتوقع موراى ــ فقد شكت إحدى الفتيات فى تلك الليلة من حلم مزعج (كابوس) ، كما رفضت عدة فتيات أخريات النوم وحدهن فى غرف النوم . ومهما يكن الأمر ، فقد طلب موراى من الفتيات ، بعد انقضاء لعبة « جريمة القتل » هذه ، أن يقمن بتقدير الصور الفوتوغرافية مرة ثانية ، فوجد زيادة درامية (ملحوظة ، هائلة) فى مدى تحقق الشر فيها .

التذكر والنسيان

كذلك تؤثر الدافعية فى الذاكرة . مثال ذلك أننا لو طلبنا إلى شخص ما أن ينظر إلى عدد من الصور الفوتوغرافية للوجوه ، وأن يقدم وصفًا لها من بعد ذلك ،

وجدناه يتذكرها على نحو يتمشى مع ما كان لديه عند رؤيتها ومع ما يكون لديه عند تذكرها من مشاعر واتجاهات . بسبب هذه النزعة يميل قدر كبير من الشهادات التى يدلى بها شهود العيان فى المحاكم إلى عدم الدقة والتشويه . وقد أجرى المشتغلون بعلم النفس عددًا من الدراسات تعرض فيها صورة ثابتة أو فيلم سينمائى عن جريمة ما لمرة واحدة على بعض الناس ، وذلك كما يحدث عندما يشهد المرء بعينيه جريمة حقيقية . فالتفاصيل تنسى ، وأسلحة لم يكن لها وجود يتم تذكرها ، وأفعال شخص ما تنسب إلى شخص آخر غيره .

ثم إن هناك ميلاً عاما لدى الناس إلى تذكر الأحداث السارة بدرجة أكبر من الأحداث غير السارة ، وإلى أن يحتفظوا بالحقائق التى تتناسب مع ما يكون لديهم من أفكار ، لا مع الأفكار التى تتحداهم وتتعارض معهم . ولو أن هذا ليس صحيحًا على الدوام . فإننا جميعًا نتذكر الأحداث غير السارة إذا بلغت من الوضوح والحيوية درجة كافية . والظاهر أن هناك عاملاً مهما هو إن كان تذكر الواقعة يسبب الضيق للشخص فى الوقت الراهن .

وقد أجرى أ. ف. زللر A.F. Zeller تجربة توضح نوعًا من تشوه الذاكرة ، نوعًا قويا بدرجة خاصة يدعى بالكبت . أراد زللر أن يبين أن خبرة الفشل التى تهدد ثقة المرء بذاته قد تعطل من الاحتفاظ بالمادة التى تعلمها الفرد قبل التعرض لخبرة الفشل مباشرة . طلب أولاً إلى طلاب الجامعة أن يستظهروا قائمة من المقاطع الصماء . كان يقدم مقطعًا لا معنى له مثل (هوع) ليتعلم الطلاب أن يستجيبوا له بالمقطع (ميف) مثلاً . وبعد أن أتم الطلاب حفظ القائمة حفظًا تاماً ، طلب إليهم أن يؤدوا عملاً هو الطرق بمكعب على أربعة مكعبات أخرى على المنضدة بحسب نمط معين . وكانت هذه هى النقطة التى يدخل عندها الشعور بالفشل . ذلك أن المجرب كان يخبر الطلاب ، بغض النظر عما يقومون به ، أنهم قد فشلوا وأنه لا يتوقع لمن كانت ذاكرته بهذه الدرجة من الضعف والسوء أن يكمل دراسته الجامعية بنجاح .

ثم طلب إلى الطلاب ، بعد هذه الخبرة ، أن يستعيدوا قائمة المقاطع الصماء .

وهنا تبين أن تذكر الطلاب لهذه المادة قد تأثر تأثرًا سيئًا ولو أن الفشل لم يكن مرتبطا ارتباطًا مباشرًا بالمقاطع الصماء . وفضلاً عن ذلك ، فإن تأثر التذكر بالنسبة للمقاطع الصماء استمر لفترة بلغت ثلاثة أيام ، على الرغم من أنه كان قد سبق التأكد من أن الطلاب يمكنهم الاحتفاظ بالمادة لهذه الفترة الزمنية فى الظروف العادية . كما أن الطلاب الذين كانت تتألف منهم الجماعة الضابطة والذين لم يخبروا أى شىء من الفشل فى المكعبات لم يجدوا صعوبة ما فى تذكر المقاطع الصماء .

ثم إن الذاكرة عادت بعد أن تم استبعاد ما يتهدد الثقة بالنفس . فقد كلف الطلاب بالعودة والقيام باختبار الطرق بالمكعبات على خطوات سهلة تضمن لهم النجاح .. وانتعش الطلاب وأشرقت وجوههم بعد ذلك ، ثم اختبرت قدرتهم على تذكر المقاطع الصماء فإذا بهم يحسنون صنعًا كما كانوا يفعلون فى البداية .

وهكذا يمكننا أن نرى أن الدافعية والانفعال تؤثران فى كيف وماذا نتذكر وننسى . ولو أننا أضفنا إلى ذلك تأثير الدافعية على الإدراك الحسى ، أصبح من الواضح أن ما يكون لدينا من المعلومات فى لحظة زمنية معينة إنما تختاره لنا دوافعنا واتجاهاتنا الشخصية بدرجة كبيرة من الدقة . ولعلك تفكر فى هذا الأمر فى المرة التالية التى تنغمس فيها فى جدال سياسى . فعلى سبيل المثال ، قد يشترك فى الحديث عن مشروع قانون لرعاية المسنين طبيا اثنان من الناس أحدهما طبيب والآخر رجل يعول والديه المسنين ، فإذا بهما يختلفان كثيرًا فى إدراكهما للقضية ، كما أنهما يختلفان كثيرًا فيما لديهما من المعلومات المتصلة بهما .

التفكير والخيال

رأينا أن الدافعية لها أهميتها فى تحديد نوع المعلومات التى يدركها الشخص أو يحتفظ بها . كذلك تلعب الدافعية دورًا فى كيفية استخدام المعلومات فى العمليات الرمزية من حل للمشكلات ، والتفكير الإبداعى ، والأحلام ، والجريان اليومى للأفكار . ومن الطبيعى أن هذه العمليات أمور داخلية ، وأنه لا يمكن تبعًا لذلك ملاحظتها بصورة مباشرة . ونحن إنما نتعرف عليها عن طريق الاستبطان ، ولكن تقارير الاستبطان قد

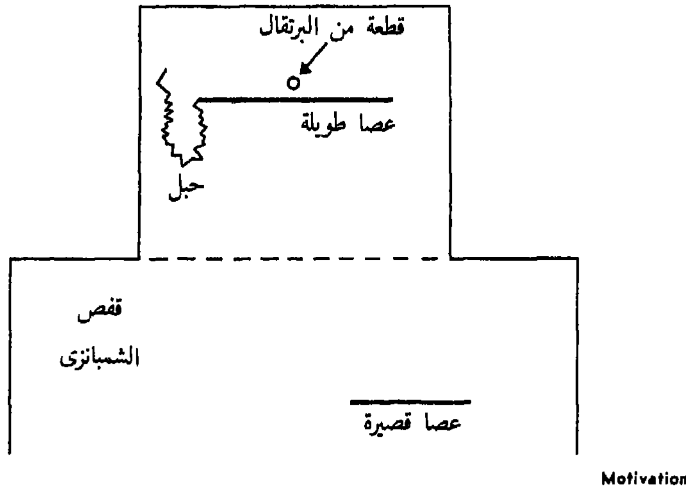
تتعرض بسهولة للتشويه ولا يمكن الثقة بها . من أجل ذلك حاول علماء النفس أن يصمموا مواقف ينعكس فيها أداء هذه العمليات الرمزية فى صورة سلوك موضوعى أكثر قابلية للقياس . وهذه تتضمن المواقف التجريبية ، واختبارات حل المشكلات ، والخيالات المكتوبة .

نستطيع أن نعد العمليات الرمزية متفاوتة فى درجة التنظيم بحيث تمتد بين طرفين أحدهما هو حل المشكلة ذات البناء المحكم غير المرن ، وثانيهما أحلام اليقظة التى لا تكاد تجد لها شكلاً معينًا ، أو قل كذلك أحلام النوم ، وبين الطرفين نجد الأعمال الإبداعية ذات التكوين المحكم قليلاً والمترابط إلى حد ما . وقد يبدو من المنطقى أن نظن أن التفكير الأكثر نصيبًا من التنظيم يكون وراءه دافع على حين أن الأشكال الحرة الهائمة من التفكير ينقصها الدافع . لكن من أهم ما أسهم به التحليل النفسى هو أنه يبين لنا كيف أن السلوك الذى يبدو فى ظاهره خاليًا من المعنى مثل الأحلام ، وفلتات اللسان ، والنكات ، وجولات التداعى الحر عند مريض العلاج النفسى ، يكون له دافع وراءه . وقد يكون هذا الدافع غامضًا فى بعض الأحيان ، أو يكون الشخص غير مدرك له ، ولكن هذا الدافع قد يكون كذلك عاملاً هاما فى تحديد كل ما يخبره الفرد من أفكار متكاملة ، ومتراخية ، وغريبة .

ونقول ، بادئ ذى بدء ، إن الدافعية أمر هام فى حل المشكلات ذات التكوين المحدد . والفرق بين حل المشكلات واكتساب العادات البسيطة هو أنه لا بد للفرد من أن يفهم العلاقات بين أجزاء المشكلة حتى يمكن أن يجد حلاً لها . وإنه لمن الممكن أن نرى فى حل المشكلة نوعًا من تجميع عادات منفصلة بشكل خاص يلائم متطلبات الموقف . وهذا هو ما يعرف أحيانًا بأرقى صورة من صور التفكير عند الإنسان ـ وهو متضمن فيما يقوم به العلماء والمخترعون ، والمهندسون ، والمبدعون من رجال الأعمال ، والمخططون فى الإدارة الحكومية .

ولو أننا بدأنا بالدراسات الرائدة التى قام بها ولفجانج كوهلر Wolfgang Ko·hler ، لوجدنا أن عددًا من أحسن التجارب فى مجال حل المشكلات استخدمت فيه حيوانات الشمبانزى . فإن عملية التفكير عند هذه الحيوانات شديدة الذكاء أقرب إلى

تفكير الإنسان من تفكير معظم الحيوانات الأخرى ، كما أنه يمكن دراستها فى ظروف المختبر المنضبطة . وقد درس هربرت ج بيرش Herbert G. Birch دور الدافعية فى حل المشكلات عند الشمبانزى فى ذلك الجهاز الموضح فى الشكل رقم (٢) . وقد أعطيت الحيوانات سلسلة من المشكلات التى تطلبت استخدام الحبال والعصى فى اجتذاب قطعة من ثمرة البرتقال موضوعة خارج القفص . ولما كانت الحيوانات قد سبق لها أن تعلمت استخدام الحبال والعصى منفردة ، فإن المشكلة لم تكن فى اكتساب مهارة بسيطة ، وإنما فى التأليف بين المهارات المختلفة من أجل الوصول إلى المكافأة .



Motivation

شكل ٢ ـ شكل تخطيطى لمشكلة تقدم الحيوانات الشمبانزى . والشمبانزى هنا لا يستطيع أن يصل إلى الطعام بالعصا القصيرة ولا يستطيع أن يصل إلى العصا الطويلة . والحل يتطلب أن يشد الحيوان الحبل إليه بالعصا القصيرة ، وأن يشد إليه بعد ذلك العصا الطويلة ، وأن يستخدم فى آخر الأمر العصا الطويلة ليصل إلى الطعام
(نقلاً عن : H. G. Birch, The role of motivational factors in insightful problem - solving. J. Comp. psychol., 1945, 38, 295-317.)

وقد أوجد بيرش التفاوت فى الدافعية بأن حرم الحيوانات من الطعام لمدة ساعتين أو ست ساعات أو اثنتى عشرة ساعة أو أربع وعشرين ساعة أو ست وثلاثين ساعة أو

ثمان وأربعين ساعة على مرات مختلفة . وبذلك كان للمستويات المختلفة من الدافع آثار طريفة تمامًا على حل المشكلات . أما فى المستويات الدنيا فقد استغرقت الحيوانات زمنًا أطول وأظهرت عددًا أقل من الحلول القائـمة على الاستبصار . فقد كان من السهل أن يتشتت انتباه الحيوانات وأن تظل تلعب بالعصى والحبال . وأما فى المستويات المتوسطة من الدافع ـ وخصوصًا بعد الحرمان لنحو أربع وعشرين ساعة ـ فقد كان سلوكها يتصف بالفاعلية وبالغرضية . كانت متوجهة نحو الطعام ، ولكنها كانت مع ذلك مرنة فى استخدام مهاراتها للحصول عليه .

ومن أطرف النتائـج أن حيوانات الشمبانزى تحولت ، بعد تلك الفترة المثلى من الحرمان للطعام لمدة أربع وعشرين ساعة ، إلى قلة الكفاءة وازدياد العجز . وهذه النتيجة تتمشى وتتفق مع قانون يوركيس ـ دودسن الذى سبق أن وصفناه فى هذا الفصل . والظاهر أن الحيوانات بلغ منها الجوع حداً جعلها تركز على الطعام فلا تلتفت إلى غيره من الأشياء الأخرى الهامة . كانت تحاول الوصول إلى الطعام أو تضرب بالعصا القصيرة . ولما كانت تفشل ـ كانت تصرخ ويستبد بها هياج الغضب ، أى أن أداءها لم يكن أفضل من أدائها عندما يكون دافعها ضعيفًا ، ولكن لأسباب مختلفة اختلافًا كلياً .

ثم إن الخيال الإبداعى صورة أخرى من التفكير الذى يمكن أن يتأثر بالدافعية . والواقع أن الذهن اتجه منذ زمن بعيد إلى أن خيال الشخص قد يكشف عن دوافعه بطريقة أكثر دقة من السؤال المباشر . مثال ذلك انك لو سألت شخصًا عن آماله ومخاوفه ، فإنه قد يفرض على نفسه من نفسه رقابة لأنه يعلم أن بعضها غير واقعى ، وأن بعضها لا يقره المجتمع ويوافق عليه . ولكن عوامل الكفّ هذه لا تكون بهذه القوة فى عالم الخيال . ولذلك نجد ، كما تبين للمشتغلين بعلم النفس الإكلينيكى ، أن الطفل الذى لا يكاد يعبر عما فى نفسه قد يكشف الكثير مما فى نفسه إذا استطاع إخراج خيالاته باستخدام الدمى أو العرائس . كذلك يكشف الكبار الراشدون أيضا عن آمالهم ومخاوفهم عندما ينشئون القصص عن الصور أو يستجيبون لبقع الحبر الغامضة .

والمبدأ نفسه يستخدم فى التحليل الأدبى ، حيث نسعى إلى فهم شخصية الكاتب الكبير من دراسة كتاباته المبدعة .

السلوك الاجتماعى والانفعالى

قد يكون للدافع كذلك آثار واسعة على السلوك الاجتماعى والانفعالى العام لدى الفرد ، وذلك حين يبلغ الدافع درجة كافية من القوة . وقد أجريت خلال الحرب العالمية الثانية فى جامعة مينيسوتا تجربة قام بها آنسل كيز Ancel Keys وأعوانه للكشف عن آثار الجوع الشديد لفترات طويلة ، وكان الهدف منها وضع خطة لإعادة تأهيل المناطق التى تعرض سكانها للجوع الشديد. فى هذه التجربة عاش بعض المتطوعين (ممن فرض عليهم السجن بسبب رفضهم للانخراط فى الجندية بسبب عقيدتهم) على مقادير طعام مخفضة كثيراً وذلك لمدة ستة أشهر ، مع ما يترتب على ذلك من نقص أوزانهم وضعف أبدانهم. وأصبح هؤلاء ، من الناحية النفسية ، مشغولين بالأفكار المتصلة بالطعام ، وفقدوا اهتمامهم بما كانوا معتادين عليه من الأنشطة العقلية ، والصديقات ، واللقاءات الاجتماعية . وأصبح التركيز المتواصل أمرًا صعبًا بالنسبة لهم. وأصبح مزاجهم متقلبًا ، وصاروا أميل إلى الخشية ، والاكتئاب ، وتبلد الشعور. واختفى المرح والجاذبية من أحاديثهم . وطرأ عليهم تدهور فى معاييرهم الاجتماعية والخلقية إلى حد أذهلهم هم أنفسهم ـ فكانوا يلعقون أطباق الطعام ، ويتوقحون مع الزائرين ، ويعجزون أحياناً عن مقاومة الإغراء الذى يدعوهم إلى الغش فى نظام تغذيتهم..

وقد أشار هؤلاء الباحثون إلى أن سلوك هؤلاء المتطوعين كان يسيطر عليه الجوع الدائم المستقر . وإذا كان الجوع قد أدى فى الماضى إلى الهجرة والجرائم والثورات ، فإن المتطوعين فى تجربة مينيسوتا قد أصبحوا متبلدى الشعور إلى درجة كبيرة فيما يتعلق بالعمليات الديمقراطية/ وكذلك أيضًا يتوقع للشعوب الجائعة فى المناطق المتخلفة ألا يأبهوا كثيرًا بالإيديولوجيات الديمقراطية أو الاستبدادية إلى أن يتم إشباع حاجاتهم الملحة إلحاحًا شديدًا . وإنه لينبغى أن نتذكر هذا عندما نتعامل مع السكان الذين

يعانون من سوء التغذية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

ثم إن الخوف والقلق قد تكون لها آثار أكبر على الحياة الاجتماعية . يكفى أن نفكر فى نوع الحياة التى نحياها الآن تحت التهديد المستمر من الإبادة النووية حتى نتعرف على بعض هذه الآثار . ذلك أننا ندخل فى سباق عنيف متصاعد للتسلح يبدو أنه إنما يزيد التوتر بدلاً من أن يخفض حدته . كذلك تجدنا نأخذ بحلول متطرفة مثل الحرب الوقائية أو الرضوخ الاستسلامى - كما أننا نشوه معنى كل حركة طفيفة تصدر عن العدو الذى يبادلنا نفس العمل . ويزداد ما بيننا من شك وانعدام ثقة . وأكبر شىء هو أننا ننكر الخطر ، ولكننا مع ذلك نظل قلقين غير مطمئنين فى حياتنا اليومية .

الدوافع المتصارعة

لا ينبغى أن نفترض ، بعد كل ما ذكرنا ، أن الدوافع تؤثر دائمًا فى السلوك فى صورة بسيطة مباشرة . فإن عدة دوافع قد تؤدى عملها فى وقت واحد ، بحيث قد تصبح الاستجابات اللازمة لإشباعها متعارضة . وقد ظهر هذا الصراع فى تجربة كلاسيكية قام بها نيل ميللر Neal E. Miller . كان قد درب الفئران الجياع على أن تجتاز ممرًا حتى تحصل على الطعام من كأس ، بحيث تعلمت الفئران أن **تقبل على الهدف**. ثم حدث بعد ذلك أن وجهت الصدمات إلى الحيوانات عند كأس الطعام ، حتى ينشأ عندها ميل إلى **تجنب** الهدف . ولما كان الإقدام على الهدف والإحجام عنه استجابتين متعارضتين ، فقد نشأ لذلك الصراع . فقد كانت الحيوانات تسير فى الممر إلى حد ما ثم تتنقل بين الإقدام والإحجام .

وقد أجرى رسل كلارك Russell A. Clark تجربة تصور هذا النوع من صراع الإقدام والإحجام عند الإنسان . وكان يريد أن يبين أن الدافعية الجنسية التى يتم إحداثها بطريقة تجريبية يكون لها على الخيال نفس التأثير الذى سبق أن وجدناه لدوافع مثل الجوع . طلب كلارك إلى عدد من طلاب الجامعة الذكور أن يكتبوا قصصًا عن صور محايدة كانت تعرض عرضًا خاطفًا على الشاشة وذلك بعد أن كانت قد عرضت عليهم

سلسلة من الشرائح لنسوة عاريات بالحجم الطبيعى . وجاءت النتيجة على خلاف ما كان متوقعًا ، إذ أن قصص هؤلاء الطلاب تضمنت عددًا من الأفكار الجنسية أقل مما تضمنته قصص المجموعة الضابطة التى لم تعرض عليهم شرائح للنسوة العاريات . والظاهر أن ما حدث هو أن الطلاب أصابهم الحرج أو أنهم أحسوا بالإثم . وكانت النتيجة أن الأفكار الجنسية أصابها التعطيل أو الكفّ .

ثم أريد التحقق من صحة هذا التفسير ، فأجريت تجربة ثانية فى موقف يتميز بأنه ينتقص من الكف ـ هذا الموقف هو حفل للطلاب يتناولون فيه البيرة . وبعد أن ظلت جماعة الطلاب تتناول الكحول لمدة ساعة أو نحو ذلك ، عرضت عليها شرائح النسوة العاريات ثم طلب إليها أن تكتب القصص عن الصور المحايدة . وفى هذه المرة تضمنت القصص أفكارًا جنسية أكثر مما تضمنت قصص المجموعة الضابطة التى شهدت حفل تناول البيرة ولكن بدون أن تعرض عليهم شرائح النسوة العاريات . بل الواقع أن مجموعتى الكحول هاتين أظهرتا قدرًا من الأفكار الجنسية أكبر مما كانت المجموعتان الأوليتان قد أظهرتاه فى التجربة الأولى .

فى هذه الدراسات ، كان هناك على الأقل اثنان من الدوافع يعملان عملهما ـ الجنس والإثم . على أن معظم الناس يزداد شعورهم بالإثم من الأمور الجنسية حتى يتعذر عليهم التعبير عن هذه الأمور بحرية وصراحة . ولذلك ، فإن استثارة الدافع الجنسى قد لا يؤدى إلا إلى زيادة الشعور بالإثم . لكن شرب الكحول وسيلة قوية للخفض من عوامل الكف ومشاعر الإثم . ولذلك ، فإننا نجد أن الدافع الجنسى الذى تعرض للكفّ يمكنه أن يظهر فى مثل هذه الظروف وأن يؤثر فى أفكارنا وسلوكنا .

وأخيرًا ، ينبغى أن نقول كلمة عن الدوافع اللاشعورية. فى دراسة كلارك التى وصفناها سابقًا يحتمل أن الطلاب كان لديهم بعض الأفكار الخاصة ذات الطبيعة الجنسية ، وأنهم قد اشتد بهم الحرج حتى منعهم عن التعبير عنها . والواقع أنه يحدث أحيانًا أن يشتد الشعور بالإثم أو غير ذلك من الدوافع المسببة للكف إلى درجة يتعذر معها حتى على الأفكار حول الدوافع الكامنة أن تجد طريقها إلى الظهور . عندئذ

يصبح الدافع لا شعوريا . ولكنه قد يظل يؤثر فى السلوك مع ذلك . فكيف يحدث هذا ؟ قد يبدو الأمر غريبًا غامضًا ، ولكن ألسنا ندرك جميعًا ذلك الدافع اللاشعورى الذى يدعو العانس العجوز التى تعيش فى وحدة إلى أن تنظر أسفل سريرها كل ليلة خشية أن يكون أحد الرجال قد اختبأ تحته ؟

ومن الممكن بيان عمل الدافع اللاشعورى بصورة تجريبية عن طريق الاستعانة بالتنويم المغناطيسى . والمثال التالى واحد من عدة أمثلة قدمها م.هـ. إريكسون

« أثناء التنويم المغناطيسى ، قيل للمفحوص إنه يعجب بالدكتور ر . ، وأنه يحترمه كثيراً . وإن كان يشعر بالغيرة اللاشعورية منه ، وإنه بسبب هذه الغيرة سوف يوجه عبارات المديح إلى الدكتور ر . ويضمها بعض التلميحات السخيفة . كذلك قيل له إنه بعد أن يستيقظ سوف تبدأ محادثة مع الدكتور ر . ينبغى له أن يشارك فيها . ثم أوقظ الشخص وبدأت المحادثة .

ودار الحديث حول الأسفار وما يترتب عليها من فوائد تربوية تعليمية للشخص . وذكر المفحوص مباشرة أن الدكتور ر . كان قد درس فى الولايات الغربية الوسطى والولايات الشرقية ، وأنه بسبب كثرة أسفاره فى الخارج أيضا ، يمكن أن يعد رجلا عالمياً . وهنا ذكر المفحوص أنه يود أن يقوم ببعض الأسفار وأن تكون له تربيته العالمية ولكنه أضاف أن هذا فى حقيقة الأمر ما يفعله كثير من المتشردين المسنين الذين يتنقلون من جزء من الوطن إلى جزء آخر عن طريق الاختفاء فى عربات قطار الشحن . ثم أعقبت ذلك مناقشة لسلوك الناس الذى يعكس البيئات المحلية ، وخلال ذلك ذكر المفحوص أن الرجل صاحب الأسفار يزداد معرفة وفهماً للناس ولمظاهر الحضارة ، ولكنه أضاف بعد ذلك أن هذا الكلام يمكن أن يقال عن أى شخص يقيم فى الجانب الشرقى من مدينة نيويورك* »

وهكذا يمكننا أن نرى أنه ، ولو ان الشخص لم يكن واعيًا بغيرته ولا مدركًا لها ، إلا أن سلوكه كان يتأثر تأثرًا شديدًا بهذا الدافع اللاشعورى .

---

* From M.H. Erickson, Experimental demonstrations of the psychopathology of everyday life. *Psychoanal. Quart.*, 1939, 8, 338-353.

الدافعية بوصفها محددة للسلوك

الدراسات التى عرضناها فى هذا الفصل تشير إلى أن الدافعية واحد من العوامل الهامة التى تحدد كيفية السلوك للشخص. فالدافعية أمر تتضمنه كل أنواع السلوك - من تعلم، وأداء عملى، وإدراك حسى، وانتباه، وتذكر، ونسيان، وتفكير، وإبداع، وشعور. والعلاقة بين الدافعية والسلوك تكون فى بعض الأحيان معقدة. والمستوى المتوسط من الدافعية قد يكون له تأثير يختلف عن تأثير المستوى المتطرف منها. والدوافع المتعارضة قد تؤدى إلى الصراع. كما أن بعض الدوافع قد يكون لا شعوريا. والواقع أننا لن نتمكن من فهم سلوك الإنسان إلا بعد أن يزداد علمنا بالآثار المعقدة للدوافع.

الفصــل الثـالث

دوافع الاتـزان الحيوى

عمليات الحياة الأساسية ـ من إنتاج للطاقة ، ونمو للجسم ، وإصلاح للتالف من الأنسجة ـ إنما تعتمد على طائفة دقيقة من الأحوال الكيميائية القائـمة فى الخلايا الفردية للكائن العضوى . فدرجة الحرارة عند الإنسان لا ينبغى أن تبتعد بأكثر من درجات قليلة عن الحد الأمثل الذى هو ٩٨,٦ درجة فهرنهيت لأية فترة زمنية ، ومستوى الماء فى الدم والسائل الليمفاوى ينبغى أن يكون على درجة من الثبات ، والمكّونات الكيميائية للدم ـ من أوكسيجين، وسكر، وأملاح ، وما إلى ذلك ـ ينبغى ألا تتجاوز حدودًا آمنة ، كما أن الدم ينبغى ألا يفرط فى الحمضية أو القلوية ، والعجز عن المحافظة على هذه الأحوال يؤدى إلى فساد فى الوظائف العامة ثم إلى الموت فى آخر الأمر .

والمختصون فى علم الأحياء (البيولوجيا) يرون أن الحياة العضوية بدأت منذ العصر الأيونى فى بحار دافئة مدارية مالحة . ويقولون : إن البيئة المحيطة هناك وفرت معظم الشروط اللازمة لنشأة الكائن العضوى وحيد الخلية . ولكن الكائنات العضوية الحية انتشرت إلى البحار التى هى أكثر برودة ، وإلى المياه العذبة ، وإلى اليابسة ، فبدأت تظهر ترتيبات خاصة من شأنها أن توفر ما كان متحققًا فى بيئة البحار المالحة المدارية . والواقع ، أن الخلايا الفردية للكائن العضوى المعقد مثل الإنسان ، إنما تعيش فى حمام من ماء البحر المالح أدفأ من المستوى المدارى . وهذا الحمام يوفره الدم والسائل الليمفاوى .

على أن معظم الأعضاء الخاصة فى الجسم إنما تعمل لتوفر الشروط والأحوال

اللازمة فى هذا البحر المدارى القائم فى أجسامنا ـ أو هذه البيئة الداخلية كما تسمى . فالكبد يمدنا بالسكر ، والرئتان توفران الأوكسيجين ، والكليتان تقومان بترشيح الفضلات ، وهكذا . ولكن الكائن العضوى يعيش كذلك فى بيئة خارجية ـ تتغير فيها الأحوال والظروف باستمرار على الدوام ـ فإمدادات الطعام تنفد ، والماء غير متوفر ، ودرجة الحرارة قد تتذبذب . وعلى الكائن العضوى أن يحتفظ بثباته واستقراره الداخلى ، على الرغم من هذه التغيرات الخارجية. وقد أطلق والتر ب. كانون Walter B. Cannon على هذه الحالة الداخلية الثابتة نسبياً مصطلح الاتزان الحيوى (**الهوميوستازيا**). ولو أن الأحوال الداخلية تغيرت تغيرًا يتجاوز حدودًا معينة ، قيل إنه قد وقعت حالة **اختلال فى الاتزان الحيوى** ووجدنا عددًا من عمليات الاتزان الحيوى تبدأ فعلها من أجل علاج الموقف .

ثم إن كثيرًا من عمليات الاتزان الحيوى تتضمن تغيرات داخلية تحظى بالاهتمام الأكبر من عالم الفسيولوجيا لا عالم النفس. من ذلك ، مثلاً ، أن درجة الحرارة الخارجية إذا انخفضت ، عمد كثير من الحيوانات إلى إحراق المزيد من الوقود ، وبذلك ترفع من درجة حرارة أجسامها ـ وفى بعض الحيوانات الأخرى يزيد نمو فرائها . ولكن بعض العمليات عند الحيوانات الأخرى قد تتضمن تغيرات سلوكية من النمط الغريزى ـ بحيث تجد القوارض الصغيرة تلجأ إلى البيات الشتوى ، وبعض الطيور إلى الهجرة جنوبًا ، ومنعكس الارتعاش يظهر عند الإنسان . وأخيرًا نجد أن المشكلة يزداد تحولها إلى الصبغة السيكولوجية عندما نجد اختلال الاتزان الحيوى يؤدى إلى ظهور دافع معين هو السعى لالتماس الدفء . وهذا أمر مألوف تمامًا لنا فى صورة الإحساس بالبرد والرغبة فى الدفء . كما أن مثل هذا الدافع قد يؤدى إلى البحث عن مخبأ مريح ، أو إلى تعلم إشعال النار ، أو إلى اختراع طريقة جديدة للاستدفاء ، مثل البطانية الكهربائية .

ويقدم لنا كارل لاشلى Karl Lashley مثالاً على دافع الاتزان الحيوى عند كائن عضوى بسيط جداً بحيث إن العملية بأسرها يمكن أن تستخدم كنموذج خالص نقى أما الكائن العضوى فإنه الميكروستوما Microstoma الدقيق الذى يبلغ طوله حوالى نصف

المليمتر . وهذا الكائن قد زود ، ضمن أجهزة التكيّف عنده ، بعدد من الخلايا السامة اللاسعة المنتشرة على سطح جسمه كله . وهو عند الدفاع عن نفسه ، أو الاستيلاء على فريسته ، تراه يطلق هذه الأسلحة الصغيرة ـ لكن الميكروستاما لا يصنع هذه الخلايا بنفسه، وإنما يحصل عليها من حيوان مِجْهرى (ميكروسكوبى) آخر هو الهايدرا Hydra . ذلك أن الميكروستوما يأكل الهايدرا ثم يهضم الخلايا اللاسعة فى معدته . وينقلها إلى الجلد . فإذا نفدت الخلايا اللاسعة ، أخذ الميكروستوما يأكل الهايدرا بشراهة، ثم تراه يفقد شهيته كلما اقترب تركيز الخلايا اللاسعة على سطح الجسم من المستوى الملائـم . ويشير لاشلى هنا إلى أن المشكلات الأساسية للدافعية نجدها هنا فى هذا الكائن الذى لا يزيد على نصف المليمتر ـ الحاجة ، ثم نشاط استهلاكى محدد ، ثم الشبع .

على أن عددًا من الدوافع الهامة بالنسبة للإنسان تندرج عادة فى قائـمة دوافع الاتزان الحيوى. ولعل الجوع والعطش يكونان أوضح الأمثلة على الدوافع المرتبطة بالنقص الداخلى فى مواد كيميائية لازمة لوظائف الجسم . والواقع ، أن كلا من هذين الدافعين أكثر حظاً من التعقيد مما يبدو فى ظاهر الأمر . ذلك أن الجوع يمكن أن ينقسم إلى عدة أنواع فرعية من الجوع بسبب أن الجسم يحتاج إلى مواد كيميائية محددة من قبيل البروتين ، والمواد الكاربوهيدراتية ، والدهون ، والمعادن ، والفيتامينات . كما أن العطش، هو أيضًا، يتضمن الحاجة إلى الماء، والحاجة إلى الملح حتى يمكن المحافظة على حمام ملوحة البحر المناسب . وأما دافع التنفس فيضمن عادة التزود بالأوكسيجين اللازم لعمليات الاتزان الحيوى .

كما أن هناك عددًا من الدوافع الأخرى الهامة فى الاتزان الحيوى بسبب أنها تعمل على تجنب ظروف بيئية قد تتضمن الخطر ، بدلاً من أن تعالج نوعًا من النقص الداخلى . وهكذا نجد لدينا تجنب الدرجات المتطرفة من الحرارة ، والضوء الساطع ، والأصوات الشديدة ، والصدمة الكهربية ، وكل المثيرات التى من شأنها أن تنتج الألم . فإن هذه الظروف قد تؤدى إلى تلف فى الأنسجة ، وبذلك تؤثر تأثيرًا غير مباشر فى الاتزان الحيوى .

وأخيرا ، نجد هناك طائفة من الدوافع التى تنشأ عن عمليات الجسم وأوجه النشاط التى يقوم بها الفرد نفسه . وأبسط هذه هى دوافع الإخراج ــ فالميل إلى الزفير يخلصنا من ثانى أوكسيد الكربون ، على حين أن عمليات التبول والتبرز تخلصنا من فضلات أخرى بالجسم . وإذا كان النشاط العام للجسم يؤدى فى آخر الأمر إلى الإنهاك والشعور بالرغبة فى النوم ، فإن الدافعين إلى الراحة والنوم يعملان فيما يبدو من أجل توقع وتجنب حصول الأذى للجسم بسبب النشاط المفرط . فالراحة عند التعب تسمح بالتخلص من فضلات من نوع حامض اللبنيك من العضلات . وأما الوظيفة الهوميوستازية الدقيقة للنوم فلا تزال غير معروفة . ولكنه يقال مع ذلك إن توترات الحياة اليومية يتم التخلص منها عن طريق الأحلام ، وإن كان من المحتمل أن يكون للنوم وظيفة هوميوستازية أخرى أكثر تحديدًا .

وعلى الجملة نقول إن الحالات التى تؤدى إلى فقدان الاتزان الحيوى تسبب فيما يبدو ظهور طائفة مختلفة من الدوافع السيكولوجية يكون الهدف فيها استعادة أو استبقاء الاتزان الداخلى . ومثل هذا الاتزان الحيوى مهم للاحتفاظ بالحياة . على أن هذا النموذج الهوميوستازى منطقى إلى حد بعيد ، وقد كان له تأثيره الهائل على الفكر السيكولوجى . فقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن الاتزان الحيوى هو الأساس ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، لكل الدوافع عند الإنسان . صحيح أن هناك من تشككوا ، بالطبع ، فى قدرة هذا النموذج على تفسير دوافع الإنسان المعقدة مثل الإنجاز ، والمودة ، وتقدير الذات وما إليها ، ولكن هناك أيضا من تشكك فيما إذا كان مبدأ الاتزان الحيوى يمكنه أن يمدنا بتفسير كامل حتى للدوافع من قبيل الجوع ، والعطش ، والألم .

ونحن فى هذا الفصل سوف ندرس أول الأمر طبيعة الدافع ــ أى كيف يثور الدافع السيكولوجى ــ ثم ندرس بعدئذ طبيعة الإثابة ــ أى كيفية انتهاء الدافع السيكولوجى . وسوف نستخدم الجوع بوصفه المثال الرئيسى فى كل مناقشاتنا لأننا نعلم عن هذا الدافع بالذات أكثر مما نعلم عن غيره من الدوافع الأخرى . ولسوف يكون اهتمامنا الرئيسى منصباً حول ملاءمة النموذج الهوميوستازى لتفسير الجوع والدوافع المشابهة .

طبيعة الدافع

الدافع النفسى ، بحسب نظرية الاتزان الحيوى ــ وبآثاره المتعددة على النشاط ، واختيار الهدف ، والشعور بالافتقار إلى شيء ــ إنما ينشأ عن فقدان الاتزان الداخلى . ولذلك ، نجد أن كلارك هل ، أحد أصحاب النظريات النفسية ممن تأثر بهم الآخرون ، يسوى بين الدافع النفسى والحاجة الفسيولوجية . ولعل هذه التسوية تصف لنا الموقف بدقة تامة فيما يبدو فى كائن عضوى بسيط مثل الميكروستوما ، ولكن العملية تبدو أكثر تعقيدًا بعد ذلك فى الفصائل الأعلى من الحيوان . ذلك أننا نجد فى الكائن العضوى المعقد عددًا من الآليات أو الميكانيزمات تتوسط بين حاجة الأنسجة فى الجسم وانتظام السلوك المتجه نحو الهدف . والآن نبدأ بالفحص الدقيق للعمليات والآليات المتضمنة فى دافع الجوع . ثم نتساءل ، بعدئذ ، عن العلاقة بين الحاجة الفسيولوجية والدافع النفسى . وأخيرًا نناقش ما للدافع النفسى من خاصية الإثارة أو خاصية التنشيط .

الجوع

الجوع بالنسبة لمعظمنا يعنى حالة المعدة ــ آلام الجوع . وقد تمكن و .ب . كانون وزميله أ . ل . واشبورن A.L. Washburn من إظهار أهمية تقلصات المعدة فى الجوع ، وذلك منذ عدة سنوات . فقد استحدثا وسيلة مبتكرة تتألف من بالونة ، يبتلعها الشخص ، وأنبوبة تخرج من خلال الفم مرتبطة بوسيلة تسجيل . فتقلصات المعدة تؤدى إلى اعتصار البالونة وبذلك يتم تسجيلها . وقد أظهرت التجارب أن هناك تطابقاً وثيقاً بين تقلصات المعدة وخبرة الشعور بالجوع .

لكن الدراسات التالية ، مع ذلك ، أظهرت أن الجوع لا يتوقف على تقلصات المعدة هذه . فإن الناس الذين تستأصل معداتهم لا يفقدون خبرة الجوع . كما أننا نجد تجارب عدة أجريت على الحيوانات تم فيها قطع كل الأعصاب فيما بين المعدة والدماغ . ومع ذلك استمرت الحيوانات تأكل بصورية سوية وتحسن تعلم المتاهات من أجل الحصول على الطعام. ولذلك ، يبدو أن الإشارات أو التنبيهات الصادرة عن المعدة ليست لازمة فى الجوع .

ولعل الأقرب إلى الاحتمال أن الحالة الكيميائية للدم لها تأثير مباشر على الدماغ . وقد يكون مستوى السكر فى الدم من العوامل ، وذلك كما يظهر من ازدياد الأكل عقب حقن الأنسولين فى الجسم . ولو أن المحاولات المتعددة للربط المباشر بين مستويات السكر فى الدم وبين الجوع باءت كلها بالفشل. لكننا ، مع ذلك ، نعلم أن هناك اختلافًا بين دم الحيوانات الجائعة ودماء الحيوانات الشبعة . ذلك أننا لو حقنا دم الفأر الجائع فى جسم الفأر الشبع وجدناه يشرع فى الأكل . ومع ذلك ، فإننا لا نزال نعلم القليل جداً عن طبيعة العمليات الكيميائية فى الدم التى تؤثر فى الجوع . وهذه العمليات الكيميائية قد تتضمن مستوى العناصر الغذائية المختلفة أو بعض الهورمونات التى تفرزها أعضاء الجسم المختلفة .

وعلى الرغم من أن الطبيعة الحقة لعوامل الدم المسئولة عن الجوع لا تزال مجهولة ، إلا أنه من الثابت الواضح لدينا أن هناك جزءًا من الدماغ هو أشد الأجزاء حساسية لذلك . وذلك هو الهيبوثلاموس ، منطقة دقيقة عند قاعدة الدماغ ، بالقرب من الغدة النخامية ، يصلها مدد كبير من الدم . والظاهر أن هذه المنطقة الصغيرة لها أهميتها فى كل الدوافع الفسيولوجية والانفعالات تقريبًا .

أما فى حالة الجوع ، فإن هناك جزءًا دقيقًا من الهيبوثلاموس يعرف « بمنطقة التغذى » . وفى حيوانات التجارب يمكن أن نغرس سلكًا كهربيًا دقيقًا فى هذه المنطقة ونثبته فى مكانه . ثم نستخدم تيارًا كهربيًا طفيفًا فى تنبيه منطقة التغذى . عندئذ نجد الحيوان يشرع فى الأكل حتى وإن كان شبعًا . ثم إن تنبيه هذه المنطقة يؤدى بالإضافة إلى ذلك إلى زيادة فى القيام بالاستجابة المتعلمة ، من قبيل الضغط على الرافعة ، للحصول على الإثابة بالطعام . وهذا صحيح حتى بالنسبة للحيوان الذى يكون شبعًا ولكنه عطشان ، والذى يضطر إلى الابتعاد عن أنبوب الماء والتوجه إلى حيث يقوم باستجابة الطعام . وهكذا يمكننا أن نرى أن التنبيه الكهربى « لمنطقة التغذى » فى الهيبوثلاموس يسبب حالة شبيهة جداً بالجوع العادى . وأما إتلاف هذه المنطقة فإنه يقضى على تناول الطعام. ولذلك ، فإن هذه المنطقة بالذات من الهيبوثلاموس يمكن أن تعد بمثابة الآلية الأساسية التى تنظم استثارة الجوع .

وعلى الرغم من أن أهمية الهيبوثلاموس بالنسبة للجوع ليست موضعًا للكثير من الشكوك ، إلا أن هناك أجزاء أخرى من الدماغ ذات اتصال أيضًا . من ذلك ، مثلاً ، ما تحقق وثبت لدينا من أن الجوع تستثيره أيضًا رؤية الطعام ، ورائحته ، ومذاقه . على أن هذه المثيرات البيئية لا تنتقل مباشرة إلى الهيبوثلاموس ، ولكن إلى المخ ، وهو ذلك الجزء الخارجى من الدماغ الذى يظن عادة أنه الميكانيزم الخاص بالعمليات العقلية العليا .

وفى الشكل رقم (٣) تتضح العلاقات فيما بين الميكانيزمات المختلفة فى الجوع . فى قاعدة العملية كلها نجد عملية الأيض (التمثيل الغذائى) الخاصة بالخلايا ، وكذلك الحاجة إلى السعرات الحرارية اللازمة لإنتاج الحرارة وأداء الجسم لأعماله . أما فى حالة

شكل ٣ – الميكانيزمات الفيزيولوجية للجوع. الخطوط المنقطة تشير إلى التأثيرات البيوكيميائية أو الهورمونية ، وأما الخطوط المتصلة فتشير إلى التنبيه العصبى . ويوضح الشكل عملية تناول الأطعمة التى يتم الحصول على الجلوكوز منها . والشكل يزداد كثيرا فى التعقيد والتركيب لو أننا جعلناه يشتمل على كل أنواع الأطعمة .

(نقلا عن J.P. Scott. Animal Behavior. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1958).

الحاجة إلى السكر ، أو الجلوكوز ، فإن امتصاص الخلايا للسكر من الدم يهيئ المسرح للتنبيه الهورمونى أو العصبى المباشر للدماغ بواسطة ورود الدم الخالى من السكر ، مما يؤدى إلى تنشيط ميكانيزم دافع الجوع فى الهيبوثلاموس ، وبذلك تنشأ إحساسات الجوع فى المخ . ثم إن آليات الهيبوثلاموس ، بالإضافة إلى عوامل الدم ، تنبه المعدة لكى تتقلص مما يؤدى إلى مصدر ثانوى للجوع ، الإحساس بالآم المعدة . كما أن ميكانيزمات الهيبوثلاموس وغيرها من ميكانيزمات الدماغ تنشط كذلك استجابات الأكل ، مع مراعاة أن وقوع الأكل بالفعل إنما يتوقف على وجود الطعام . وأما دور التنبيه أو الاستثارة الخارجية فيتضح كذلك من أن الطعام يعين على استثارة الجوع .

والآن نسأل إن كانت هذه السلسلة من الميكانيزمات تمتد إلى كل أنواع النقص الغذائى فى الجسم ؟ تذكر أن الجوع يتكون فى حقيقة أمره من طائفة من أنواع الجوع الفرعية أو الافتقار إلى مواد معينة مختلفة . فهل كل نوع من أنواع النقص يؤدى إلى البحث عن الطعام الغنى بهذه المادة المفتقر إليها ؟

إن هناك ميلاً عاما إلى أن الجوع نحو المواد المختلفة يختلف باختلاف الحاجات المحددة للكائن العضوى . وقد أطلق على هذا الميل فى بعض الأحيان مصطلح « حكمة البدن » . من ذلك ، مثلاً ، أن الحيوانات غير المستأنسة تنزع إلى اختيار الأطعمة بحسب ملاءمتها لحاجات أجسامها . كما أن هذا التأثير قد سبق التأكد منه فى المختبرات بفضل التجارب التى سميت بالتغذية على منهج الكافتيريا . وقد قام دافيز **C.M. Davis** بدراسة مشهورة قدم فيها الغذاء للأطفال الصغار من بنى الإنسان على طريقة الكافيتيريا عدة سنوات من بعد الفطام . إذ كانت الأطباق المختلفة وزجاجات الطعام توضع أمام كل طفل فى موعد الوجبات ويسمح له بأن يتناول منها بحسب ما يشتهى . وازدهرت أحوال الأطفال على هذا النظام . صحيح أنهم كانوا يمرون بفترات من الإفراط فى بعض الأشياء ، إلا أنهم كانوا يتخيرون غذاء متزنًا متكاملاً بصفة عامة وعلى المدى الطويل . بل إن واحدًا من الأطفال تمكن من علاج نفسه من الكساح بأن ظل يكثر من تناول زيت كبد الحوت .

على أن من الواجب تفسير هذه النتائج بحذر . إذ كانت الأطعمة التى تقدم للأطفال بسيطة نقية ، بحيث إن التجربة لو كانت تضمنت تقديم أطعمة جذابة كثيرا من نوع الآيس كريم والجاتوه لكان من المحتمل أن يؤدى ذلك إلى أن تتغير النتائج . كما أن العادة تلعب دورًا كبيرًا فى تحديد التفضيلات . فقد حدث فى إحدى الدراسات أن تعلمت الحيوانات التى كان لديها نقص فى السكر أن تفضل مادة سكر القصب . وفيما بعد ، عندما أصبح لديها نقص فى البروتين لا فى السكر ، استمر تفضيلها للسكر . وأما على المستوى الإنسانى ، فإن العادة والتقليد الاجتماعى يلعبان دورًا أكبر من ذلك . ومن أجل ذلك وجدنا معظم الثقات من الأطباء ينتقدون الفكرة التى تدعو إلى أن نترك للأطفال حرية اختيار الأطعمة التى يتناولونها .

وقد تمكن كورت ريختر وأعوانه Curt Richter من أن يثبتوا بوضوح فى إحدى التجارب وجود الحاجة إلى بعض المواد المعينة . ذلك أنهم قاموا بتغذية الفئران على طعام يفتقر إلى الفيتامين ب ، ثم أتاحوا لها فرصة اختيار الشرب من عدة زجاجات . وسرعان ما اختارت الفئران الزجاجة التى تحتوى على محلول خالص من الفيتامين ب . وبمجرد أن تذوقته ، أصبح من الصعب أن تمنع من شربه بمعنى أن الفئران كانت تتشبث بأنيابها ومخالبها بالزجاجة إن هى سحبت منها .

ولكن هذه النتيجة لا ينبغى أن نفرط فى تعميمها مع ذلك ، بعد أن تبين أن كثيرًا من الفيتامينات الأخرى ، وخاصة فيتامين أ وفيتامين د ، لا يتجه إليها التفضيل إن حرم الحيوان منها . أضف إلى ذلك أنه حتى الفيتامين ب لابد من أن يقدم إلى الحيوان بدرجة تركيز عالية حتى يمكن للحيوان أن يحس به . أما إن لم تكن درجة تركيز فيتامين ب قوية بدرجة تكفى لتمييز مذاقه ، فإنه مع ذلك يمكن أن نجعل الحيوان يفضله على غيره بأن نضيف إلى الفيتامين المطلوب مذاقًا متميزًا . ثم إننا إذا سحبنا فيتامين ب فيما بعد ، وجدنا الحيوان لا يزال يظهر تفضيله للمذاق القديم . وهذا يبين لنا مرة ثانية أهمية العادة .

على أن عددًا من التغيرات المختلفة الخاصة بالغدد الصماء والهرمونات فى الجسم

تؤثر فى اشتهاء الأطعمة المختلفة . من ذلك ، مثلاً ، أن الفئران التى يستأصل عندها البنكرياس قد نتوقع لها الإصابة بمرض السكر . لكن الذى يحدث فى الواقع أنها لا تصاب به لأنها لا تأكل إلا قليلاً من السكر وتحصل على سعراتها من الدهون . ولعل أقرب الأمثلة إلى المألوف هو الأم الحامل أو المرضع . ذلك أن الأم ، بسبب حاجات الجنين الناشىء أو الطفل الرضيع ، تكون بحاجة ماسة إلى قدر أكبر من المعادن مثل الصوديوم ، والكالسيوم ، والفوسفور ، وإلى قدر أكبر كذلك من البروتينات والدهون . ولكنها ليست فى حاجة إلى مزيد من السكر . وهكذا نجد إناث الفئران الحوامل أو المرضعات تفضل الأطعمة الغنية بهذه العناصر الضرورية . ثم نجدها بعد ذلك تعود إلى تفضيل الطعام العادى . وأما النساء الحوامل فإنه تبدو عليهن أيضاً تغيرات فى الشهية ، ولكنهن يتأثرن إلى حد أكبر بالعادة ، بمعنى أنهن كثيرًا ما يزيد تناولهن للسكريات بالإضافة إلى العناصر الغذائية اللازمة الأخرى ، وبذلك تزداد أوزانهن خلال فترة الحمل إلى درجة مفرطة .

وهكذا نجد أنه على الرغم من أن هناك نوعًا بدائياً من « حكمة البدن » ، وطائفة من الميكانيزمات الفسيولوجية التى تترجم الاحتياجات الجسمية إلى سلوك ، إلا أن هذه أمور محدودة إلى درجة كبيرة . فإنه ليست كل حاجات الجسم تؤدى إلى نوع معين من الجوع . كما أن تفضيلات المذاق والعادة كثيراً ماتلعب دورًا أكبر من الدور الذى تلعبه حاجات الجسم . وعند الإنسان نجد أن القيم الحضارية تلعب فيما يبدو دورًا هاماً فى اختيار المرء لطعامه .

ثم إن الميكانيزمات الفسيولوجية فى عدد من الدوافع الأخرى شبيهة بما نجده فى الجوع . فقد تبين أن هناك فى الهيبوثلاموس مناطق لها أهميتها بالنسبة للعطش ، والنوم واليقظة ، وتنظيم درجة الحرارة . والظاهر أن ميكانيزمات الهيبوثلاموس تكون حساسة للأحوال المختلفة فى الجسم **قبل** أن يصل الجسم إلى حالة الطوارئ الحقيقية . ذلك أنها تتوقع أوجه النقص ، والإنهاك ، والأذى . ولكنها ، مع ذلك ، لا تعمل دائـمًا بطريقة هوميوستازية تامة .

الحاجة الفسيولوجية مقابل الدافع النفسى

إن مفهوم الاتزان الحيوى يرتكز على فكرة أساسية مؤداها أن الحاجات الفسيولوجية تحدث نوعًا من اختلال الاتزان الذى يتطلب التوافق . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن الدافع النفسى عبارة عن امتداد للميكانيزمات الداخلية التى يستجيب بها الكائن للحاجة الفسيولوجية ، وقد رأينا بعض الأمثلة الممتازة على ذلك . لكن هناك مع ذلك عدة أسباب تمنعنا من أن نسوى بين الدافع النفسى والحاجة الفسيولوجية .

أول هذه الأسباب ، كما رأينا فى هذا الفصل ، أن هناك عددًا من الحاجات الفسيولوجية لا تنتج عنها دوافع نفسية . فإن هناك عددًا من أوجه الافتقار إلى الفيتامينات لا يكون الفرد على وعى بها أو لا تؤثر فى أهدافه . بل إن هناك مثالاً صارخًا بدرجة أكبر هو أن نقص الأوكسيجين لا يؤدى إلى إيجاد دافع عند الشخص . ذلك أن الشهيق يفيد عادة فى تزويد الجسم بالأوكسيجين . ومع ذلك ، فإن الدافع يدفعنا إلى أن نستنشق **الهواء** ، لا **الأوكسيجين** ، على وجه التحديد . وهكذا نجد أنه على الرغم من أن الجسم يتطلب الأوكسيجين ، إلا أن الدافع النفسى يتم إشباعه إذا استنشق الفرد هواء لا يحتوى إلا على القليل من الأوكسيجين أو يخلو تمامًا من الأوكسيجين . صحيح أن هذا الأمر لا يحدث إلا نادرًا فى الحياة العادية ، ولكنه قد يؤدى إلى الموت بالنسبة لرجال الطيران والغواصات الذين يضطرون إلى الخروج من البيئة الطبيعية . بل إن الأمر قد يصل إلى حد أننا يمكن أن نستنشق ذلك الغاز السام وهو غاز أول أوكسيد الكربون من غير أن تتأثر بذلك دوافعنا . ومن هذا يتضح أننا لا نجد لكل حاجة فسيولوجية ما يقابلها من الدوافع النفسية .

كذلك يبدو أن استثارة الدافع النفسى أمر مستقل إلى حد ما عن الحاجة الفسيولوجية . ذلك أن معظم الدوافع النفسية من النوع الاستباقى أو التوقعى . ومعنى هذا أن الكائن العضوى يصيبه الجوع من قبل أن تصبح الأنسجة خالية فعلاً من المواد اللازمة بفترة طويلة . كما أن الدافع النفسى قد يختفى عندما تصل الحاجة الفسيولوجية

إلى المستويات العالية الشديدة . ومن الأمثلة على هذا أن الناس الذين يحرمون كلية من الطعام يفقدون دافع الجوع ولا تكون لديهم رغبة شعورية فى تناول الطعام .

ثم إن هناك فرقًا آخر بين الحاجة الفسيولوجية والدافع النفسى هو أن الدافع النفسى يمكن أن يتأثر بالتعلم . وظروف التعلم قد تؤدى إلى ظروف غير هوميوستازية . مثال ذلك أن الفرد قد يكون قد تعلم من علاقته بأمه فى طفولته أن تناول الطعام يخفض القلق . ولذلك ، فهو الآن يشعر بالجوع كلما شعر بالقلق ، ويعمل على خفض القلق عنده بتناول الطعام . وهذا قد يؤدى إلى السمنة غير الهوميوستازية . وشبيه بهذا حالة رجل كان إذا بدأ يشعر بالغضب غلبه النعاس . ثم تبين بعد ذلك أثناء العلاج النفسى أنه كان فى طفولته إذا تملكه الغضب أو التوتر ، فسر والداه سبب سلوكه بالتعب وطلبا منه أن يذهب إلى فراشه . وهكذا نجده قد تعلم أن يشعر بالحاجة إلى النوم كلما شعر بالغضب .

على أنه ينبغى ملاحظة أن العوامل الاجتماعية قد تؤثر فى الدوافع عند الحيوان كما تؤثر فى الدوافع عند الإنسان . مثال ذلك أن الدجاج تأكل وهى مجتمعة مقادير أكبر مما تأكل وهى فرادى . ومع ذلك ، فإن الإنسان أكثر تعرضًا للتأثير الاجتماعى . ويبدو ، بصفة عامة ، أن اعتماد الدوافع على الاتزان الحيوى يتناقص كلما صعدنا فى سلم التطور . فبينما نجد الدافعية عند كائن عضوى بسيط جدًا مثل الميكروستوما تبدو أنها تستجيب مباشرة للحاجات الفسيولوجية ، نجدها على درجة أقل من ذلك عند الدجاجة ، وعند الإنسان أقل من سائر الحيوان .

ولذلك ، فإن التسوية البسيطة بين الحاجة الفسيولوجية أو اختلال الاتزان الحيوى من ناحية والدافع النفسى من ناحية أخرى ، أمر ليس له ما يبرره . وعلى الرغم من أنه من الواضح أن هناك دوافع مثل الجوع والعطش وما إليها مرتبطة بالحاجات الفسيولوجية ، إلا أن هذه الدوافع لا تستجيب لهذه الحاجات استجابة تامة . أى أن الدوافع النفسية تتضمن شيئًا أكثر من اختلال الاتزان الحيوى .

المثيرات الدافعة مقابل تنشيط الدافع

يذهب عدد من أصحاب النظريات النفسية إلى أن الدافع يؤدى عمله عند الكائن العضوى عن طريق التنشيط العام لكل الاستجابات والأنشطة . ولعل الميكروستوما تزودنا بمثال طيب يوضح كيف أن دافعًا معينًا يعبئ طاقة الكائن العضوى بأكمله . لقد سبق أن بينا ، على مستوى أعلى من سلم التطور ، كيف أن الفئران الجائعة أكثر انغماسًا فى سلوك استكشاف المتاهة من الفئران الشبعة . ومع ذلك ، فإن هناك حالات كثيرة أخرى لا يؤدى فيها الدافع إلى ازدياد النشاط . ذلك أن الجوع إذا اشتد حتى يتجاوز نقطة قصوى معينة ، وجدنا النشاط العام يأخذ فى التناقص .

ولذلك ، فقد ذهب عدد من أصحاب النظريات إلى أن الدافع لا يؤدى إلى ازدياد فى النشاط الظاهر الصريح ، وإنما يؤدى إلى حالة داخلية من الاستثارة . من ذلك ، مثلاً ، أن الفئران فى حالة العطش ، يلاحظ عليها تزايد فى دقات القلب عندما تقوم بالضغط على الرافعة من أجل الحصول على الماء ، حتى بعد أن يتناقص تكرار ضغطها على الرافعة نتيجة ازدياد شدة الدافع . ومع ذلك ، نجد أن هذا الرأى قد واجهته الاعتراضات . ذلك أن بعض الدوافع من قبيل الإحساس بالحرارة ، والتعب ، والحرمان من النوم يبدو أنها تؤدى إلى انخفاض مستوى الإثارة الداخلية .

كل هذه المشكلات جعلت عددًا من علماء النفس يتشككون فى مفهوم الأثر التنشيطى للدافع . فإذا لم يكن الدافع عبارة عن حالة داخلية من الاستثارة العامة ، فما هى حقيقته ؟ من الإجابات الممكنة على هذا السؤال أن الدافع لا يعدو أن يكون مثيرًا ـ داخلياً أو خارجياً . ولعل المصادر الخارجية للدوافع ، مثل الألم الناتج عن الصدمة الكهربية ، تتفق إلى حد كبير مع هذه النظرية إلى الدوافع على أنها أنواع من المثيرات . فقد اتضح ، على سبيل المثال ، أن المستويات المختلفة من شدة الصدمة يمكن أن يتم التمييز فيما بينها بنفس الصورة التى يتم بها التمييز بين المثيرات الأخرى .

ومن هنا كان السؤال الهام هو ما إذا كان من الممكن أن نبين أن للدوافع الداخلية

خصائص المثيرات . ولما كان من أهم خصائص المثير أنه يمكن التمييز بينه وبين غيره من المثيرات إلى حد ما ، فإذن ، يصبح من الواجب إمكان تمييز المثيرات التى تكون مرتبطة بدوافع داخلية . وقد اتضح ذلك فى تجارب أجراها كلارك هل Clark Hull ، وروبرت ليبر Robert Leeper وغيرهما . فقد أمكن تدريب الفئران على الجرى فى ساق متاهة مصنوعة على شكل الحرف الإنجليزى (T) ، وأن تستدير إلى إحدى الناحيتين فى أيام الجوع لتحصل على الطعام ، وإلى الناحية المقابلة فى أيام العطش لتحصل على الماء . كما أنه يمكن تدريب الحيوان على أن يستدير إلى إحدى الناحيتين حين يكون جائعًا بدرجة طفيفة ، وإلى الناحية الأخرى حين يكون جوعه شديدًا .

وهكذا يفترض أصحاب النظرية التى تربط بين الدافع والمثير أن هناك طائفة متميزة من المثيرات مرتبطة بكل دافع . وأن هذه المثيرات قد تكون خارجية بالنسبة لبعض الدوافع ، وداخلية بالنسبة لبعض الدوافع الأخرى . كما أن زيادة الدافع معناها ازدياد شدة هذه المثيرات ، أو زيادة عددها ، أو زيادة احتمال ظهورها . وبالنسبة لبعض أصحاب هذا الاتجاه النظرى نجد أن الإثابة تتألف من خفض هذه المثيرات ـ فالهرب من الصدمة يخفض من مثير الصدمة ، والأكل قد يكف المثيرات الصادرة عن المعدة والهيبوثلاموس .

لكن أصحاب هذا الاتجاه النظرى لايزالون مطالبين بأن يفسروا لنا السبب فى أن هناك دوافع محددة لها فى بعض الأحيان ما يبدو أنه تأثير منشط على السلوك . والواقع أنهم يفسرون ذلك بافتراضهم أن النشاط العام والاستثارة الداخلية تتألفان من سلسلة من الاستجابات المتعلمة للإشارات الداخلية والخارجية ، لكل من المثيرات الدافعة والمثيرات المحايدة . مثال ذلك أن الحيوانات التى حرمت من الطعام قد لا يظهر عليها ازدياد النشاط إلا بعد أن يضىء المجرب ضوءًا معينًا أو يدق جرسًا خاصاً . وقد يكون هذا نتيجة لارتباطات متعلمة بين المثيرات والاستجابات .

الخلاف لم ينحل بعد . وما نستطيع أن نقوله الآن هو أن الدوافع من قبيل الجوع

تتضمن بعض المثيرات الداخلية . وأن هذه المثيرات الداخلية قد تكون الإشارات الصادرة عن المعدة ، ومجرى الدم ، والهيبوثلاموس . كما أن هناك أيضًا مثيرات خارجية مثل منظر الطعام . كذلك قد يتضمن الدافع ، فى بعض الأحوال ، استثارة عامة لكل الكائن العضوى وذلك بالإضافة إلى استجابات محددة للإشارات . وسوف نناقش فى الفصل الخامس الذى نتحدث فيه عن الدوافع الانفعالية الأساس الفسيولوجى للاستثارة الداخلية .

طبيعة الإثابة

وإذا كانت وجهة النظر الهوميوستازية تتنبأ بأن الظروف التى من شأنها أن تحدث انحرافًا عن التوازن تولد دافعًا ، فإنها تتنبأ كذلك أن الظروف التى تعيد الجسم إلى الاتزان الهوميوستازى **تشبع** الدافع وتعمل بوصفها نوعًا من **الإثابة** . وهكذا نجد كلارك هل يسوى بين **الإثابة** وبين **خفض الحاجة** . وقد ظلت هذه التسوية موضع الشك فترة من الزمن . من ذلك ، مثلاً ، أن نيل أ. ميللر Neal E. Miller أشار إلى أن تأثير ذلك القرص الصغير من الطعام فى خفض الحاجة لابد وأن يكون محدودًا وآجلاً ، ولكنه ، مع ذلك ، يؤدى عمله بوصفه إثابة قوية للحيوان الجائع . أضف إلى ذلك أن الحيوان قد يصل إلى حالة الشبع ويتوقف عن الضغط على الرافعة من قبل أن تتغير حاجة الأنسجة بفترة زمنية طويلة . فالظاهر ، إذن ، أن هناك شيئًا آخر مسئولاً غير خفض الحاجة . ولذلك ، سوف نقوم الآن بدراسة طبيعة عمليتى الشبع والإثابة المتصلتين بالجوع وفى شىء من التفصيل ، ثم سوف ندرس بعد ذلك عدة أمثلة على الإثابة التى لا توجد أية صلة بينها وبين خفض الحاجة الفسيولوجية .

الجوع

ناقشنا فيما سبق الميكانيزمات الفسيولوجية المتضمنة فى استثارة الجوع . والآن نسأل عن الميكانيزمات المتصلة بخفض الجوع ، وإحداث الشبع ، وبإحداث تأثير الإثابة . من وجهة النظر البيولوجية الخالصة نجد أن العملية لا تتم إلا بعد أن تصل المواد

الكيميائية الحيوية اللازمة إلى الخلايا . لكن هذا لا يتحقق إلا بعد تناول الطعام بعدة ساعات ولا يمكن أن يفسر الإحساس السريع بالشبع وما يحدثه تناول الطعام من إثابة . ولذلك ، فلابد من أن هناك ميكانيزمات فسيولوجية من شأنها أن تستبق أو تتوقع خفض الحاجة البيولوجية .

إن الميكانيزم ذا الأهمية المركزية فى خفض الجوع نجده كذلك فى الهيبوثلاموس . ذلك أن ميكانيزم الشبع يقع فى جزء من هذا العضو منفصل عن منطقة التغذى . والظاهر أن عمله يؤدى إلى توقف سلوك الأكل . ولو أن هذا الميكانيزم أصابه التلف ، لنشأت حالة إفراط فى الأكل ، فيزيد الحيوان كثيرًا من مقادير الأطعمة التى يتناولها ويتحول إلى السمنة . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن التنبيه الكهربى لهذه المنطقة يؤدى إلى تناقص الأكل . ومع ذلك ، فإن نيل ميللر وأعوانه كانوا يحاولون أن يبينوا أن تنبيه هذه المنطقة يمكن أن يؤدى إلى الإثابة ، ولكنهم وجدوا أن التنبيه ذاته منفر للحيوان . إذ كانت الحيوانات تضغط وهى مترددة على الرافعة لتحصل على التنبيه ثم تسرع إلى إنهاء التنبيه. والعلماء يرجون أن توضح الأبحاث فى المستقبل ما يكتنف هذه الميكانيزمات من تعقيد حالياً . لكنهم ، مع ذلك ، لا يكادون يتشككون فى أن هناك نوعًا من الميكانيزم المتصل بالشبع فى الهيبوثلاموس .

والآن يواجهنا السؤال : ما هى مصادر المعلومات التى تؤثر فى ميكاينزم الشبع فى الهيبوثلاموس ؟ هناك ثلاثة احتالات رئيسية ــ مستقبلات المذاق فى الفم ، انتفاخ المعدة ، والحالة الكيميائية الحيوية للدم . أما دور المذاق والمعدة فى خفض الجوع فقد أظهره مارتن كون Martin Kohn الذى استخدم طريقة تعرف بطريقة أنبوبة المعدة (Stomach-Fistula method). وفى هذه الطريقة توضع أنبوبة من البلاستك فى معدة الفأر لتمر من خلال جدار الجسم وتمتد تحت الجلد ، ثم تصل إلى الرقبة من الخلف حيث لا يستطيع الفأر أن يهرشها. وبذلك يمكن حقن الطعام مباشرة فى المعدة أو أن يتناول الفأر طعامه بالطريقة العادية . واستخدم كون معدل الضغط على الرافعة من أجل الطعام بوصفه مقياسًا للجوع. وكانت الحيوانات ، قبل أن تتعرض لاختبار الضغط على الرافعة ، إما أن تتناول عن طريق الفم مزيجًا من اللبن (الأكل

العادى) ، أو أن تحقن فى معداتها مباشرة نفس الكمية ، أو أن تحقن فى معداتها كمية من محلول الماء المالح على سبيل الضبط التجريبى . وتبين أن أكبر خفض للجوع كان يحدث عند تناول الطعام بالفم ، وأن حقن الطعام فى المعدة مباشرة يخفض الجوع إلى حد ما كذلك . وعلى ذلك ، يمكن القول بأن كلا من التنبيهات الصادرة عن المذاق والمعدة متضمنة فى خفض الجوع .

ثم تلا هذا أن نيل ميللر وأعوانه تمكنوا من إثبات أن الفأر يمكنه أن يتعلم استجابة ما للحصول على إثابة هى أن يحقن اللبن مباشرة فى المعدة . ذلك أن هؤلاء الباحثين كانوا يحقنون الفئران بالحليب إن هى انحرفت إلى اليسار فى متاهة بسيطة على شكل حرف T ، ويحقنونها بمحلول الملح إن هى اتجهت إلى اليمين . وبعد ثلاثين محاولة تقريبًا ، تعلمت الفئران أن تتجه إلى الجانب الذى تحصل منه على الحليب . وكان هذا أبطأ قليلاً مما لو كانت الإثابة قدمت عن طريق الفم ، ولكنه ، مع ذلك ، لاشك فى أن الطعام الذى يحقن مباشرة فى المعدة يكون إثابة كافية للتعلم .

كذلك يبدو من المنطق أن نتوقع أن يكون فى حقن المادة الغذائية فى مجرى الدم مباشرة نوع من الإثابة . وقد تبين أن هذا الأمر من الصعب تنفيذه من الناحية الفنية ، إلا أن راندال م. تشامبرز Randall M. Chambers نجح فى بيان هذه الظاهرة فى الأرانب. فقد ثبتت أنبوبة كبيرة الشبه بالجهاز الذى يستخدم فى المستشفيات للتغذية فى الوريد ، ثبتت بوريد الأذن فى كل واحد من الأرانب. وكان الاختبار يتم فى جهاز له عدة ألواح أرضية . وكان الأرنب إذا جلس على لوح منها اندفع الجلوكوز إلى وريده ، وإذا جلس على لوح آخر اندفع محلول سكرى غير غذائى إلى الوريد ، وإذا جلس على لوح ثالث اندفع محلول ملحى عادى. وقد أظهرت النتائج أن الأرانب تعلمت أن تجلس على اللوح المرتبط باندفاع محلول سكر الجلوكوز المغذى وأن تقضى وقتاً أكثر وهى مستقرة فوقه . ولم يحدث هذا بالنسبة للمادة الحلوة غير الغذائية ، ولا للمحلول الملحى . كما أظهرت اختبارات الأكل التالية أن الأرانب التى كانت تتلقى الجلوكوز كانت أقل جوعاً .

فكيف يخفض حقن الجلوكوز من الجوع ؟ لعله من الممكن ، وإن كان من غير المحتمل ، أن حاجات الأنسجة تنخفض مباشرة بوجود السكر . أو قد يكون السكر قد غير من بعض المواد الكيميائية الأخرى فى الدم . كذلك من الممكن أن تكون مستقبلات المذاق فى اللسان قد تأثرت . فإن بنى الإنسان يقررون أنهم يشعرون بمذاق حلو فى أفواههم بعد أن يتم حقن الجلوكوز فى أذرعهم بثوان قليلة . وأخيرًا ، قد يكون وجود الجلوكوز فى الدم ينبه ميكانيزم الشبع فى الهيبوثلاموس .

الواقع أن هذا المجال من الدراسات جديد بأكمله . ونتائج الأبحاث تخرج علينا باستمرار . ولعلنا نتمكن خلال السنوات العشر القادمة من أن نعلم المزيد عن الأساس الفسيولوجى للإثابة والشبع . وأما بالنسبة لما نعرفه الآن بالفعل فإننا نقول إن خفض الجوع يتضمن عديدًا من الميكانيزمات ـ فى الفم ، والمعدة ، ومجرى الدم ـ وأن هذه الميكانيزمات ينسق الدماغ بينها ، وبصفة خاصة الهيبوثلاموس .

ثم إن ما نعلمه عن الشبع وعمليات الإثابة فى الدوافع الأخرى غير الجوع أقل من ذلك بكثير . وإن كانت الأبحاث الحديثة تشير إلى أن العطش مشابه إلى حد ما . فإن العطش يمكن خفضه عن طريق تناول الماء بالفم ، أو إدخاله إلى المعدة ، أو حقنه مباشرة فى الهيبوثلاموس . كما أن الإثابات الأخرى يحتمل أن تتضمن كذلك عددًا من الإشارات المحيطية[1] التى تؤثر فى ميكانيزمات الدماغ .

الإثابات المستقلة عن خفض الحاجة

رأينا فيما سلف أن هناك عددًا من العوامل متضمنة فى خفض دافع من قبيل الجوع ، فإن الإشارات الصادرة من حلمات التذوق فى الفم ، وامتلاء المعدة ، والحالة الكيميائية للدم لها تأثيرها فى ميكانيزمات الشبع فى الهيبوثلاموس . وفضلاً عن

(١) أى الإشارات التى تحدث نتيجة استثارات معينة فى الجهاز العصبى المحيطى peripheral . أو الخارجى الذى يشمل الأعصاب الدماغية والأعصاب النخاعية الشوكية التى تصل الدماغ والنخاع الشوكى بجميع أعضاء الجسم (المترجم) .

ذلك ، فإن وجود الطعام فى الفم ، والمعدة ، ومجرى الدم يعمل باعتباره إثابة . ثم إن تأثيرى الشبع والإثابة يمكن أن نلحظها ونشهدهما من قبل أن يطرأ التغير على الحاجات الفسيولوجية للخلايا الفردية بزمن طويل . ولكن الطعام ، مع ذلك ، يؤدى فى آخر الأمر إلى خفض الحاجات الفسيولوجية بحيث نجد أن النتائج غير حاسمة إلى حد ما .

لكن هناك أيضًا أنواعًا من الإثابة لا تخفض من حدة الحاجة الفسيولوجية فى أى وقت من الأوقات . وأوضح الأمثلة عليها هو مادة السكارين . ذلك أن السكارين مادة كيميائية حلوة المذاق ، مرغوبة مقبولة ، ولكنها لا تزود الكائن بالطاقة ، وهى تدخل الجسم وتخرج منه دون أن يطرأ عليها تغيير ما . وهذا هو السبب الذى يجعل الإنسان الذى يلتزم بنظام فى التغذية يجد فى السكارين بديلاً مفيدًا عن السكر . وقد تبين أن هذه المادة غير المغذية يمكن أن تعمل بوصفها إثابة قوية للحيوانات فى مواقف التعلم .

وعلى الرغم من أن من الواضح أن السكارين لا يخفض حاجة فسيولوجية ، إلا أنه ، فى الواقع ، يخفض من دافع الجوع . وقد استطاع نيل ميللر ، وزميله وارين روبرتس Warren W. Roberts ، والمؤلف من أن يثبتوا ذلك بأن يزودوا الفئران بمحلول السكارين أولاً ، ثم باختبار درجة الجوع عندها ثانيًا . أما الفئران التى قدم لها السكارين أولاً فقد تناولت مقادير أقل من الطعام وكانت تضغط على الرافعة للحصول على التدعيم بالطعام بمعدل أقل تكرارًا من الفئران الضابطة . وهذا التأثير يعتمد كل الاعتماد على التذوق ، مما يوحى بأن التنبيه الحسى المباشر يمكن أن يؤثر فى الدافع من غير أن يخفض الحاجة الفسيولوجية .

كما أن استقلال الإثابة والعقاب عن الحاجة الفسيولوجية قد تبيّن بصورة واضحة جداً عندما اكتشفنا أن التنبيه المباشر لمناطق معينة فى الدماغ يمكن أن يكون له فعل الإثابة أو العقاب . ذلك أن جميس أولدز James Olds وزملاءه قاموا بغرس أسلاك فى منطقة من الدماغ عند الحيوانات تتضمن الجزء الأمامى من الهيبوثلاموس ومايتصل به اتصالاً وثيقًا من أجزاء الجهاز الطرفى من الدماغ . (هذا الجهاز الطرفى تجد له شرحًا

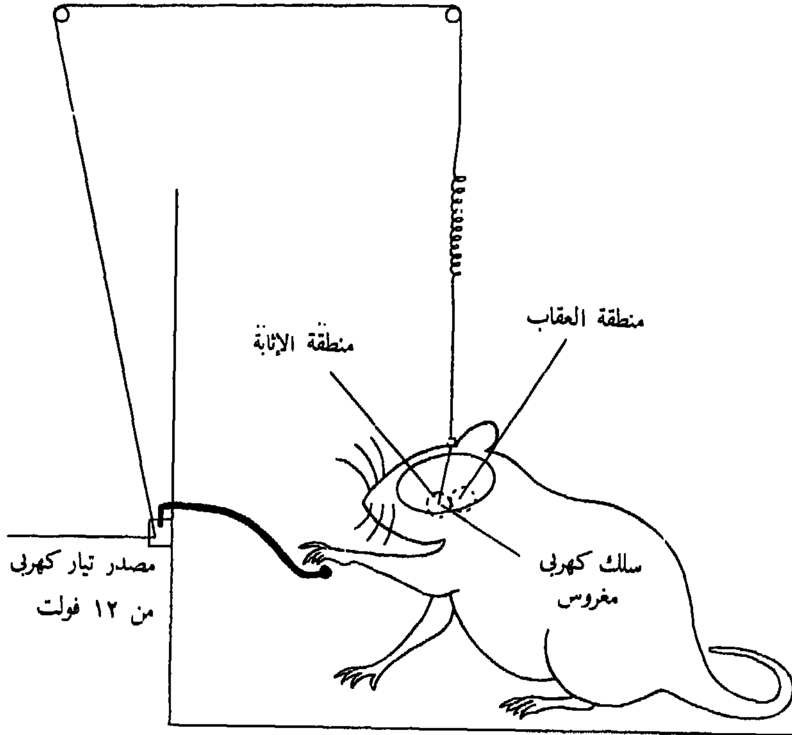
وتوضيحًا فى الفصل الخامس) . وقد تم تصميم جهاز يستطيع الحيوان فيه أن يضغط على الرافعة ليسرى التيار الكهربائى . ويتضح هذا من الشكل رقم (٤) . وتبين أن هذا التيار الكهربى الذى يوجهه الحيوان لنفسه نوع من الإثابة القوية عند الفئران ، والقطط ، والقردة . فإن الحيوانات تتعلم الضغط على الرافعة حتى بعد أن يرتفع التيار إلى مستويات عالية من الفولت ، ومن غير أن يبدو عليها أنه أصابها التعب من ذلك . أما إن تم فصل مصدر التيار الكهربى ، فإن الحيوانات يبدو عليها تأثير الانطفاء بالضبط كما يبدو عليها ذلك عندما ينقطع حصولها على أقراص الطعام .

على أن هناك بعض البراهين التى توحى بأن التنبيه الذاتى للدماغ فى المنطقة المثيبة إنما يعمل عن طريق تزويد الحيوان بنوع من الإحساس باللذة . بل إن بعض الناس غالوا فى ذلك وجعلوا يتحدثون عن مركز « للذة » فى الدماغ . وهذه الأدلة مستمدة من دراسات أجريت على بعض المتطوعين من مرضى السرطان المتقدم والذين غرست الأسلاك الكهربية فى منطقة الإثابة من الدماغ عندهم . وقد ذكروا بصفة عامة أنهم أحسو باللذة ، وبنقص التوتر ، وبازدياد التنبّه ، ولو أن عددًا قليلاً من المرضى ظهرت عليه زيادة فى التوتر .

وأما تلك الأجزاء من الجهاز الطرفى التى هى أقرب إلى مؤخرة الدماغ فيبدو أنها منطقة العقاب . ذلك أن نيل ميللر وأعوانه تمكنوا من بيان أن الحيوانات يمكنها أن تتعلم إدارة عجلة من شأنها أن **يوقف** التنبيه الكهربى لهذه المنطقة . ولو أننا جعلنا التنبيه الكهربى تسبقه نغمة صوتية معينة ، لتعلمت الحيوانات أن تتجنب التيار . وهكذا نجد أن هذا القسم المتأخر من الجهاز الطرفى يتصل بكل من الخوف والألم .

وعلى الرغم من أن التنبيه الكهربى للجهاز الطرفى لا يؤدى إلى خفض لإحدى الحاجات الفسيولوجية ، إلا أن تأثير الإثابة ليس عديم الاتصال بحالة الدافع . فقد أظهرت عدة دراسات أن الحيوانات تزداد سرعة أدائها للحصول على التنبيه الكهربى عندما تكون فى حالة الجوع . وهذا يوحى بأن لمنطقة الإثابة اتصالاً ما بالجوع العادى . كذلك وجد أولدز أن هناك نقاطًا معينة فى منطقة الإثابة تكون أكثر إثابة عندما تحرم

الحيوانات من الطعام ، ونقاطًا أخرى تكون أكثر إثابة عندما تعطى الحيوانات هورمونات جنسية يفترض أنها تزيد من الدافعية الجنسية . وهكذا يبدو أن ميكانيزمات الدماغ هذه مرتبطة بعدة دوافع مختلفة . ومع ذلك ، فإن الأمر المهم الذى ينبغى أن نتذكره دائـمًا هو أن تأثير الإثابة الناتج عن تنبيه الدماغ لا يعتمد على خفض حاجة فسيولوجية .



شكل ٤ ـ تنبيه الحيوان لذاته تنبيهاً مخياً . حيوان غرس أحد أسلاك الكهرباء فى منطقة «الإثابة» بالمخ أمكنه أن يتعلم الضغط على الرافعة فى صندوق سكنر ليحدث تياراً كهربياً معتدلاً . فالضغط على الرافعة يؤدى إلى ظهور التيار الذى يحمله سلك خفيف مرن يتدلى من مكان يقع فوق صندوق سكنر. وأما التنبيه فى منطقة «العقاب» فإنه أمر منفر للفأر يعمل على تجنبه .

(معدل عن J. Olds. Physiological mechanisms of reward. In M.R. Jones (ed.), Nebraska symposium on motivation. Lincoln: University of Nebraska press, 1955.)

أفكار جديدة عن دوافع الاتزان الحيوى

النتيجة التى تلزم عن كل الأدلة التى ذكرناها فى هذا الفصل هى أن العلاقة بين الحاجة الفسيولوجية والدافعية النفسية علاقة على درجة بالغة من التعقيد . والذى لاشك فيه هو أن الدوافع ليست مجرد انعكاسات بسيطة لاختلال الاتزان الحيوى ، كما أن الإثابات ليست مجرد إصلاحات بسيطة للاختلال . فدافع الجوع ، مثلاً ، يمكن استثارته من غير حاجة فسيولوجية ، كما أنه ليس كل افتقار إلى عنصر من العناصر الغذائية يؤدى إلى الجوع ، كما أن مذاق مادة ما قد يخفض الجوع ، كما قد يكون التنبيه الكهربى لدماغ الحيوان مثيبًا له إن كان جائعًا . ومن الواضح أن الاتزان الحيوى لا يفسر لنا تفسيرًا تاماً لا الدوافع ولا الإثابة . فهل هناك تفسيرات أخرى ممكنة ؟

من التفسيرات الممكنة تلك التفرقة التى يقدمها نيل ميللر فيما بين الحاجة الفسيولوجية والدافع النفسى . قد يكون بينهما ارتباط ، ولكنهما ليسا شيئًا واحدًا . فأما الحاجة الفسيولوجية فإنها عملية بيولوجية خالصة تنطوى على اختلال الاتزان الحيوى الذى تحدثنا عنه . وأما الدافع النفسى فإنه طائفة من المثيرات تنشأ عن حالات نفسية من قبيل أن تنقضى فترة طويلة لا يتم الحصول فيها على طعام ، أو أن تصل إلى أنف المرء رائحة شواء لحم جذابة ، أو أن يشعر المرء بالجوع عند الافتقار إلى الأمن والطمأنينة . وكذلك نقول إن خفض المثير الدافع يختلف عن خفض الحاجة ، إذ أنه يمكن خفض دافع مثل الجوع بواسطة تذوق الطعام أو مادة غير غذائية مثل السكارين .

وهناك فكرة ثانية تأتينا من عند أصحاب نظريات اللذة من أمثال بول يونج Paul Young ودافيد ماكليلاند David McClelland وهم يفسرون الإثابة على أساس من اللذة . والواقع ، إن تأثير الإثابة القوى للسكارين غير الغذائى حلو المذاق ، ولتنبيه الدماغ المثير للذة من شأنه أن يدعم وجهة نظر أصحاب مبدأ اللذة . كما أن تأثير حالات الدافع مثل الجوع يمكن تفسيره بأنه يزيد من خاصية اللذة للإثابات المختلفة .

وأخيراً ، نجد هناك فرضًا معقولاً يتقدم به عدة باحثين . هو أن الدوافع النفسية والإثابات تتوسط فيها ميكانيزمات للدماغ تتوقف على الاستثارة الخارجية بنفس الدرجة التى تتوقف بها على التنبيهات الدافعية الداخلية . واللذة والألم قد تكونان الوسيلة المباشرة للتأثير فى سلوك الشخص . وهذه الميكانيزمات لها تأثير جانبى هو أنها تخفض الحاجة الفسيولوجية فى نسبة مئوية محددة من المرات . ومن المحتمل أن تكون ميكانيزمات الدماغ قد نشأت وتطورت ببطء . وإنها تميل إلى زيادة فرص البقاء . كذلك من الممكن أن تنشأ فى المستقبل ميكانيزمات أخرى للدماغ فى مواجهة الظروف البيئية المتغيرة . وقد ذهب أحد علماء الوراثة إلى أن من الممكن توليد نوع من الإنسان يمكنه أن يحس بالإشعاع الذرى ويستجيب له بوصفه دافعاً منفراً . كما أننا نستطيع فى الوقت ذاته أن نعد الجوع والعطش بمثابة دافعين خاصين بالاتزان الحيوى بسبب أنهما ذاتا صلة بالحاجات الفسيولوجية ، ولكن يجب أيضًا أن نتذكر أن هذين الدافعين تتوسط فيهما ميكانيزمات للدماغ ليست مرتبطة ارتباطًا كاملاً بحالات الاتزان الحيوى الداخلية .

الفصل الرابع

الدافعيّة الجنسيّة

صدم سيجموند فرويد Sigmund Freud المجتمع الفيكتورى عندما أصر على أن الجنس قوة دافعة شديدة فى سلوك الإنسان ، وأنه يكمن وراء مشاهد الحياة المدنية المتحضرة ، ووراء الخلافات الزوجية ، والأعراض العصابية ، والأحلام التى تبدو فى ظاهرها بريئة . قد نحسب أنفسنا أكثر تفتحاً ، ولكن الواقع أن مناقشة الأمور الجنسية لا تزال تجعلنا نشعر بالحرج والضيق . وقد بلغ من استجابة الجمهور الأمريكى لتقرير آلفرد كينزى Alfred Kinsey عن الدراسة الإحصائية الضخمة التى أجراها للحياة الجنسية عند الأمريكيين أنهم رأوا فيه عاملاً يدعو إلى الفساد ويبرر ارتكاب كل أنواع الانحرافات . أمثال هذه الاتجاهات هى التى تجعل الدراسة العلمية الجادة للدافعية الجنسية أمراً يصعب تحقيقه .

فما هى طبيعة الدافعية الجنسية ؟ نقول أولاً إن الدافعية الجنسية تبدو مختلفة عن الدوافع التى ناقشناها فى الفصل السابق . فإنه لا وجود لوظيفة هوميوستازية ظاهرة فى الدافعية الجنسية . صحيح أن هناك وظيفة بيولوجية هامة للدافعية الجنسية ، ولكن هذه الوظيفة هى المحافظة على النوع ، لا على الفرد ذاته . ولذلك ، سوف يوضح تحليلنا للدافعية الجنسية عدة أمور منها أن مبدأ الاتزان الحيوى يقصر عن أن يكون نموذجاً لتفسير كل الدوافع . على أننا سوف نناقش أولا الميكانيزمات الفسيولوجية فى السلوك الجنسى ، ثم نناقش طبيعة الجنس بوصفه دافعاً ، وأخيراً تطور الدافعية الجنسية ودورها فى الشخصية .

الأساس الفسيولوجى للسلوك الجنسى

يتوقف السلوك الجنسى ـ عند الذكر والأنثى ، على مزيج من العوامل الداخلية والخارجية. أما العوامل الداخلية فإنها الهورمونات وميكانيزمات الدماغ ، وأما العوامل الخارجية فإنها مثيرات بيئية متعلمة وغير متعلمة . وقد كان الناس يحسبون فى زمن مضى أن السلوك الجنسى يعتمد اعتماداً كاملاً تقريباً على الهورمونات الجنسية ـ ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت أهمية عدد من العوامل الأخرى . وسوف نرى أن هناك فروقا تطورية (بين الفصائل الحيوانية) فى الأهمية النسبية لهذه العوامل فى السلوك الجنسى . والآن نناقش ، أولاً ، دور الهورمونات الجنسية ، ثم نعود إلى ميكانيزمات الدماغ والمثيرات البيئية .

الهورمونات الجنسية

تقوم خصيتا الذكر ، بالإضافة إلى إنتاج الحيوانات المنوية اللازمة للتكاثر ، بإفراز الهورمونات الذكرية (الأندروجينات) ومقداراً ضئيلاً من الهورمونات الأنثوية (الإستروجينات) . أما فى فترة ما قبل البلوغ فإن إنتاج كل من النوعين يكون منخفضاً جداً ، وأما عندما يقترب الذكر من البلوغ ، فإن كمية الأندروجينات تزداد ازدياداً ملحوظاً . وهذا الازدياد فى الأندروجينات لا يقتصر أثره على تنشيط ظهور الخصائص الجنسية الثانوية فقط ، بل إنه يرتبط كذلك بازدياد ملحوظ فى الميل الجنسى والنشاط الجنسى . ثم إن التدهور الجنسى الذى يقع بعد ذلك فى السنوات الأخيرة قد يرجع إلى تناقص فى إنتاج الهورمونات .

والإخصاء التجريبى يزودنا بالإثبات المباشر لتأثير الهورمونات على السلوك الجنسى عند الذكر. فى هذا النوع من التجارب يتم القضاء على المصدر الرئيسى للهورمونات الذكرية عن طريق الاستئصال الجراحى للخصيتين . وعلى الرغم من أن التأثير العام للإخصاء هو إنقاص السلوك الجنسى ، إلا أن هذه العبارة ينبغى أن تُعدل من عدة نواح . أول هذه التعديلات أن تأثير الإخصاء يكون ملحوظًا بدرجة أكبر إذا وقع قبل البلوغ ـ وقد كانت هذه هى الوسيلة التى يتبعها

الأقدمون لإعداد (الأغوات أو الخصيان) الذين يتولون حراسة الحريم . ثم إن تأثير الإخصاء يعتمد ثانياً على المرحلة التطورية التى وصل إليها النوع . من ذلك أن الثدييات الدنيا ، من قبيل الفئران وخنازير غينيا ، يظهر عليها التدهور السريع الكامل فى النشاط الجنسى عقب الإخصاء ، على حين أن الثدييات الأكبر ، مثل الكلاب ، قد تحتفظ بقوتها عدة سنوات ، بينما يظهر على الحيوانات العليا ، مثل الشمبانزى ، أن النشاط الجنسى عندها لم ينقص لفترة غير محددة .

وأما الموقف بالنسبة للإنسان فإنه ، كما هو المتوقع ، على أشد درجات التعقيد كلها . ذلك أن بعض الناس يقررون أنه بعد الإخصاء يحدث فقدان الميل الجنسى أو انهيار ملحوظ فيه . بينما يقرر بعضهم الآخر أن نشاطهم يظل على نفس المستوى من الارتفاع فترة تبلغ من الطول ثلاثين سنة . فالظاهر أن الجنس عند الإنسان يتأثر تأثراً كبيراً بالعوامل النفسية . وقد كتبت تقارير إكلينيكية عن أناس يعانون من العنّة (الضعف الجنسى) وهم مقتنعون بأن السبب عبارة عن نقص هورمونى . فلما قيل لهم إن مستوى الهورمونات عندهم عادى ، إذا بهم يتخلصون مباشرة من العنة ويتحولون إلى المقدرة . كما أن النشاط الجنسى الذى نقص بسبب الإخصاء يمكن أن يستعاد بإعطاء الهورمونات ، وذلك كما ثبت بالنسبة لعدة أنواع حيوانية منها الإنسان .

كذلك يتأثر السلوك الجنسى عند الإناث بالهورمونات ، ولو أن العلاقة هنا أكثر تعقيداً . ذلك أن النشاط الجنسى عند الإناث ، وكذلك ظهور الخصائص الجنسية الثانوية ، يزداد عند البلوغ بواسطة الهورمونات الأنثوية التى ينتجها المبيضان بالإضافة إلى كمية صغيرة من الهورمونات الذكرية . ومع ذلك ، فإن البلوغ يحدد كذلك بداية الدورة الشهرية أو دورة الخصوبة عند الإناث .

على أن دورة الخصوبة عند الإناث ، وهى تدوم عند بنى الإنسان زهاء أربعة أسابيع ، ينظمها التفاعل المعقد فيما بين هورمونات المبيضين من ناحية والغدة النخامية من ناحية أخرى . وبصورة موجزة نقول إن أحد المبيضين يعد البويضة

للإخصاب خلال الأسبوعين الأولين من الدورة ، وأن المبيضين معاً يفرزان الهورمون الأنثوى المعروف بالإستروجين . والإستروجين يعد الرحم لا نغراس البويضة فيه ، كما أنه يميل فيما يبدو إلى إثارة الميل الجنسى . ثم يحدث التبويض بعد أسبوعين تقريباً ــ وتبدأ البويضة المخصبة رحلتها إلى الرحم . وفى نفس الوقت نجد المبيضين يشرعان فى إفراز البروجستيرون Progesterone ــ هورمون الأمومة الذى يزيد من إعداد الرحم لانغراس البويضة فيه ، كما يعد الغدد اللبنية بصورة غير مباشرة للإرضاع .

ثم إن الدافع الجنسى عند الأنثى فى الثدييات الدنيا يكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بدورة الخصوبة . ذلك أن الأنثى لا تكون متقبلة للذكر إلا خلال فترة التبويض . وأما فى مستويات التطور العليا فإن السلوك الجنسى لدى الأنثى لا يكون مرتبطاً هذا الارتباط القوى بدورة الخصوبة . فقد لوحظ أن القردة والنسانيس تمارس النشاط الجنسى خلال كل مراحل دورة الخصوبة ، ولو أن الاستثارة الجنسية والنشاط الجنسى يكونان على أشدهما فى مرحلة التبويض . كما أن إناث القردة قد تبدى أيضاً قدراً أكبر من الاختيار فيما بين الذكور ، فتتقبل هذا الذكر وتنفر من ذاك الآخر. كل هذا يشير إلى تناقص تحكم الهورمونات ، وظهور العوامل الاجتماعية والانفعالية .

وأخيراً ، نجد فى المستوى الإنسانى أن تأثير الهورمونات على النشاط الجنسى لدى الإناث تطغى عليه العوامل النفسية . فالنساء يشتركن فى النشاط الجنسى بصورة منتظمة ، وفى كل أوقات دورة الخصوبة . وربما كان هذا راجعاً بصورة جزئية إلى الرغبة الجنسية عند الذكر ، ولكن هناك أدلة تشير إلى أن النساء يكن مستجيبات إلى درجة ما فى كل الأوقات . صحيح أن هناك إيقاعاً للرغبة الجنسية عند معظم النساء ، ولكن هناك عدة دراسات قامت على الاستبيان تبين لنا أن هذا الإيقاع يتزامن مع التبويض . ومعظم النساء يقررن أنهن يخبرن أشد الاشتهاء قبل الحيض بفترة قصيرة ، أو بعده بفترة قصيرة . وإذا كانت الأحلام تبين لنا مع ذلك تأثير الهورمونات ، فإن من الممكن أن يكون انعكاس الصورة عند أنثى

الإنسان راجعاً إلى عملية كفّ تقع عند ذروة الدورة النزوية بسبب الخوف من الحمل .

ولاستئصال المبيضين ، أو إخصاء الأنثى ، آثار شبيهة بآثار إخصاء الذكور . أما عند الحيوانات الدنيا ، فإن مثل هذه العملية تؤدى إلى القضاء التام على السلوك الجنسى عند الأنثى ، وبذلك لا يصبح الذكر يشعر بالانجذاب نحوها . وأما الشمبانزى والقردة الأخرى فإنها قد تظل تكشف عن الاستجابية الجنسية بعد استئصال المبيضين ، ولو أن الدورة المعتادة للاستجابية تزول وينخفض المنسوب العام للنشاط الجنسى . على حين أن النسوة اللائى يستأصل المبيضان عندهن أو يصلن إلى سن اليأس لا يفقدن بالضرورة رغبتهن الجنسية . بل الواقع أن كثيراً منهن يبدين ازدياداً فى الميل الجنسى ، ولعل ذلك يرجع إلى زوال الخوف من الحمل . وهنا أيضا نجد أن صدور الهورمونات من المبيضين ليس أمراً جوهرياً بالنسبة للسلوك الجنسى عند أنثى الإنسان .

الميكانيزمات العصبية

رأينا أن الهورمونات لا تفسر لنا كل جوانب السلوك الجنسى ، وخصوصاً فى مستويات التطور الحيوانية العالية . وبذلك يصبح الجهاز العصبى هو الأساس الفسيولوجى الأولى للدافع الجنسى . وفيما يلى ندرس أربعة ميكانيزمات عصبية فى النشاط الجنسى ــ المستقبلات الحسية ، والمنعكسات الخاصة بالنخاع الشوكى ، والتكاملات الخاصة بالهيبوثلاموس ، وتأثيرات لحاء المخ .

أما التنبيه اللمسى للمستقبلات الحسية فله دور هام فى الاستثارة الجنسية والتفريغ الجنسى . ذلك أن كل المستقبلات اللمسية المنتشرة على الجسم تسهم ، إلى درجة ما ، فى الاستثارة الشبقية . ولكن التركيز الرئيسى للمستقبلات الحسية المتصلة بالاستثارة الجنسية نجده فى الأعضاء التناسلية ذاتها ــ أو على التحديد فى حَشَفة القضيب عند رأس عضو الذكر ، وفى البظر عند الأنثى .

وقد ثبت أن عدداً من المنعكسات الجنسية الأساسية يتحكم فيها الجزء

الأسفل من الحبل الشوكى وذلك بالنسبة للحيوانات من الضفادع وحتى الإنسان . وهذه المنعكسات (أو الأفعال المنعكسة) الشوكية تتضمن الانتصاب ، وحركات الحوض . والقذف عند الذكور . وقد لوحظ هذا عند جرحى الحروب من المقاتلين الذين أصيبوا بالشلل بعد أن انقطع حبلهم الشوكى فى المعارك . فإن هؤلاء المشلولين لا يستطيعون أن يحركوا بإرادتهم أطرافهم السفلى أو أن يستقبلوا الإحساسات من هذه الأطراف . ولكننا مع ذلك وجدنا حالة لأحد المشلولين نجح فى أن يلقح زوجته مما يبين أن المنعكسات الشوكية تكفى للحد الأدنى من النشاط الجنسى .

وأما بالنسبة للكائن العضوى السليم ، فإن الاستثارة الجنسية والسلوك الجنسى تقوم على تنظيمها بصورة أساسية منطقة من مناطق الهيبوثلاموس . وهنا نرى مرة ثانية أهمية هذه المنطقة الدقيقة من الدماغ بالنسبة لظاهرة الدافعية ، إذ وجدنا أن تدمير هذه المنطقة من الهيبوثلاموس يقضى على السلوك الجنسى تماماً . والظاهر أن هذه المنطقة الجنسية من الهيبوثلاموس تقوم على تنظيم العناصر التى هى أكثر تعقيداً من السلوك الجنسى . ومثال ذلك أن إناث القطط التى يصاب الهيبوثلاموس عندها بالأذى لا يظهر عليها السلوك المعتاد الخاص بالربوض فى خضوع عند ما تكون مع الذكور ، بالرغم من أنها تحتفظ بالأفعال المنعكسة التناسلية .

والواقع أن الدور الذى تلعبه المستقبلات اللمسية ، والمنعكسات الشوكية ، والتنظيم الصادر عن الهيبوثلاموس لا يختلف فيما بين فصائل الحيوان المختلفة بما فى ذلك الإنسان . أعنى أن هذه الأجزاء من الجهاز العصبى تتشابه إلى حد كبير فيما بين فصائل الثدييات المختلفة . كما أن التغير الكبير المصاحب للتطور يتركز فى حجم وأهمية لحاء أو قشرة المخ ، وهو تلك الطبقة الخارجية من المخ ، التى نجدها عند الإنسان مفرطة الكبر والتعقيد ، والتى يظن عادة أنها تتوسط وظائف تقدير المثيرات البيئية ، والتعلم ، والتفكير ، وتنظيم أوجه النشاط المعقد . والآن نسأل عن دور اللحاء فى السلوك الجنسى ؟

قام فرانك بيتش Frank Beach بدراسة أثر انتزاع مقادير متفاوتة من نسيج اللحاء على السلوك الجنسى . وقد وصل به الأمر إلى حد أنه استأصل خمسة وسبعين بالمائة من اللحاء عند ذكور الفئران ليلاحظ سلوكها من بعد ذلك . وقد تبين له أن عدد مرات الجماع خلال الاختبار أخذ يتناقص كلما ازدادت نسبة ما يستأصل من لحاء المخ ، حتى إذا بلغ ما يستأصل نسبة الثلثين وجدنا السلوك الجنسى يختفى تماماً . ولم تكن لأية منطقة معينة من اللحاء دورا أساسيا ، حيث أن اللحاء يعمل كوحدة كلية واحدة . وأما دور اللحاء فى السلوك الجنسى عند أنثى الفأر فلا نجده بارزاً بهذه الدرجة .

ولعل أهم نتائج دراسات استئصال اللحاء هو ما ثبت من أن اللحاء تزداد أهميته كلما صعدنا فى سلم التطور . أما القدرة الجنسية عند الثدييات الدنيا فلا تضطرب اضطرابا كبيراً بتدمير اللحاء . وأما الحيوانات العليا ، وربما الإنسان أيضاً ، فإنها تضطرب اضطراباً خطيراً بتدمير اللحاء . وقد سبق أن بينا أن المنعكسات التناسلية تتوقف على الحبل الشوكى الأسفل ، وأن القيام بالأنماط الجنسية الأكثر تعقيداً يتوقف على ميكانيزمات الهيبوثلاموس . وتدمير اللحاء إنما يؤدى إلى تعطيل استثارة المنبهات البيئية للميل الجنسى . وهذا يوحى بأن المنبهات البيئية تلعب دوراً أكبر فى السلوك الجنسى عند المراتب التطورية العليا .

المنبهات البيئية

يذهب فرانك بيتش إلى أن الصورة الشائعة للوعل المستثار جنسياً والذى يتجول فى أنحاء الغابة بحثاً عن قرين ليست صورة دقيقة تماماً . ذلك أن الوعل لا يكون مستثاراً على الدوام . وهو حين يلقى واحدة متقبلة من الإناث فى جولاته العادية ، قد يستثار وقد لا يستثار . ولو أن مثل هذا الحيوان كانت أحواله الهورمونية طيبة لوجدنا أن العامل الجوهرى فى الاستثارة الجنسية عنده هو المنبه البيئى ــ منظر الأنثى المتقبلة وصوتها ورائحتها .

على أن المنبهات الملائمة تتفاوت إلى حد كبير من فصيلة حيوانية إلى فصيلة

أخرى . فقد يكون التنبيه فى بعض الأحيان كيميائياً ـ وذلك كما هو الحال عند ذكور حشرة العُثّة المعروفة باسم Gypsy moth والتى يجتذبها إفراز تفرزه الإناث . كما أن ذكور حشرة صرّار الليل Cricket تصدر صوت القرقعة المعروف ، بينما تصدر ذكور الضفادع صوتها المعهود ، وذلك لاجتذاب الإناث الخصيبات . وأما السمك فإنه يصدر عنه نمط محدد من التودد أو المغازلة ، والذكور منه يجذبها لون الإناث ذات البيض وشكلها . والطيور تجد عندها عدة أنماط للمغازلة بما فى ذلك حركات التبختر عند الطاووس ، وهجوم الحمام . وقد كان أحد هذه الأنماط مصدرًا للإلهام بالنسبة للإنسان ـ وهذا النمط هو ما نجده عند بعض الطيور المعينة من مُناقرة وهديل. أما المناقرة فإنه التفاف المنقار حول المنقار وتحريك الرأس إلى أعلى وإلى أسفل ، مع ما يصاحب ذلك من أصوات الهديل .

وهناك اتجاهات تطورية هامة فى طبيعة المنبهات البيئية التى تكون مثيرة جنسياً. أما الحيوانات الدنيا فإنه يستثيرها عدد محدود جداً وخاص من المنبهات البيئية ـ من قبيل بعض الروائح المعينة بالنسبة للأرانب ، وأما الثدييات الأعلى فإنها تعتمد على منبهات أكثر تعقيداً وتنوعاً . وأما الإنسان فإنه أشد الجميع تعقيداً ، كما تبدو عنده الآثار القوية للتعلم بالنسبة لاستجابته للمثيرات الجنسية .

على أن التعلم الحضارى يلعب عند الإنسان دوراً حيوياً فى تحديد تلك الجوانب الجذابة من شخصية القرين . وقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية أن تصورات الناس عن جمال الأنثى تتفاوت تفاوتاً ملحوظاً من مجتمع إلى مجتمع . ففى بعض المجتمعات نجد أن المرأة النحيلة المستديرة استدارة خفيفة تعد أكثر النساء جاذبية ، بينما نجد فى بعض المجتمعات الأخرى أن المرأة المكتنزة ، بل ومفرطة السمنة ، هى صاحبة المكانة فى عالم الجمال . وأما جاذبية الذكور فإنها تعتمد فى أكثر الأحيان على الجوانب الاجتماعية أكبر منها على الخصائص الجسمية ، وذلك من قبيل مركز الرجل ومنزلته فى الجماعة .

كذلك يتأثر السلوك الجنسى عند الإنسان بنتاج آخر من نتاج التعلم

الاجتماعى ـ وهو المنبهات الرمزية التى تم استدخالها من قبيل الأفكار والخيالات والأحلام . فإن هذه تتأثر بالمنبهات البيئية وتبدأ فيما يبدو من خبرات التعلم السابقة . كما أن الخيالات التى تثيرها الكتب ، وأفلام السينما ، وتنافس الأقران فى التفاخر بمغامراتهم ، كل ذلك قد يساعد على انشغال الولد المراهق بالأمور الجنسية .

العلاقات فيما بين العوامل

فكيف تترابط كل هذه العوامل ؟ أما المنبهات المختلفة الصادرة عن القرين الجنسى ـ من مناظر وروائح ولمس ـ فإنها تعمل من خلال ميكانيزمات الدماغ لتستثير الاهتمام الجنسى . وأما اللحاء فيفترض أنه مصدر التأثيرات المتعلمة ، على حين أن الاستجابات الفطرية تحدث بدرجة أكبر عن طريق توسط الهيبوثلاموس وبعض الأجزاء من الجهاز الطرفى ، بينما يتوقف أداء العمل الجنسى على تنبيه المناطق التناسلية ومنعكسات النخاع الشوكى . وأما الهورمونات فلعلها تعمل عن طريق زيادة حساسية ميكانيزمات الدماغ والأفعال المنعكسة التناسلية .

والأهمية النسبية لهذه العوامل تتوقف على موضع الحيوان من سلم التطور . فكلما صعدنا فى سلّم التطور ، وجدنا تأثير الهورمونات يتناقص ، بينما تزداد أهمية الاستجابات المتعلمة التى تحدث عن طريق توسط لحاء المخ . وأما المنبهات البيئية فإنها وإن كانت ذات أهمية بالنسبة لكل الفصائل الحيوانية ، إلا أننا نجد أن السلوك الجنسى عند حيوانات المستويات الأدنى تسيطر عليه طائفة محدودة من المنبهات الفطرية النمطية ، بينما نجد أن المنبهات الفعالة عند المستويات العليا أكثر تنوعاً وأكثر تأثراً بالتعلم . وعند الإنسان نجد أن الدافع الجنسى ظاهرة نفسية بالدرجة الأولى ، ظاهرة أكثر اعتمادها على التعلم الحضارى وعلى العمليات الداخلية الرمزية لا على أنماط فطرية وهورمونية من التنبيه .

الجنس بوصفه دافعاً

رأينا فيما سبق أن السلوك الجنسى يتوقف على مزيج من العوامل الداخلية والخارجية . ورأينا كذلك أن هناك تغيرات هامة طرأت على طبيعة السلوك الجنسى أثناء التطور . والسؤال الذى يواجهنا الآن هو إن كان الجنس يؤدى وظيفة الدافع . ومعنى هذا أننا نسأل إن كان الجنس يوجه السلوك ويسيطر عليه ، ويؤدى إلى تعلم جديد . ويعمل بوصفه نوعاً من الإثابة . كذلك يهمنا أن نعرف إن كان الجنس يتبع نمط الحرمان والإشباع . ذلك النمط الذى شاهدناه فى دوافع الاتزان الحيوى .

الجنس بوصفه إثابة للتعلم

لعل القارئ يذكر من المناقشة التى عقدناها فى فصل المدخل أحد التعريفات الأساسية للدافع من أنه يوجه السلوك نحو هدف معين ، وأن مثل هذا الهدف يعمل بوصفه إثابة على تعلم استجابات جديدة . وقد توسع جيروم كيجان Jerome Kagan فى دراسة التعلم من أجل الحصول على إثابة جنسية . ذلك أنه درب الفئران الذكور على الجرى فى متاهة على شكل حرف T تؤدى ذراعاها إلى منطقتين واسعتين مستديرتين تكون فى إحداهما واحدة من إناث الفئران المتقبلة أو المتأهبة للتلقيح . وقد تمكن الفئران من تعلم الاستدارة الصحيحة عندما كانت الإثابة عبارة عن الجماع حتى الاكتمال . وهذا يبين أن الخبرة الجنسية الكاملة يمكن أن تعمل بوصفها إثابة للتعلم الجديد .

ثم مضى كيجان ليدرس الآثار الإثابية للسلوك الجنسى الجزئى أو الذى لا يكتمل ولا يصل إلى نهايته . وهنا نجد من اللازم شرح النمط الجنسى عند الفئران الذكور . ذلك أن الذكر يجذبه جرى الغزل الذى تقوم به الأنثى المتقبلة ، فيعتليها ، ويدخل قضيبه فيها . وإدخال القضيب يسمى **إيلاجاً** ، ولكن الإيلاج الواحد لا يكون فى العادة كافياً للوصول إلى **القذف**. وإنما نجد الذكر يتراجع بعد

كل إيلاج ثم يستأنف المطاردة . وبعد أن يتكرر الإيلاج عدة مرات ، يتحقق القذف ويتوقف السلوك الجنسى. وقد درس كيجان تأثير مجرد الاعتلاء أو الإيلاج. ذلك أنه سمح لذكور الفئران باعتلاء الإناث بعد أن تعرضت الإناث لعملية جراحية لسد المهبل حتى تستحيل عملية الإيلاج . وفى حالات أخرى كان يسمح للفئران بالإيلاج ولا يسمح لها بالوصول إلى القذف . وتبين أن للاعتلاء والإيلاج على التأكيد قيمة إثابية ولكنها قيمة إثابية أدنى بكثير من قيمة الاعتلاء والإيلاج اللذين يؤديان إلى القذف . بل لقد كان هناك بعض الدليل على أن تكرار الإيلاج من غير الوصول إلى التفريغ الجنسى يؤدى إلى الإحباط ويسبب تجنب الأنثى . وهناك ما يقابل هذا بوضوح عند الإنسان .

وقد قام هافيلوك إليس Havelock Ellis بوصف الوقائع أثناء الاتصال الجنسى من أنها تتضمن مرحلة إعداد يتصاعد التوتر خلالها ، ثم ذروة يتم فيها التخلص من التوتر أو تفريغه ، ثم مرحلة هدوء وسلام تسمى بمرحلة الإبلال الجنسى . ولو أنه لم يتم الوصول إلى الذروة والقذف ، لاستمر التوتر وامتنع حدوث الإبلال الجنسى . مثال ذلك أن الزوجة ، إذا هِى لم تصل إلى هِزّة الجماع فإنه قد تنشأ لديها مشاعر عدائية نحو زوجها وتصبح العلاقة الجنسية منفرة كريهة بالنسبة لها . وقد يؤدى هذا الموقف إلى مشكلات زوجية وإلى الطلاق فى الحضارة الأمريكية .

على أن مناقشتنا حتى الآن من شأنها أن تثير السؤال حول طبيعة الإثابة الجنسية . من الممكن أن يكون الغرض من الانغماس فى العلاقات الجنسية ومزاولتها هو التكاثر . لكن يبدو أن هذا أمر بعيد الاحتمال بالنسبة للحيوانات ، وإن كانت هناك حالات يمكن أن يصدق هذا فيها بالنسبة للإنسان . ذلك أن المثقفين من بنى الإنسان قد يقررون فى بعض الأحيان أن ينجبوا الأطفال ، ثم ينظمون نشاطهم الجنسى على وفق النصائح الطبية . ولكن هذا الاتجاه ، مع ذلك ، قلما يكون الأساس فى كل السلوك الجنسى . خذ لذلك مثلاً ، أن سكان جزر التروبرياند Trobriand وهم قوم بدائيون فى جنوب غرب

المحيط الهادى ، يجهلون العلاقة بين النشاط الجنسى والتكاثر. ومع ذلك ، تجد أن لهم حياتهم الجنسية الكاملة تماماً والتى قد تكون أكثر تحرراً من حياة الأمريكيين .

لعل الأقرب إلى الاحتمال أن تناسل النوع نتيجة بيولوجية جانبية لنوع من النشاط ينغمس فيه الناس سعياً وراء إثابة شخصية مباشرة إلى حد أكبر . ومن الجوانب البارزة فى هذه الإثابة الحصول على لذة حسية شديدة. بل الواقع أن السلوك الجنسى يمكن أن يعد واحداً من أحسن الأمثلة على صحة نظريات اللذة فى تفسير الدافعية . ومع ذلك ، فإن بعض جوانب اللذة يبدو أنها تتوقف على خفض التوتر . فقد بينت دراسات كيجان أن الاعتلاء والإيلاج ـ اللذين يفترض أنهما يزيدان التوتر ـ يكونان مثيبين فى أول الأمر ، ولكنهما قد يصبحان منفرين إذا لم يعقب ذلك خفض للتوتر . وهذه النتيجة التى كشفت عنها الدراسة توحى ، إلى حد ما ، بأن لذة الاستثارة هى عبارة عن توقع لخفض التوتر . ولذلك ، فإن كل ما يمكننا قوله ، فى الوقت الراهن ، هو أن هناك عنصرين اثنين فى الإثابة الجنسية : استثارة مسببة للذة من ناحية ، وخفض التوتر من الناحية الأخرى .

الحرمان الجنسى والشبع الجنسى

لقد كان يُظن فى وقت ما أن هناك تشابهاً بين دوافع الاتزان الحيوى والدوافع الجنسية من جهة أن الدافعية الجنسية تزداد وتقوى كلما طال الزمن بعد انقضاء آخر خبرة جنسية . كان يُظن أن هذه الفترة الزمنية المنقضية تمثل فترة حرمان شبيهة بفترة الحرمان من الطعام . وكان يُظن أن إفرازات الغدد الجنسية تتراكم بمرور الزمن لتحدث نوعاً من التوتر البدنى شبيهاً بالتوتر الناتج عن الحاجة إلى التخلص من الفضلات . ولكن هذه الأفكار تبين مع ذلك بطلانها بعد أن ثبت لدينا أن الدافع الجنسى يبقى ويستمر من بعد أن تستأصل الغدد الجنسية عند الذكور فى عملية الإخصاء . قد يكون صحيحاً أن الهورمونات الجنسية ينخفض مستواها عقب الجماع ، ثم يرتفع مرة أخرى بمرور الزمن ، ولكن هذا الأمر لم يتمكن أحد حتى الآن من إقامة البينة عليه ، ولا نظن أن ذلك ممكن .

ومع ذلك ، فإن هناك ما يشبه تزايد الدافع الجنسى بمرور الزمن عند الذكور من الحيوانات ، وهو أمر لابد من تفسيره . ولعل أوضح تصوير لهذه الظاهرة نجده فى دراسة قام بها مارفن شفارتز Marvin Schwartz . بدأ شفارتز بأن أباح للذكور من الفئران الجماع بغير حدود حتى أصبحت الذكور عاجزة عن الاستجابة للأنثى المتقبلة . ثم أخذ يقيس من بعد ذلك استجابتها الجنسية بعد انقضاء يوم ، وثلاثة أيام ، وستة أيام . وبينت نتائج الدراسة أن عدد الفئران التى تصل إلى القذف خلال فترة الاختبار ، يتزايد بمرور الزمن .

والواقع أن نتائج هذه الدراسة يمكن النظر إليها على نحوين . أما بالنسبة لبعض المشتغلين بعلم النفس ، فإن نتائج شفارتز تبين ببساطة أن الحرمان الجنسى يؤدى إلى تزايد النشاط الجنسى . وأما الآخرون فيرون أن النتائج توضح لنا التخلص من التعب الجنسى . وهم يقولون إنه لا وجود هناك لحاجة أيضية تتزايد أو تتراكم بالحرمان ، ثم يقوم النشاط الجنسى بإشباعها . فالنشاط الجنسى عند هذا الفريق الأخير يؤدى إلى إنهاك لابد للحيوان من أن يتخلص منه . والواقع أنه ليس بالأمر السهل اليسير أن نميز فيما بين الحرمان من ناحية والتخلص من الإنهاك من ناحية أخرى .

وأما فرانك بيتش ، فإنه يميز بين اثنين من الميكانيزمات المختلفة تماماً فى الاستثارة الجنسية والشبع الجنسى . أما الأولى فيسميها **استثارة جنسية عامة** ، ويسيطر عليها إلى حد كبير تلك المنبهات البيئية والنفسية التى تحدثنا عنها من قبل. وأما الثانية فيسميها **استثارة تناسلية محددة** . وقد أقام بيتش هذا التمييز بين النوعين على أساس من الملاحظات التجريبية للسلوك الجنسى عند ذكور الفئران. فأما الاستثارة الجنسية العامة عند الذكور فتتألف من انجذابه إلى جرى الغزل الصادر عن الأنثى المتقبلة ــ وهو عبارة عن اندفاع معين ، ثم توقف ، مع هز عجيب للأذنين . وأما الاستثارة التناسلية المحددة فإنها تحدث بالإيلاج المتتابع الذى يؤدى إلى القذف وفى التجارب التى نحن بصددها ، تبين أنه كان للقذف آثار متعارضة على الاستثارة الجنسية العامة والاستثارة التناسلية . ذلك أنه بعد مرات القذف

المتتابعة ، تبين أن عدد مرات الإيلاج اللازمة للقذف من بعد ذلك يتناقص ويقل . أو بعبارة أخرى ، أن القذف يسهل الاستثارة الجنسية . ولكن القذف المتتابع يؤدى ، من ناحية أخرى ، إلى تناقص الاستثارة الجنسية العامة الناشئة عن جرى الغزل الصادر عن الأنثى . بمعنى أن الأنثى تصبح فى حاجة إلى وقت أطول فأطول من أجل أن تستثير اهتمام الذكر وميله مرة ثانية . وهذا يبين لنا كيف أن مسألة الحرمان والشبع فى مجال الجنس مسألة معقدة فعلاً . فإن للقذف آثاراً متعارضة بالنسبة للنوعين من الآليات .

وجملة القول أنه يتبين لنا أن الجنس وإن كان لا يفيد فى سد حاجة متعلقة بالاتزان الحيوى ، إلا أنه يعمل بوصفه دافعاً نفسياً . كما أن الإثابة الجنسية يمكن أن تثير الدافع إلى التعلم والأداء . وأن الدافع الجنسى يتزايد بمرور الزمن من بعد الخبرة الجنسية السابقة ، ولكنه ليس من الواضح إن كانت هذه عملية حرمان شبيهة بدوافع الاتزان الحيوى ، أم أنها عملية تخلص من آثار الإنهاك . ثم إن الموقف يزداد تعقيداً بسبب الآثار المتعارضة التى يحدثها الاتصال الجنسى على ميكانيزم الاستثارة العامة وميكانيزم الاستثارة التناسلية . والظاهر أنه ، على الرغم من أن الإثابات الجنسية تثير الدافع إلى السلوك ، إلا أنها تعتمد على أنواع من ميكانيزمات الاستثارة والشبع تختلف عن الأنواع التى نجدها فى دوافع الاتزان الحيوى .

النمو الجنسى

كان من أشد الجوانب المزعجة فى نظرية فرويد التى تؤكد على أهمية الدوافع الجنسية إصراره على أن الجنس لا يبزغ فجأة بحلول البلوغ وإنما هو موجود منذ الميلاد ، ثم يتعرض للنضج التدريجى . وعلى الرغم من أن بعض الدوائر رأت فى دعوى فرويد هذه هدماً للقول ببراءة الطفولة ، إلا أن فرويد كان يرد على ذلك بأنه لم يزد فيما قاله عن أمور تعرفها مربيات الأطفال منذ قرون . وإذا كان الخلاف لا يزال قائماً حول آراء فرويد الخاصة عن النضج الجنسى ، فإن مجموع الأدلة العلمية التى توفرت خلال هذا القرن تؤيد مزاعمه الرئيسية .

النضج الجنسى

هناك عدد لا بأس به من البراهين على وجود قدر ما من الاستجابية الشبقية منذ الميلاد ، وأنها تتعرض بعد ذلك للنمو بشكل تدريجى . فقد لوحظ أن الأطفال لديهم استجابية تناسلية خلال السنة الأولى من الحياة . وأنهم قد ينغمسون فى نوع ما من الاستمناء . ومع نمو الأطفال يزداد اهتمامهم بالأمور الجنسية ويزداد نشاطهم الجنسى . كما أن للأطفال فضولاً هائلاً عن الأمور الجنسية ، وهم ، كما تقرر جماعة كبيرة من الأمهات ، يسألون كثيراً من الأسئلة . فيما بين سن الثانية والخامسة ، عن اختلاف التشريح وتفاوته فيما بين الجنسين ، وعن مصدر الأطفال أو منشئهم . بل لقد قرر نصف مجموعة أمهات الأطفال فى سن ما قبل المدرسة أن أطفالهم ينغمسون فى لعب جنسى أو تناول الأعضاء التناسلية بأيديهم . كما تبين أن أطفال المدارس لديهم شغف بالتطلع إلى الآخرين وبعرض أنفسهم على الآخرين ، وهو أمر يثير فزع الوالدين فى أكثر الأحيان .

كذلك لوحظ أن الأطفال فى بعض الحضارات البدائية ، وفى الفترة من سن السادسة إلى سن الثانية عشرة ، ينغمسون صراحة فى اللعب الجنسى والاستمناء . كما أن صغار الأولاد والبنات يلعبون لعبة تقوم على تمثيل الجماع . وأن المعلومات عن الأمور الجنسية يقدمها الآباء فى هذه المجتمعات للأطفال الذين يسمح لهم بمشاهدة العلاقات الجنسية بين الوالدين . وفى بعض المجتمعات يبنى الأطفال الذين هم أكبر سناً أكواخا صغيرة يتظاهرون بالزواج فيها . وبصفة عامة نقول إن اللعب الجنسى عند الأطفال نجده جزئياً غير ناضج .

ثم تحل التغيرات الفسيولوجية عند البلوغ فتبدأ فترة هامة من الاهتمام أو الشغف الجنسى المتزايد . وتقول دراسة كينزى أن أغلب المراهقين فى المجتمع الأمريكى يزاولون الاستمناء والملاطفة التى تكون بين الجنسين ، وأن ميول الجنسية المثلية العابرة قد تستثار فى هذه الفترة أيضاً . وفى فترة المراهقة المتأخرة ينغمس عدد ملحوظ فى جماع ما قبل الزواج . وعلى الرغم من أن الأرقام التى يقدمها

تقرير كينزى قد لا تكون دقيقة ، إلا أن الشك قليل فى أن الدافع الجنسى يكون شديداً فى هذه الحقبة من الحياة ، وأن العرف الحضارى كثيراً ماتقع مخالفته .

والمراهقة ، عند الذكور ، هى الفترة الزمنية التى تكون فيها الرغبات الجنسية على أشدها ، ثم يبدأ الدافع الجنسى فى الهبوط التدريجى من منتصف العقد الثانى من الحياة وحتى الشيخوخة . وأما النساء فلا يبدو عليهن ازدياد ملحوظ ولا الهبوط بنفس الصورة . بل إنه لا يلاحظ تناقص فى الدافع الجنسى عند الإناث حتى فى سن انقطاع الطمث (سن اليأس) بعدما تتوقف القدرة على الإنجاب .

وقد درس هارى ف . هارلو Harry F. Harlow نمو السلوك الجنسى عند القردة ، فتبين له وجود سلسلة من مراحل النمو ـ مرحلة الرضاعة ، مرحلة ما قبل المراهقة ، ومرحلة المراهقة والنضج . فأما مرحلة الرضاعة ، وهى تمتد عند القردة طوال السنة الأولى من الحياة ، فتتألف من اتخاذ القردة الصغار أوضاعاً جنسية غير ناضجة وغير صحيحة . وأول ما يظهر وينمو هو النمط الجنسى عند الذكر وهو يتألف من تهديدات عدوانية ، واعتلاءات غير ناضجة ، ومن لعب من نوع إظهار العنف والمصارعة . ثم يظهر النمط الجنسى عند الأنثى ويكون أكثر سلبية ، وهو يتضمن كذلك تمشيط شعر الذكر . على أن الذكور لا يظهر عليهم مطلقاً النمط الأنثوى ، بينما نجد أن الإناث يتخذن ، خلال السنة الأولى من الحياة ، وضع الذكر بالنسبة لبعض الإناث الأخريات .

وأما فترة ما قبل المراهقة فتبدأ فى السنة الثانية وتستمر حتى السنة الثالثة بالنسبة للإناث ، وحتى السنة الرابعة بالنسبة للذكور . وهذه الفترة تتألف من اتخاذ الأوضاع والاعتلاء بصورة أكثر ملاءمة ودقة ، وإن كانت غير مكتملة جنسياً . ويظل نمط الذكر إيجابياً فعالاً ، كما يظل نمط الأنثى سلبياً . وقد لوحظ كثيراً مزاولة الذكور من القردة للاستمناء فى هذه الفترة ، وكذلك مزاولة النساء له ولكن بدرجة أقل . كما أن الذكور قد يزاولون كذلك بعض نشاط الجنسية المثلية .

وأما نـمط المراهقة والرشد عند القردة فإنه استمرار لسلوك ما قبل المراهقة . إلا أن النـمط يصبح بعد ذلك مكتملاً بحيث إنه قد يؤدى إلى الحمل . فالذكر فعال إيجابى والأنثى سلبية ، ولكن كلاً منهما قد يبدأ العلاقة الجنسية بأن يتخذ الوضع المناسب المتصل بذلك . كما أن استمناء الذكور وسلوك الجنسية المثلية قد يستمران ويدومان ، وخصوصاً فى الظروف التى يمتنع فيها النشاط الجنسى الغيرى .

من أجل ذلك نجد أن المشاهدات التى أجريت على كل من الإنسان والحيوانات توحى بأن الدافع الجنسى ينـمو تدريجياً منذ المراحل المبكرة من قبل أن يزدهر ويتفتح عند البلوغ . وإن هناك بعض الأسباب التى تحمل على الاعتقاد بأن تلك الصور غير الناضجة من النشاط الجنسى ـ مثل اللعب من نوع إظهار العنف والمصارعة ، ومطاردة الأولاد للبنات فى الطريق إلى المدرسة ، والتقبيل والعناق ـ تلعب دوراً هاماً فى النـمو الجنسى الناضج . وأما استمناء المراهقة ونشاط الجنسية المثلية فيظهر أنهما يرجعان جزئياً إلى الفضول ، كما أنهما يعملان جزئياً كنوعين من الأنشطة البديلة . كما أنه لا دليل على صحة الفكرة القديـمة القائلة بأن تلك الصور المختلفة من السلوك الجنسى فى الطفولة والمراهقة تحدث أضراراً جسمية أو عقلية .

المراحل الجنسية النفسية عند فرويد

لم يحظ تفسير فرويد للنضج الجنسى بالقبول الواسع الذى ظفرت به فكرته العامة . فأولاً ، نجد أن فرويد عرَّف الظاهرة الجنسية بشكل عام جداً ، حتى إنه كاد يسوى بينها وبين اللذة الحسية . وقد رأى أن هناك عدة مناطق شبقية فى الجسم بخلاف الأعضاء التناسلية ـ وهى الفم والشرج بصفة خاصة ، ثم كل سطح الجسم كذلك . وافترض فرويد أن الحساسية الجنسية ، أو على حد تعبير التحليل النفسى ، الطاقة الليبيدية ، تكون مسيطرة فى منطقة الفم خلال السنة الأولى من الحياة بصفة تقريبية (المرحلة الفمية) ، ثم تتمركز لمدة عامين تقريباً

حول الشرج (المرحلة الشرجية) . ثم تتمركز بالتالى من سن الثالثة حتى السادسة تقريباً حول الأعضاء التناسلية (المرحلة القضيبية) . ومن المفروض أن تعقب ذلك مرحلة للخمول الجنسى من السابعة حتى الحادية عشرة (مرحلة الكمون) ، وهى تؤدى إلى اهتمام الفرد فى فترة ما قبل المراهقة بالأفراد من نفس جنسه (مرحلة الجنسية المثلية) . وأخيراً تنضج الجنسية الكاملة خلال المراهقة (المرحلة التناسلية) .

وقد رأى فرويد أن الدافع الجنسى عند الفرد الراشد الناضج يتضمن عناصر من كل مراحل النمو السابقة ، وأنه يتعدل بما يعرض للفرد من خبرات فى كل واحدة من هذه المراحل السابقة . والخلاف الأساسى حول نظرية فرويد لا يتركز فى أن الدافع الجنسى يجتاز مراحل للنضج ، وإنما يتركز فى أن هذه التغيرات الجنسية والخبرات الجنسية هى الأساس الأولى لشخصية الفرد وخُلُقه فى مرحلة الرشد . ولذلك فقد افترض فرويد وجود خُلُق فمى ، وخُلُق شرجى ، وخلق قضيبى ، كما افترض وجود إعلاء للدوافع الجنسية عن طريق الفن ، والدين ، ونحو ذلك . وسوف نتعرض لهذه القضية فى فصل من فصول الكتاب التالية . وأما الآن فإنه لا يعنينا إلا التحدث عن تطور النمو الجنسى فى ذاته .

أما الجنسية الفمية فتشير بالدرجة الأولى إلى الامتصاص اللذيذ عند الرضع . وقد رأى فرويد أن الامتصاص له وظيفة أخرى ، بالإضافة إلى خفض الجوع ، هى أنه مصدر اللذة الحسية ، ولذلك تكون له صفة شبقية بحسب تعريفه . وقد لوحظ على الأطفال الرضع كثيراً أنهم يزاولون الامتصاص الزائد عن نطاق التغذية ، وأن هذا السلوك يظهر عليهم من بعد الميلاد بقليل ، ويظل يتزايد ويتزايد حتى الشهر السابع من العمر تقريباً . ولو أن لذة الامتصاص تعرضت للإحباط عند التغذية باستخدام زجاجة إرضاع لها ثقب كبير فى حلمتها بحيث لا يتطلب الأمر للحصول على كمية مناسبة من الطعام إلا قليلاً من الامتصاص ، لترتب على ذلك أن يزداد الامتصاص الخارج عن نطاق التغذية .

وأما المرحلة الثانية فى تطور النمو النفسى الجنسى عند فرويد . وهى المرحلة الشرجية ، فتصل إلى ذروتها عند بلوغ السنة الثانية من العمر تقريباً . ويقول فرويد إن وظائف الإخراج لذيذة بالنسبة للطفل ، وأنها لذلك . وبحسب تعريفه الواسع العريض ، جنسية . والصحيح أن الطفل لا نجد لديه ذلك الفزع من هذه الأمور الذى يكون لدى الراشد ، وأن الطفل قد يجد هذه الأمور ممتعة ولذيذة . ثم يتبع ذلك عراك وصراع شديد بين الأبوين والطفل حول التدريب على ضبط الإخراج . أما الطفل فإنه يثور ويؤكد استقلاله ، ولكن الأبوين ينتصران فى النهاية دائماً ، وبذلك يتخلى الطفل عن مصدر للذة الجنسية .

وأما المرحلة القضيبية فإنها . بحسب آراء فرويد . تتميز بالاهتمام بالأعضاء التناسلية . والواقع أننا شهدنا أن نشاط الاستمناء قد يبدأ فى سن مبكرة جدا . ولكنه يبدو من الصحيح أن هذا النشاط يصبح أكثر بروزاً واتضاحاً عند سن الثالثة تقريباً . على أن الشىء الهام فى المرحلة القضيبية أنه يفترض أنها تتضمن انجذابات جنسية نحو أعضاء آخرين فى أسرة الطفل ، وأنها تؤدى بسبب ذلك إلى بعض المشاكل . فإن لكل مجتمع عدداً من النواهى أو التحريمات القوية ضد غشيان المحارم .

وقد ذهب فرويد إلى أن هناك تياراً خفياً من الانجذاب الجنسى والغيرة فى داخل الأسرة عندما أصدر فكرته الشهيرة عن عقدة أوديب . وأوديب Oedipus . كما يذكر القارئ ، كان ملكاً فى المسرحية الإغريقية القديمة التى كتبها سوفوكليس Sophocles ، قتل والده وتزوج من أمه على غير دراية منه بذلك . وفى نظرية فرويد ، فيما يتعلق بالذكور ، تنشأ عند الصبى الصغير بعض المشاعر الجنسية نحو الشخص الذى قام على رعاية كل حاجاته الأخرى طوال حياته ـ أى الأم . ثم يشتد هذا الشعور خلال المرحلة القضيبية من سن الثالثة حتى السابعة . ولكن هذه المشاعر نحو المحارم تضع الطفل فى موقف تنافس مع الوالد . فتنمو عنده مشاعر عدائية تنافسية نحو الوالد ، وإن كان يشعر كذلك بالخشية من انتقام منافسه منه . ويتخذ خوفه صورة محددة من الخصاء ـ قلق

الخصاء . وفى الأحوال السوية يفترض أن يتمكن الولد من حل عقدة أوديب بأن يتخلى عن ذلك العنصر الجنسى فى مشاعره نحو أمه ، وبأن يتوحَّد مع والده ، وبأن يصبح فى آخر الأمر رئيساً لأسرته هو .

كذلك يفترض وجود موقف مشابه لعقدة أوديب عند الذكور فى حالة البنات الصغار . فإنه تنمو عند البنت مشاعر جنسية نحو والدها وتتنافس مع أمها . ولكن هناك أمرين يزيدان من تعقيد الموقف فى حالة البنت الصغيرة . أما الأمر الأول ، فهو أن أول موضوع للحب عندها يكون الأم ، شأنها فى ذلك شأن الولد ، ولكنها تختلف عن الولد فى أنها تعود فيتغير مشاعر الحب عندها إلى شخص آخر هو الأب . وأما الثانى فإنها ، بعد اكتشاف الفروق التشريحية فيما بين الجنسين ، قد يصبح لديها نوع خاص من قلق الخصاء ، شعور بأنها قد تعرضت من قبل للخصاء. وهذا قد يتحول إلى نوع من الدافع يعرف بحسد القضيب ، وفيه تظل البنت تتنافس تنافساً دؤوباً مع الأولاد فى أنواع الأنشطة التى يختص بها الذكور . ثم إن الفتاة تتمكن ، فى حالة السواء ، من حل هذا كله عن طريق كبت المشاعر الجنسية نحو والدها ، والتوحّد مع أمها ، وأن يكون لها طفلها الخاص من زوجها هى .

وقد افترض فرويد أنه عقب مرحلة الكمون الجنسى ـ من سن السابعة حتى سن الحادية عشرة تقريباً ـ وهى المرحلة التى يكون النشاط الجنسى فيها هادئاً ، تأتى مرحلة من تطور النمو النفسى الجنسى تتضمن الانجذاب إلى أفراد من نفس الجنس . ولقد شاهدنا سلوك الجنسية المثلية عند حيوانات الشمبانزى وغيرها من القردة فى فترة ما قبل البلوغ ، عند الذكور فى الأغلب ، وعند الإناث فى بعض الأحيان . وكذلك نجد على المستوى الإنسانى أن عدداً من الأفراد يبدأون الاتصال الجنسى بواحد من نفس الجنس خلال فترة ما قبل البلوغ أو فى أوائل فترة المراهقة .

ثم رأى فرويد أن الصور المختلفة من جنسية الطفولة تتكامل وتترابط خلال

المراهقة والرشد وتتحول إلى الجنسية الناضجة . وبذلك تصبح النتيجة النهائية تلك المرحلة التى سماها فرويد بالمرحلة التناسلية ، وفيها تنشأ وتتدعم الجنسية الغيرية فى سياق علاقة حب تتضمن الاحترام المتبادل . ومن الطريف أن نلاحظ أنه على الرغم من أن فرويد يتصوره الناس واحداً من أصحاب الثورات الجنسية . إلا أن أعلى مراحل تطور النمو عنده هى تلك المرحلة الناضجة المستقرة من العلاقات الزوجية التى تعرف كل المجتمعات تقريباً لها قدرها وقيمتها .

عوامل حضارية فى النمو الجنسى النفسى

عارض عدد من أصحاب النظريات والباحثين نظرية فرويد فى النمو الجنسى النفسى. ولعل من أوجه النقد الرئيسية التى وجهت إلى فرويد أنه جعل لفظ « الجنسى » يتضمن أشياء كثيرة أو أكثر مما ينبغى . كما أن من ذلك أيضاً أن فرويد افترض أن هذه المراحل المتعددة المختلفة تتفتح وفقاً لجدول زمنى داخلى بيولوجى لا يكاد يتأثر بفعل البيئة . والنقاد يقولون : إن فرويد لم يأخذ التعلم الحضارى بعين الاعتبار . وعلى القارئ أن يتذكر هنا أن الشواهد الفسيولوجية توحى بأن الحياة الجنسية عند الإنسان تسيطر عليها العوامل الحضارية إلى حد كبير .

والواقع ، أولاً ، أن ما أسماه فرويد بالمرحلة الفمية هو فى حقيقة الأمر أكثر تعقيداً مما قد نفهمه من مفهوم اللذة الفمية . ذلك أن السنة الأولى من الحياة ، كما سنرى فى فصل من الفصول التالية ، ذات أهمية بالغة فى نشأة روابط الود والحب . فالامتصاص إنما هو جزء واحد فقط من نمط معقد يتضمن التشبث ، والتأرجح ، وغير ذلك من السلوك غير الفمى. أضف إلى ذلك أن الامتصاص الخارج عن نطاق التغذية والذى يراه بعضهم دليلاً على الاستمتاع أو التلذذ الفمى ، قد تبين أنه يتم تعلمه إلى حد كبير عن طريق الربط بين الامتصاص والتغذى . وقد أوضح عدد من أصحاب التحليل النفسى المحدثين ، من أمثال إريك هـ . إريكسون ، أن هذه الفترة الأولى من الحياة هى مدخل الطفل إلى العلاقات الاجتماعية ، وأن التعلم الهام فى هذه الفترة هو فى أن يثق الفرد أو لا يثق

بغيره من أفراد الإنسان . والواقع أن اللذة الفمية ، ولو أنه قد يكون لها صلة بما ينشأ من بعد ذلك من علاقات جنسية ، تبدو ثانوية بالنسبة لتكوين العلاقة الاجتماعية مع الأم .

كذلك ثارت مشكلة مماثلة بالنسبة للمرحلة الشرجية عند فرويد ، وهى : هل ما يبديه الطفل من اهتمام بأمور التدريب على ضبط الإخراج ذو طبيعة جنسية بالمعنى المعقول ؟ إن من المتفق عليه الآن بين المختصين بالنمو من علماء النفس أن التدريب على ضبط الإخراج لا يزيد عن أن يكون جانباً واحداً من عملية التطبيع الاجتماعى العام للطفل فى هذه السن . كما أن هناك جوانب أخرى كثيرة من سلوك الطفل تتعرض للضبط الاجتماعى ـ مثل ارتداء الملابس ، والتوجه إلى الفراش فى الموعد المناسب ، وكف العدوان نحو إخوته ، وهكذا . والطفل قد يثور على هذا التقييد لسلوكه الذى يسعى به إلى تحصيل اللذة ، كما أن ميدان القتال الرئيسى قد يقع أو لا يقع فى مجال التدريب على ضبط الإخراج .

على أن أكثر المفاهيم أهمية فى نظرية فرويد عن تطور النمو النفسى الجنسى هو عقدة أوديب . فأما بالنسبة للصبى ، فإن الخوف من الأب يقال عنه إنه امتداد للغيرة الجنسية حول الأم . وقد حرص عالم الأنثروبولوجيا ب . ك . مالينوفسكى B.K. Malinowske على أن يختبر صحة الزعم بأن عقدة أوديب أمر عالمى وذلك فى دراسة للسكان البدائيين لجزر تروبرياند Trobriand . وقد تبين له وجود عداء قليل لدى الصبى فى تروبرياند نحو والده وعداء كثير نحو الخال . وظهر أن خال الولد يتحمل المسئولية الأولى فى تأديب الولد وتربيته وميراثه ، على حين أن الأب كان يلعب دور الرفيق اللطيف المحبوب . فى هذه الحالة لا يمكن للغيرة الجنسية أن تفسر لنا العداء نحو السلطة . وفى فيينا إبان العصر الفيكتورى حيث عاش فرويد ، كان الأب ، بالطبع ، يلعب دور المؤدب الصارم ودور المنافس على الأم . ولذلك يبدو ، على أساس من دراسات مالينوفسكى ، أن دور الأب فى التأديب هو الذى يستثير معظم العداء عند الولد .

ومن المتفق عليه بصفة عامة أن فرويد كان يصف شيئاً له أهميته الكبرى عندما تحدث عن فكرة عقدة أوديب . قد لا تكون عقدة أوديب جزءاً فطرياً من دافع الجنس الآخذ فى النضج ، وإنما قد تشير عقدة أوديب إلى موقف أسرى مشترك عام نجد فيه للغيرة حول الحب والمودة، وللاهتمام بالسيطرة، ولبعض العوامل الأخرى ، من الأهمية ما للمشاعر نحو المحارم . ثم تتوقف الصورة الخاصة التى تتخذها عقدة أوديب على شخصية الوالدين وما يكون بينهما من تفاعل أكثر من توقفها على النضج البيولوجى للطفل .

وقد تعرضت آراء فرويد عن عقدة أوديب عند الأنثى وما تضمنته من تأكيد لحسد القضيب لمعارضة شديدة من جانب أعضاء الجناح الحضارى من مدرسة التحليل النفسى . فإن هؤلاء المحدثين من أصحاب التحليل النفسى ، وإن كانوا يتفقون مع فرويد على أهمية العلاقات الأسرية ، يرون أن فرويد نظر إلى الأمور الجنسية نظرة ضيقة بيولوجية . وهم يقولون إن هذه الأمور تكتسب معناها من خلال القيم الحضارية المرتبطة بها. ولذلك، فإنهم يرون فى حالة حسد القضيب عند الأنثى أن الغيرة الأساسية لا تتركز حول الملامح الخاصة بتشريح الذكر، وإنما تتركز الغيرة حول الدور الاجتماعى الممتاز والحرية الزائدة التى تخلع على الذكور فى حضارتنا . والواقع أن الذكور من الأطفال يحظون بمزايا أكبر من الإناث فى مجتمعات كثيرة . صحيح أن الغيرة الناشئة عن هذا التفضيل قد تتخذ صورة رمزية فى الأحلام والتخيلات هى حسد القضيب[١] ، ولكن الدافع الأساسى هنا هو الرغبة فى المساواة الاجتماعية .

ثم إن التطور التدريجى والمستمر للسلوك الجنسى عند الناس فى المجتمعات البدائية وعند القردة يتعارض تعارضاً حاداً مع مفهوم فرويد عن فترة كمون لدى البشر تمتد فيما بين سن السابعة والحادية عشرة ولا يتوقع خلالها أن يظهر شىء من السلوك الجنسى الصريح . فقد بينت مشاهداتنا للحضارات المنتشرة فى العالم أنه

---

(١) أى تمنى البنت أن يكون لها قضيب مثل الولد (المترجم) .

ليست هناك فترة كمون عالمية . ومع ذلك نقول : لعل مشاهدات فرويد عن مجتمعه فى فيينا كانت صحيحة . وأنه يمكن تعميمها لتنسحب على مجتمعنا نفسه . وحتى بهذه الصورة ، يبدو أن الأمر يكون نتيجة للكفّ الحضارى بدلاً من أن يكون تراجعاً بيولوجياً فى النضج .

كما أن السلوك الجنسى لدى الراشد والتوافق الزوجى أمور تتأثر وتتعدل إلى درجة كبيرة بما يسود فى المجتمع من اتجاهات نحو الجنس . أما فى العصر الفيكتورى فقد كان الدافع الجنسى يلقى شيئاً كبيراً من الكفّ . وأما فى بولينيزيا Polynesia فإن الاتجاهات نحو الجنس تتصف بالتحرر والتساهل . وأما فى المجتمع الأمريكى الآن . فإن هناك قدراً كبيراً من الخلط ، والحيرة ، والتناقض الوجدانى . ثم إن هذه الاتجاهات الحضارية تنعكس فى مشكلات النمو الجنسى وفى مشكلات التوافق الجنسى فى الزواج . كما أن من المهم أن نتذكر ونتنبه إلى أن العلاقات الزوجية هى ببساطة جزء واحد فقط من العلاقات المعقدة . وأن كثيراً من مشكلات التوافق بين الزوجين والتى تتصل بالطمأنينة الانفعالية ، والسيطرة والخضوع ، والاتكالية والاستقلالية ، والطموح المهنى إنما تمتد لتصل إلى الجبهة الجنسية . وبسبب أن العلاقات الجنسية أمور خاصة حميمة ، نجد أن أعمق مشاعرنا نحو أنفسنا قد تأثرت كذلك ــ من قبيل إحساسنا بالكفاءة ، ورغبتنا فى أن نكون على مقربة من أحد الناس الآخرين ، وقدرتنا على مواجهة النضج .

الفصل الخامس

الدوافع الانفعاليّة

تخيل رجلاً يتجه بسيارته فى شارع رئيسى ثم يجد سيارة أخرى تخرج مندفعة من شارع فرعى إلى شارعه . الرجل يركبه الفزع ، ويشعر بإحساس غريب فى قاع معدته ، وعضلاته يصيبها التوتر. ويكون التأثير على سلوكه دراميا ـ فهو يطأ بقدمه على دواسة الفرملة بشدة ، ويدير عجلة القيادة بسرعة . ويسمع صوت صرير للفرامل يتبعه صوت مؤلم لتكسر الزجاج وتثنى جوانب السيارة . ويجلس الرجل لحظة ثم يتحول الخوف إلى غضب ـ فإن هذا المعتوه قد أخافه ، وأفسد برنامج عمله ، وألحق الضرر بسيارته . ثم يكون للغضب آثاره الدرامية كذلك على سلوكه ـ فهو يصر بأسنانه ويتقدم نحو السيارة الأخرى . ثم يتبين له ، عندئذ ، أن السائق الآخر قد أصيب ، وأن الدم يسيل على وجهه . ويشعر الرجل برغبة فى القيء، وبشيء من التأثم ، وبشعور قوى من التعاطف . ومرة أخرى يعبأ السلوك ـ وإذا بالرجل يقدم الإسعافات الأولية ويستدعى رجال الإسعاف .

نحن هنا نتحدث عن الانفعالات ـ وهى أرجاع أو استجابات قوية لها تأثير الدوافع على السلوك . فالانفعالات عبارة عن استجابات فسيولوجية وسيكولوجية تؤثر فى الإدراك ، وفى التعلم ، وفى الأداء . على أن مجال الانفعال يزداد تعقيداً بسبب انعدام الاتفاق العام على تعريف أساسى لطبيعة المفهوم . من ذلك ، مثلاً، أن بعض الناس يذهبون إلى أن الانفعال عملية مختلفة كل الاختلاف عن الدافع . كما يذهب فريق آخر إلى أن الانفعالات هى ببساطة صنف من أصناف الدوافع . كذلك يذهب بعض الناس فى تعريف الانفعال من وجهة ذاتية ـ أى فى ضوء المشاعر التى يخبرها الفرد . بينما يرى البعض الآخر أن الانفعالات عبارة

عن تغيرات بدنية . ومعظم هؤلاء الناس يؤكدون **الاستجابة** بوصفها العنصر الرئيسى فى الانفعال ، وإن كان هناك آخرون يركزون على **إدراك** الموقف الذى يستثير الانفعال أو **آثار** الانفعال على السلوك العادى . وفى الفكر الفلسفى حتى القرن التاسع عشر ظلت مشكلة العلاقة بين الانفعالات التى يخبرها المرء خبرة شعورية وبين التغيرات البدنية مشكلة بسيطة يسيرة نسبياً : فالمرء يخبر الانفعال خبرة شعورية ، والتغيرات البدنية تلزم عن ذلك وتتبعه .

وقد كان وليام جيمس William James ، ذلك السيكولوجى المشهور من جامعة هارفارد ، أول من تشكك فى هذا الرأى الكلاسيكى وتحداه حقاً . فكتب فى سنة ١٨٨٤ أن الخبرة الشعورية تعقب الاستجابات البدنية التى هى بمثابة استجابات تلقائية لمثيرات بيئية . وأكثر أجزاء الاستجابة البدنية أهمية نجدها فى الأعضاء الحشوية الداخلية ـ القلب ، المعدة ، الأوعية الدموية ، وما إلى ذلك . وهكذا نجد أن رؤية الدب تؤدى إلى اضطراب داخلى ندركه فيما بعد على أنه الخوف . وبدلاً من التفسير الكلاسيكى الذى يكون من النوع «أنا أشهد الدب ، أنا أشعر بالخوف ، جسمى يتهيأ للهرب ،» يقدم لنا جيمس الترتيب التالى «أنا أشهد الدب ، جسمى يتهيأ للهرب ، أنا أشعر بالخوف .» وقد أدرك جيمس ، بالطبع ، أن التعلم متضمن فى تحديد أنواع المثيرات التى تؤدى إلى الاستجابات الحشوية ، ولكن **الشعور** لا يأتى من إدراك المثير الخطير وإنما يأتى من الاستجابات الحشوية التى تعقب ذلك . ولما كان أحد العلماء الدانمركيين واسمه كارل لانج Carl lange قد تقدم بنظرية مشابهة فى نفس الوقت تقريباً ، فقد عرفت الفكرة الأساسية بأنها نظرية جيمس ـ لانج فى الانفعالات .

وقد تعرضت نظرية جيمس ـ لانج منذ أول ظهورها تقريباً للنقد . من ذلك ، مثلاً ، أن والتر كانون لخص الأدلة التى تبين أن الحيوانات التجريبية والمرضى الذين تعرضوا لبتر الاتصالات العصبية لديهم بين الأحشاء والدماغ ظلوا يظهرون الغضب والخوف وغير ذلك من الاستجابات الانفعالية .

ثم إن هناك طريقة أخرى فى التصدى لهذه المشكلة وهى أن نحدث التغيرات الحشوية المرتبطة بالانفعال ، من غير الاعتماد على المثيرات الخارجية ، ثم ننظر إن كان الشخص سيخبر الانفعال . ومن الممكن تحقيق هذا الهدف عن طريق حقن الفرد ببعض المواد الكيميائية المعينة التى تحدث التغيرات الجسمية . مثال ذلك أن الأدرينالين يزيد من معدلات دق القلب ويغير بعض العمليات الجسمية الأخرى . ولابد لنظرية جيمس ـ لانج من أن تتنبأ هنا بأن الأشخاص سوف يخبرون الانفعالات مع حدوث هذه التغيرات الجسمية . لكننا نجد أن الأفراد لا يخبرون انفعالاً حقيقاً ، وإنما نجدهم يقررون أنهم يشعرون « وكأنهم » « خائفون » أو « وكأنهم » يتوقعون حادثة سارة طيبة .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن العقاقير التى تعمل عملها فى الأحشاء تؤثر فى استجابة الشخص للمثيرات الخارجية. وقد حدث فى إحدى الدراسات التى قام بها ستانلى شاختر Stanley Schachter وأعوانه ، أن تم حقن الأفراد إما بمادة الأدرينالين ، أو بمادة مهدئة ، أو بمادة ضابطة هى محلول الملح الذى لاتأثير له على الأحشاء . ثم عرض على الأفراد فيلم سينمائى فكاهى. أما مجموعة الأدرينالين من الأفراد فقد وجدوا فى الفيلم كثيراً من المتعة ، ثم تلاهم فى الترتيب مجموعة المحلول الملحى ، بينما كانت مجموعة المهدئ أقل المجموعات حظاً من الاستمتاع . هذه التجارب توحى بأن الاستجابات الحشوية لها أهميتها فى إعداد الفرد للاستجابة للمثير الانفعالى ، ولكنها ليست كافية بذاتها لإحداث الانفعال الكامل .

وقد اقترح « والتر كانون » ، أحد كبار النقاد لنظرية «جميس ـ لانج» ، تفسيراً بديلاً للانفعال والتغيرات الجسمية . وذلك هو النظرية «الثلاموسية» فى الانفعال ، التى ذهب إليها كذلك « بارد » P. Bard حتى أصبحت تعرف باسم نظرية «كانون ـ بارد». ومؤدى هذه النظرية أن التنبيهات الحسية الواردة تمر من خلال الثلاموس الذى يقع عند قاع الدماغ قريباً من الهيبوثلاموس . وبحسب فكرة «كانون ـ بارد» تتلقى الرسائل الواردة ، أثناء عبورها فى الثلاموس ، نوعاً

من المسحة الانفعالية . والمعتاد أن يقوم اللحاء بكف الاستجابة الانفعالية فى الثلاموس . فإذا لم يتحقق ذلك ، انطلق الانفعال . ويتألف هذا من تفريغ للثلاموس يصعد إلى اللحاء ــ وهذا التفريغ الصاعد هو الذى يؤدى إلى الخبرة الانفعالية الشعورية ــ ويهبط كذلك إلى الجسم فى نفس الوقت ــ وهذا هو مايؤدى إلى التعبير الحشوى والعضلى. والواقع أن نظرية كانون ــ بارد ، كما سنرى فيما بعد ، وعلى بساطتها الزائدة ، قريبة من التفكير النيوروفسيولوجى الراهن عن الانفعالات وعن أهمية ميكاينزمات الدماغ .

وعلى الرغم من أننا لم نتوصل بعد إلى حل نهائى لمشكلة العلاقة بين الخبرة الانفعالية والتعبير الجسمى ، إلا أن هناك فرضاً هو الأقرب إلى المعقول تقدمت به ماجدة آرنولد Magda Arnold . تقول هذه الباحثة ، أولاً ، إن معظم الاهتمام كان ينصب على النصف الثانى من التسلسل ــ الانفعال ، التعبير ، الفعل ــ ولم يكن ينصب بدرجة كافية على الإدراك الأولى . ثم هى توضح كذلك أنه ليس كل إدراك يؤدى إلى استجابة انفعالية ، بحيث يصبح من الضرورى وجود ميكانيزم ما لتقدير الموقف . ولذلك ، فإنها تقترح التسلسل الآتى :

١ ــ الإدراك ــ الاستقبال المحايد للمثيرات الخارجية (ومثال ذلك أن يرى قائد الطائرة من نوع قاذفات القنابل طائرة مقاتلة تقترب منه) .
٢ ــ التقدير ــ الحكم على المثير بوصفه طيباً نافعاً أو سئياً ضاراً (كأن يتبين القائد أن الطائرة من طائرات الأعداء التى يمكنها أن تسقطه) .
٣ ــ الانفعال ــ ميل يشعر به المرء تجاه المثيرات التى حكم عليها بأنها طيبة أو بالابتعاد عن تلك المثيرات التى حكم عليها بالسوء (فيشعر القائد بالميل إلى الهرب) .
٤ ــ التعبير ــ نمط من التغيرات الفسيولوجية المنظمة نحو الاقتراب أو الانسجاب ، ويختلف من انفعال إلى انفعال ، وهو **يصاحب** مايشعر به الفرد من ميل (تتزايد دقات قلب القائد ، تتوتر عضلاته ، يتحول فمه إلى الجفاف ، يتصبب منه العرق البارد ، ويشعر وكأن هناك فراشات فى معدته) .

٥ ــ الفعل ــ قد يحدث الاقتراب أو الانسحاب إذا لم يتدخل انفعال آخر (فإن القائد قد لا يتمكن من الهرب فعلاً بسبب إحساس بالواجب . أو لرغبة عنده فى أن يحرز المجد ، وهكذا) .

ثم إن من الملامح الهامة فى نظرية آرنولد أن الانفعال يتم تعريفه بمعنى الدافعية . ذلك أن الميل إلى الاقتراب أو الانسحاب هو صورة أساسية من الجانب التوجهى للدافع ، على حين أن التغيرات الحشوية تعد بمثابة إعداد للجسم حتى يتمكن من تنفيذ السلوك . والواقع أن هذا قريب جدا من نظرية مالدوجال McDougall . التى ذكرناها فى الفصل الأول ، والذى يقال فيها إن كل دافع يصحبه انفعال خاص متميز .

وسوف يكون مبدؤنا فى هذا الفصل أن نعد الانفعالات بمثابة صنف خاص من الدوافع . وعلى الرغم من أن الأحوال الداخلية المهيئة ، مثل اختلال الاتزان الحيوى ، لها أهميتها فى الدوافع من قبيل الجوع ، إلا أن الانفعالات يرجع أكبر الفضل فى استثارتها إلى المثيرات الخارجية المتعلمة منها وغير المتعلمة . كما أن التغيرات البدنية فى الانفعال نجدها أكثر درامية منها فى الحالات الدافعية الأخرى . لكن هذا التسلسل له صفة الدافعية بسبب ما يترتب عليه آخر الأمر من آثار فى السلوك . وهكذا نجد أن الانفعال عبارة عن دافع تمت استثارته من الخارج وتصاحبه تغيرات بدنية هامة .

على أن خطتنا فى هذا الفصل هى أن نتابع بصفة عامة مخطط آرنولد للتسلسل الانفعالى. ولذلك، فإننا سوف نناقش، فى أول الأمر، الاستثارة الانفعالية، وهذا يغطى ما سمته آرنولد بالإدراك والتقدير. ثم نناقش بعد ذلك الاستجابة الانفعالية ذاتها ــ الخبرة الشعورية ، التغيرات البدنية ، وميكانيزمات الدماغ المتضمنة فى الانفعال. وأخيراً، ندرس آثار الانفعال على السلوك، مع الاهتمام الخاص بالمقارنة بين الانفعال والدافع . وسوف نذكر خلال هذا العرض عدداً كبيراً من الانفعالات وبصورة مختصرة ، ولكننا سنتخذ من اثنين من الانفعالات

أمثلة رئيسية بالنسبة لنا ـ وهذان هما الخوف والغضب . ونحن لن نفعل ذلك لأن هذين الانفعالين أكثر أهمية من سائر الانفعالات الأخرى ، ولكن لأننا نعلم عنهما أكثر مما نعلم عن الانفعالات الأخرى .

استثارة الانفعال

تستثار الانفعالات بواسطة طائفة متنوعة من أنماط المثيرات الفطرية ، والمثيرات المتعلمة ، والمواقف الاجتماعية . وبصفة عامة يمكن القول بأن أهمية التعليم والتسهيل الاجتماعى تزداد كلما ارتقينا فى سلم التطور الحيوانى ـ أى أن جانب التقدير فى العملية يكون على درجة أكبر من الأهمية ، وذلك على حد قول آرنولد وبحسب مصطلحاتها . وهكذا نجد أن أنواعاً معينة من الحيوانات وحيدة الخلية تسبح بصفة تلقائية لتبتعد عن ضوء الشمس القوى ، على حين أن الإنسان قد يستثير خوفه أن تمر برأسه فكرة عابرة مؤداها أن الحياة ، فى آخر الأمر ، لا معنى لها . وفيما يلى نتدبر المثيرات الفطرية ، والتعلم ، والتهديد الشخصى فى الاستثارة الانفعالية .

الاستثارة الفطرية للانفعالات

يمكن استثارة انفعال الخوف عند الحيوان أو الطفل أو الإنسان الراشد بواسطة أى مثير شديد مفاجئ . وفى التجارب المختبرية كثيراً مايستخدم الألم الناتج عن التنبيه الكهربى لاستثارة الخوف . وقد وجد جون واطسن أن الطفل يظهر عليه الخوف ، منذ الولادة ، كلما أحدثنا ضجة شديدة مفاجئة إلى جواره . كذلك يحدث الخوف لدى الطفل إن نحن انتزعنا غطاءه عنه بشدة أو أسقطناه فجأة لمسافة قصيرة. أى أن الذى يحدث الخوف هو الطبيعة المفاجئة أو غير المتوقعة للمثير ، بالإضافة إلى شدته .

ثم إن المثيرات التى تبعث على الخوف تتزايد فى العدد والتعقيد كلما ارتقينا فى سلم التطور . وقد قدم لنا دونالد هب Donald Hebb الأمثلة الآتية : الفأر

يداخله الخوف بسبب الألم ، والضجة الشديدة المفاجئة . والفقدان المفاجئ للسند ، والملابسات تلغريبة . أما الكلب فإن هذه الأشياء تخيفه أيضاً ، ولكن بالإضافة إلى ذلك ، فإنه يخاف من البالونة إذا نحن جعلنا ننفخها ونزيد من حجمها . ومن رؤية سيدة فى ملابس غريبة غير مألوفة ، وكذلك من الشخص الغريب . وأما القردة والنسانيس فإنه يخيفها عدد كبير من الأشياء ــ الجزرة ذات الشكل الغريب غير المألوف ، قطعة البسكويت التى تحتوى على دودة بها ، الدمية ، وهكذا . ثم إن كل حيوانات الشمبانزى التى بلغت مرحلة الرشد تقريباً تفزع إذا هى شاهدت نموذجا بالحجم الطبيعى من الصلصال لرأس شمبانزى ــ بل إن بعضهم يصرخ ويجرى ليختبئ عن الأنظار . أى أن الغرابة تبدو وكأنها العامل المسئول .

وهنا يقول «هب» إنه على الرغم من أن هذه المخاوف ليست متعلمة بالمعنى المألوف ، إلا أنها تتطلب بعض التعلم كنوع من الخلفية . مثال ذلك أن الرضع من الشمبانزى يبدو عليها عند الشهر الرابع من العمر الخوف الشديد من الغرباء ، وأن الرضع من بنى الإنسان يبدو عليهم الأمر نفسه فيما بين الشهر السادس والثامن من العمر . وهم يكونون عند الوصول إلى هذه السن قد تعلموا أو عرفوا الراشدين المألوفين بحيث يصبح الراشد الجديد غير المألوف على الإطلاق غريباً عليهم .

والغضب نوع آخر من الانفعال الذى يمكن أن تحدثه مواقف معينة على أساس فطرى . كما أن مشاعر الغضب كثيراً ما ترتبط مع العدوان ــ نوبات الغيظ ، المقاتلة أو العراك ، وتوجيه السباب والشتائم . لكن الأمرين ليسا شيئاً واحداً ، كما سنرى فيما بعد ، وقد يحدث كل منهما بصفة مستقلة عن الآخر . ومع ذلك ، فقد تمت مشاهدة العدوان الغاضب على عدد كبير من الفصائل الحيوانية بوصفه استجابة لبعض المواقف المحدودة .

ثم إن العدوان ــ بحسب بعض أصحاب النظريات وأبرزهم سيجموند فرويد Sigmund Freud ــ غريزة تبحث دائماً عن مخرج فى الميل إلى التدمير ، والحرب ، والسادية . والحياة الاجتماعية ، بحسب وجهة النظر الكئيبة

هذه ، تكون مفعمة حتماً بالكراهية والعداء . ولعل أفضل ما يمكن أن نتطلع إليه ، فى المدنية والتحضر ، هو أن نجد مخارج غير ضارة لهذا العدوان الفطرى – مباريات رياضية للحصول على الألقاب ، التنافس التجارى ، أو الصراع حول القوة السياسية .

وما على الإنسان إلا أن يفكر فى تاريخ البشرية حتى يقتنع بسيادة السلوك العدوانى والتدميرى وانتشاره . ولكن مجرد انتشار وسيادة نوع من السلوك لا يمكن أن ينهض دليلاً على أنه غريزى ، بمعنى أنه ميل يسعى دائماً إلى الظهور والتفريغ . وقد يكون العدوان الغاضب استجابة غريزية لبعض المواقف المحددة ، ولكنه لا يستثار إلا عندما تعرض المواقف نفسها .

وقد أظهرت مشاهدة الحيوانات الدنيا أنها لا تتقاتل أو تقتتل إلا فى ظروف معينة محددة – لتهرب من الأسر ، أو لتتجنب الألم ، أو لتستأثر بالإناث ، أو لتدافع عن صغارها ، أو لتحتفظ بحقوق الصيد فى منطقة معينة ، أو لتحتفظ لنفسها بمركز ممتاز فى ترتيب السيطرة فى جماعتها . بعبارة أخرى نقول : إن القتال ليس شيئاً يسعى دائماً إلى مخرج ، وإنما هو استجابة قد تحدث عندما يتعرض الحيوان لما يتهدده أو يغضبه أو يحول بينه وبين الحصول على أهداف معينة .

وفى سنة ١٩٣٩ وجدنا جماعة من علماء النفس من جامعة ييل Yale يصوغون فرضاً يربط بين الإحباط والعدوان ، فرضاً يبدو أنه ذو اتصال بما نناقشه هنا من ذلك النوع الغاضب من العدوان . وقد عرفوا الإحباط بأنه إعاقة لسلسلة من السلوك الذى يكون من ورائه دافع ومن أمامه هدف يسعى إليه . والمثال على ذلك هو الطفل الذى يسمع جرس بائع (الآيس كريم) فيتوسل إلى أمه أن تشترى له شيئاً منه . فإذا قررت الأم أن الطفل قد اقترب موعد تناوله للغداء وترفض طلب الطفل ، يصاب الطفل بالإحباط ، وقد يشعر بالغضب ويتحول إلى العدوانية تجاه الأم . والإحباط بحسب هذا الفرض ، كثيراً ما يؤدى إلى العدوان الغاضب ، وبالعكس ، إن العدوان من النوع الغاضب الانفعالى كثيراً ما يمكن إرجاعه إلى الإحباط .

رأينا كيف أن الرضيع لا يخيفه ، فى أول الأمر ، إلا عدد قليل نسبياً من المثيرات . ولكنه ، بعد أن يكبر وينمو ، قد يخاف من عدد أكبر وأكبر من الأشياء . بل إن مخاوف الراشدين تكون أكثر تنوعاً وغرابة . والواقع أن هذه التغيرات ترجع ، إلى حد ما ، إلى عامل النضج . ولكننا ، مع ذلك ، نجد أن ازدياد بعض المخاوف الجديدة واستبعاد بعض المخاوف القديمة يتوقف على التعلم .

وأبسط صور التعلم هو العملية **الشرطية** . والمبدأ الأساسى هنا هو أن المثير ، الذى كان محايداً فى أول الأمر ، إذا اقترن بمثير من شأنه أن يستثير استجابة ما بصورة فطرية ، يصبح مثيراً **شرطياً** يستثير الاستجابة ذاتها . ومثال ذلك أن النغمة الهادئة ليس من شأنها فى العادة أن تستثير الخوف فى حيوانات المختبر . ولكن لنفترض أن النغمة كانت تدق ، ثم تعقبها صدمة كهربية تثير الخوف . ولنفترض ، فضلاً عن ذلك ، أن النغمة والصدمة ارتبطتا بهذا الشكل عدة مرات . عندئذ نجد أن النغمة عندما تدق وحدها ، تؤدى إلى ظهور الخوف على الحيوان .

وقد بين جون واطسن منذ عدة سنوات كيف يتم تعلم الخوف البسيط . ذلك أن معظم الأطفال لا يخشون الجرذان ، ولا الفئران ، ولا الثعابين ، ولا غير ذلك من الحيوانات الأخرى التى يراها الكبار كريهة منفرة . وقد تبين أن « آلبرت Albert » ، وكان طفلاً فى الشهر الحادى عشر من عمره ، لم يظهر الخوف من الفأر الأبيض ، ولكنه يخاف الصوت المرتفع الذى ينتج عن طرق قضيب من الحديد . وكان القضيب يطرق فى كل مرة يمد آلبرت فيها يده ليلمس الفأر الأبيض . وتكررت المزاوجة بين الصوت المرتفع والفأر الأبيض سبع مرات أصبح آلبرت بعدها يفزع من رؤية الفأر فعلاً .

على أن المخاوف يمكن أن تمتد إلى مثيرات مشابهة أخرى عن طريق عملية **التعميم** . ومثال ذلك أن حيوان المختبر الذى أصبح يخاف من نغمة معينة قد يبدو عليه الخوف كذلك من بعض النغمات المختلفة ، حتى وإن كان الخوف لم يسبق له

أن ارتبط ارتباطاً شرطيا بهذه النغمات . وقد بين واطسن أن خوف آلبرت من الفأر الأبيض أصابه التعميم حتى شمل أشياء مشابهة من قبيل الأرنب الأبيض ، والكرة المصنوعة من وبر القطن ، والمعطف المصنوع من الفراء . لكن هذا الخوف لم ينتقل بالتعميم إلى المكعبات الخشبية الخاصة بالطفل ، ولا إلى الأشياء الأخرى التي لا تشبه الفأر الأبيض .

ثم إن المخاوف يمكن القضاء عليها أو استبعادها بواسطة عملية **الانطفاء** . والانطفاء يتحقق بأن يتكرر تقديم النغمة ، أو غير ذلك من المثيرات التي كانت محايدة في الأصل ، من غير أن تصحبها الصدمة . وينتهي الأمر بأن تتوقف النغمة عن إحداث الخوف. لكن الانطفاء، مع ذلك، لا يمكن تحقيقه بصورة مفاجئة . فلو أنك ألقيت بالشخص الخائف إلى حمام السباحة لما أدى ذلك إلا إلى زيادة مخاوفه. ولذلك، فإن أحسن الوسائل للقضاء على المخاوف وإزالتها هو أن تعرض الشخص **تدريجياً** للمثير المخيف وأن تحل محل استجابة الخوف استجابة أخرى أكثر استرخاء . ومثال ذلك أنه عند القضاء على خوف الطفل من الأرنب ، أخذت ماري كوفر جونز Mary Cover Jones تقدم الأرنب إلى الطفل في الطرف الآخر من الغرفة ، بينما هو يتناول طعامه . والأكل لا يتسق مع الخوف وقد يحل محله . ولذلك ، فقد انتهى الأمر بأن تمكنت الباحثة من أن تقرب الأرنب من الطفل من غير أن تستثير خوفه . وأخيراً ، تمكنت من الاستغناء عن الأكل .

ولكننا نجد، مع ذلك، أن معظم مخاوف الأطفال يتم على الأرجح تعلمها بصورة أكثر من ذلك تعقيداً . فإن كثيراً من الأطفال يخشون أشياء لم يحدث من قبل أن كانت لهم بها خبرة مباشرة . وهذا قد يقوم على أساس من **تقليد** الطفل للأبوين في مخاوفهما . وقد أظهرت إحدى الدراسات أن الأطفال يميلون إلى أن تكون لهم نفس المخاوف التي تكون لدى أمهاتهم . وقد كان هذا أوضح ما يمكن بالنسبة للخوف من الكلاب ، والحشرات ، والعواصف .

كذلك قد يتم تعلم المثيرات التي تؤدي إلى الغضب ، ولكن هذا المجال لم يخضع للدراسة المفصلة الواسعة بعد . وإنه لمن الواضح أن الطفل قد يستجيب

بالغضب لا لمجرد أنه منع منعاً بدنياً من تحقيق رغبته فى الخروج من المنزل ، وإنما لمجرد أن أمه قالت «لا» . وقد تكون الاستجابة للتحريم اللفظى أمراً يتم تعلمه عن طريق إجراءات التعلم الشرطى . فإن الأم تردف كلمة «لا» باجتذاب الطفل إلى داخل الدار وإغلاق الباب . وبذلك ينشأ الناس وقد تعلموا أن هناك أنواعاً مختلفة من الإشارات تؤدى إلى الإحباط . وإن فريقاً من الناس لتكون عندهم كل استجابة بخلاف الموافقة المتحمسة بكلمة «نعم» بمثابة إشارة للإحباط – فهم قد سئموا من كثرة ما قيلت لهم كلمة «ربما» .

التهديد الشخصى

المثيرات المادية الفطرية والإشارات المرتبطة بها لا تفسر لنا إلا جانباً فقط من المواقف التى تستثير الانفعالات عند الإنسان . ذلك أن الانفعالات قد يستثيرها كذلك ما يواجه دوافعنا الشخصية والاجتماعية من تهديد . وسوف نناقش هذه الدوافع فى فصول تالية ، ولكننا الآن نكتفى بالقول بأن هذه الدوافع تدور حول تقدير الذات لدينا والأهداف الاجتماعية التى هى مهمة بالنسبة لنا بصفة شخصية .

وأصحاب نظرية التحليل النفسى يشيرون إلى هذا المصدر للاستثارة الانفعالية حين يميزون بين **الخوف والقلق** . أما من الناحية الفسيولوجية فإنهما متشابهان – كلاهما يتضمن تسارع دقات القلب والشعور بالفزع . ولكن الخوف مع ذلك يظن به أنه يتضمن نوعاً محدداً ماديا من التهديد ، على حين أن القلق يكون بمثابة استجابة أكثر عمومية للتهديدات الشخصية . وليسأل القارئ نفسه عما يسبب له القلق بصفة شخصية – الشك فى ذكائك ، أو فى أمانتك ، أو فى قدرتك الجنسية ، أو الهجوم على قيمك الخلقية أو الدينية ، أو اهتزاز ثقتك فى أصدقائك أو من تحب ، أو اهتزاز إيمانك بنفسك بوصفك إنساناً محترماً ؟ ذلك أن الناس تتهددهم أشياء مختلفة ، ولكن مامن أحد منا إلا وتجد له بعض الأمور تتهدده فتستثير قلقه .

وقد تمكن الباحثون و . فوجل W. Vogel و س . رايموند S. Raymond و ر . س . لازاروس R.S. Lazarus من إثبات ذلك بصورة تجريبية . فقد درست

فقد درست مجموعتان من طلاب المدارس الثانوية وأظهرت إحداهما أن لديها دافعاً قوياً نحو التحصيل الأكاديمى ، والثانية أن لديها دافعاً قوياً نحو الصداقة والاجتماعية . ثم عرضت المجموعتان بعدئذ لمواقف كانت تهدد إما السعى الأكاديمى أو التقبل الاجتماعى . فأما المجموعة الأولى فأظهرت أكبر استجابة للعناء والشدة الفسيولوجية عندما كان تحصيلها مهدداً ، وأما المجموعة الثانية فقد كانت استجابتها الفسيولوجية أكبر كثيراً عندما كان تقبلها الاجتماعى مهدداً . أى أن الاستثارة الانفعالية توقفت على وجود مصدر يتهدد شيئاً له أهمية عند الشخص .

ومن التجربة السابقة يتضح أن استجابة الفرد للموقف الذى ينطوى على التهديد تتوقف على شىء من تقدير الشخص لطبيعة التهديد . وهذا من شأنه أن يعيدنا إلى ما قالت به آرنولد من **تقدير** الشخص للمثير عند استثارة الانفعال . وقد اتضحت أهمية هذا التقدير فى تجربة قام بها الباحثون سبايزمان J.C. Speismanl ، ولازاروس R.S. Lazarus ، وموردكوف A.Mordkoff ، ودافيسون L. Davison . وكان هؤلاء الباحثون قد استخدموا مثيراً انفعالياً على درجة كبيرة من القوة ـ هو فيلم سينمائى تعرض فيه احتفالات البلوغ عند قبيلة استرالية بدائية هى الآرنتا Arunta . والاحتفالات تتضمن إجراء عملية جراحية وفيها يجتمع عدة رجال عراة على الصبى ليمسكوه ولتجرى له جراحة قطع القُلْفة [1] الزائدة من القضيب بسكين من الحجر ، من غير استعمال لمخدر وفى ظروف غير صحية . وكانت عدة دراسات قد أظهرت أن هذا الفيلم يستثير انفعالات شديدة قوية .

لقد كان هدف سبايزمان ورفاقه هو أن يحاولوا التأثير فى الاستجابة الانفعالية عن طريق تغيير تقدير الموقف . وقد تم هذا باستخدام عدة تسجيلات صوتية متفاوتة المضمون . أما المجموعة الأولى فكانت تشهد الفيلم مع تسجيل صوتى يؤكد جانب **التعقل** ـ بمعنى أنه كان الإجراء كله يوصف وصفاً غير انفعالى وبطريقة موضوعية وكأن المعلق واحد من المشتغلين بالأنثروبولوجيا يشهد إحدى

---

(١) القُلْفة هى الجلدة الزائدة التى تقطع فى الختان (المترجم) .

العادات البدائية الطريفة . وأما المجموعة الثانية فقد استمعت إلى الفيلم بتسجيل صوتى يؤكد **الإنكار وتكوين رد الفعل** ـ بمعنى أن المعلق كان يؤكد أن العملية غير مؤلمة وأن صبيان هذه القبيلة كانوا يعدون هذه المناسبة مناسبة سارة بهيجة . وأما المجموعة الثالثة فقد استمعت إلى تسجيل **صادم** كان المعلق يبرز فيه الجوانب المؤلمة . وأما المجموعة الأخيرة فكانت تشهد الفيلم صامتاً من غير تسجيل صوتى على الإطلاق . وقد أظهرت النتائج أن المجموعات الأربع اختلفت استجاباتها الفسيولوجية عند الذروة الانفعالية فى الفيلم وهى إجراء الجراحة . فأما مجموعة الصدمة فقد كانت استجابتها أشد المجموعات ، ثم تليها مجموعة الفيلم الصامت ثم تأتى فى آخر الترتيب مجموعتا الحيل الدفاعية (التعقل . والإنكار وتكوين رد الفعل) .

إن العلاج النفسى يستخدم لمساعدة العصابيين والذهانيين . وقد بدأنا أخيراً نفهم العلاج النفسى ، ولكن الأبحاث الحديثة تبين أنه يحدث أفضل التأثير مع الأشخاص الذين يشعرون بأن هناك ما يتهددهم شخصياً ، وتبين أنه ينطوى على خفض لحدة القلق ، وعلى زيادة قدرة الفرد على التفكير بوضوح وعلى حل مشكلاته بصورة أكثر توافقاً . وهنا نجد عملية هامة شبيهة بالانطفاء ـ وهى أن الشخص يتحدث عن الأشياء المحرمة الممنوعة فى جو التسامح الذى يسود العلاج .

على أن التهديد الشخصى قد يتخذ كذلك صورة إحباط لمسعى الفرد أو الجماعة نحو هدف ما ، ولذلك فإنه يحدث الغضب والعدوان . وقد توفرت بعض الأدلة على أن جانباً كبيراً من العدوان الغاضب فى الحياة الاجتماعية ـ من الجرائم ، والثورات ، والعنف فيما بين الأجناس المختلفة ، وما إلى ذلك ـ له صلة بأنواع الإحباط الاقتصادى والاجتماعى والشخصى . والإحباط قد يكون واحداً من العوامل التى تؤدى إلى الحرب . وقد عزا بعض الناس قيام هتلر وماتلا ذلك من إراقة للدماء إلى الشروط المخزية التى تضمنتها اتفاقية الصلح بعد الحرب العالمية الأولى ، وإلى أنواع الإحباط الاقتصادى التى تسببت عن التضخم.والكساد فى

ألمانيا خلال العشرينات والثلاثينات . لكن هذا التفسير تفسير نظرى إلى حد كبير لأن من الصعوبة بمكان أن ندرس ظاهرة معقدة مثل الحروب . ومع ذلك فقد تمكن الباحثون من دراسة العداوات فيما بين الجماعات على مقياس أصغر . وبصورة تجريبية .

فقد درس مظفر شريف Muzafar Sherif وزوجته كارولين شريف Carolyn S. الخلاف بين الجماعات فى معسكر تجريبى للأولاد فى سن الثانية عشرة . وكان الأولاد قد تم تقسيمهم إلى جماعتين ، كل جماعة تتألف من اثنى عشر طفلاً وتعيش مستقلة عن الجماعة الأخرى . وبعد مرور الوقت أصبحت لكل واحد من الجماعتين تماسكها وقيادتها ، مع قيام شىء من التنافس الودى بينهما . ثم نظم لقاء بين المجموعتين من أجل التنافس الرياضى بشكل معين يؤدى إلى أن تخسر إحدى الجماعتين على الدوام . كما نظم الباحثان وسائل أخرى للإحباط . وكانت النتيجة هى العداء المر بين الجماعتين ، بما فى ذلك من صخب هائل فى قاعة الطعام المشتركة ، وإغارة كل جماعة على معسكر الجماعة الأخرى ، وحديث عن «الحرب». وقد بدا أن الإحباط الجمعى ، بما تضمن من فقدان لتقدير الذات ، كان بمثابة العامل الجوهرى الحاسم .

وكذلك حاول الباحثان أن ينتقصا من حدة العداوة فيما بين الجماعتين . وقد ساعد على ذلك أن يتعاونا على مواجهة فريق خارجى فى ميدان الرياضة ، وإن كان هذا مؤدياً بالطبع إلى أن تنتقل العداوة إلى نطاق أكبر ونحو جماعات أخرى . أما أنجع الوسائل التى جربها الباحثان فكانت التعاون فى العمل على مشاريع معينة . واليوم نجد أن كثيراً من المشتغلين بعلم النفس يهتمون اهتماماً شديداً بتخفيف التوترات الدولية وتجنب الحروب النووية . وقد تضمنت اقتراحاتهم زيادة التفاهم العالمى والتعاون بين الدول ، والخفض التدريجى للتسليح مع دعوة الدول الأخرى للقيام بالمثل ، والعمل على الإقلال من الإحباطات الاقتصادية والاجتماعية فى الدول النامية ، تلك الإحباطات التى من شأنها أن تهيئ سكان هذه الدول للعدوان .

والخلاصة أن الاستجابات الانفعالية يمكن أن تستثار بصورة فطرية فى عدة

مواقف ـ مثال ذلك أن الخوف تستثيره بصورة فطرية الضجة المفاجئة، وأن الغضب يستثيره بصورة فطرية الإحباط . ثم إنه يمكن أن يتم تعلم مصادر أخرى للخوف والغضب عن طريق الإشراط أو عن طريق التقليد ، كما يمكن أن تمتد هذه الانفعالات لتشمل مواقف شبيهة عن طريق عملية التعميم . وأما المخاوف وأنواع القلق القديمة فيمكن القضاء عليها واستبعادها بعملية الانطفاء . وعند الإنسان نجد أن التهديد الذى يتعرض له الشخص مصدر هام للاستثارة الانفعالية ـ وهو نوع من الاضطراب يطرأ على تقدير المرء لذاته أو التعطيل للدافعية الاجتماعية . على أن التهديدات الشخصية تتوقف ، إلى درجة كبيرة ، على تقدير الفرد للموقف وعلى ارتباط الأمر بما لدى الفرد من دوافع اجتماعية .

الاستجابة الانفعالية :

ماالذى يحدث فى الشخص عندما يعمل مثير خارجى على استثارة انفعاله؟ هناك ، كما رأينا من قبل ، تغيرات تطرأ على خبرة الفرد الذاتية وعلى جسمه كذلك . وفيما يلى نحاول أولاً أن نصف ونصنف الأنواع المختلفة من الاستجابات الانفعالية ، ونعتمد فى ذلك إلى حد كبير على التقارير الذاتية أو الملاحظات العامة . ثم نصف بعد ذلك التغيرات الجسمية ـ الأنماط السلوكية الظاهرة أولاً ، ثم الوقائع الفسيولوجية الداخلية بعد ذلك . وأخيراً سوف نحاول أن نربط كل هذه التغيرات معاً عندما ندرس ميكانيزمات الدماغ المتضمنة فى كل جوانب الاستجابة الانفعالية .

تصنيف الانفعالات

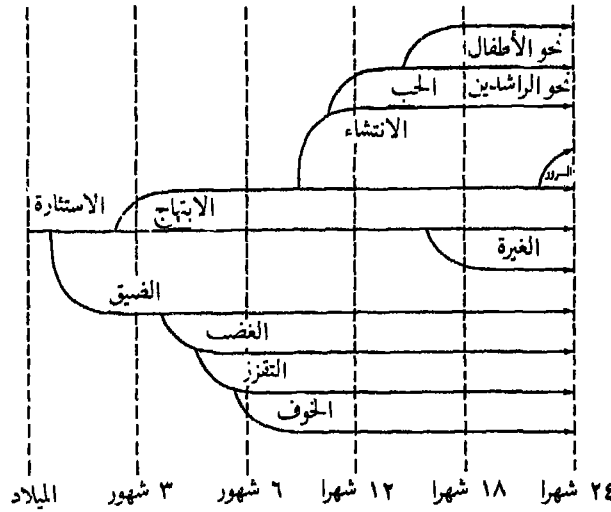
قائمة المشاعر والاستجابات التى ندرجها تحت مصطلح الانفعال تكاد أن تكون قائمة لا متناهية . ولعل بعض ما يرد إلى الذهن بسرعة هو : الخوف ، الغضب ، الفزع ، الرعب ، الألم ، القلق ، الغيرة ، الخجل ، الحرج ، التقزز ، الحزن ، الضيق ، الرفض . على أن هذه تميل إلى أن تكون انفعالات سلبية ،

ولكننا مع ذلك يمكن أن نضيف بعض الانفعالات الإيجابية : الحب ، الفرح ، الاستمتاع ، الحبور ، النشوة ، اللذة ، السعادة . ومن الواضح تماماً أن القائمة يمكن أن تمتد إلى ما لانهاية ، وذلك بحسب مهارة الشخص فى الاستبطان وسعة محصوله اللغوى .

لكن واجب العلم هو أن نتبين إن كان هناك أى نظام فى هذا الامتداد اللانهائى من الخبرة الانفعالية . ترى هل صحيح أنه لا يكون لدينا عند الميلاد من الاستجابات الانفعالية الأساسية إلا عدد قليل يظل ينمو ويمتزج بعضه ببعض على أنحاء مختلفة بفضل التعلم والنضج حتى يتحول إلى كل هذا الامتداد الواسع من الخبرة الانفعالية الذى نعرفه بعد أن نبلغ مرحلة الرشد؟ لقد كانت هذه فكرة العالم السلوكى جون واطسن الذى ذهب إلى أن هناك ثلاثة انفعالات أساسية عند الأطفال ـ الخوف ، والغضب ، والحب . ولكن الدراسات التالية أظهرت بعد ذلك أن الاستجابية الانفعالية عند الولادة تكون أكثر بساطة مما كان واطسن يظن .

فقد أظهرت مشاهداتنا للأطفال فى دور الإيداع ممن تتراوح أعمارهم بين الولادة والعامين أن الرضيع فى أول أمره إما أن يكون مستثاراً أو هادئاً . وأن المثيرات من أى نوع لا تستثير لديه إلا نمط استثارة عام واحد. ولكن هذا النمط العام من الاستثارة يعود فيتمايز ويتباين كلما نما الطفل ، وذلك كما يتضح من الشكل رقم (٥).

فهل تظل هذه الاستجابات الانفعالية تتمايز وتتباين طوال الحياة لنحصل منها بعد ذلك على تلك الطائفة الهائلة من الانفعالات التى نجدها عند الراشدين ؟ الظاهر أن تكرار الانقسام الفرعى لا يمكن أن يفسر لنا أنواع المشاعر المختلطة التى نجدها عند كثير من الراشدين . مثال ذلك أن الشعور بالإثم قد يكون مزيجاً من الفرح والخوف ـ الاستمتاع المحرم . والظاهر هنا أننا بصدد انصهار لعدد من الانفعالات المتباينة المختلفة ، لا بصدد تمايز بسيط .



شكل ٥ ـ التمايز بين الانفعالات خلال فترة النمو المبكرة . وقد أظهرت ملاحظة الرضع وصغار الأطفال أن الانفعالات المحددة تنشأ عن تمايز عدد من الاستجابات الانفعالية العامة .

(نقلا عن K. Bridges. Emotional development in early infancy. Child Dev., 1932, 3, 324-341.)

وقد قدم لنا روبرت بلوتشيك Robert Plutchik نظرية عن المزيج الانفعالى . وفيها يفترض بلوتشيك أن هناك ثمانى استجابات انفعالية أساسية ـ التوقع ، الغضب ، الفرح ، التقبل ، الدهشة ، الخوف ، الأسف ، والتقزز. وهذه بمثابة استجابات جسمية نمطية يمكن أن نجد لها أصولاً أولية فى الحيوانات الأدنى . وهى قد تعرضت للتغير بسبب التطور ، كما أنها قد تتطلب شيئاً من النضج من جانب الفرد . ثم إن الخبرة الانفعالية المركبة التى نجدها عند الراشدين من بنى الإنسان إنما تتحقق بالامتزاج فيما بين هذه الاستجابات الثمانية الأساسية ، وذلك كما يقول بلوتشيك .

كذلك يفترض بلوتشيك أن كل استجابة انفعالية أولية يمكن أن تختلف من حيث الشدة ، وبذلك تنتج عنها درجات مختلفة من الخبرة الانفعالية . فإن

دراستنا للألفاظ التى نستخدمها لوصف الخبرة الانفعالية تبين لنا أن استجابة أساسية مثل الخوف قد تتفاوت فى الشدة من الإشفاق ، مروراً بالخشية والخوف والفزع حتى تنتهى إلى الرعب . وكذلك نجد لدينا الضيق ، والغضب ، والموجدة ، ونجد كذلك الهدوء ، والارتياح ، والاستمتاع ، والسعادة ، والفرح ، والانتشاء . ثم إن امتزاج الانفعالات المختلفة بمستوياتها المختلفة من الشدة يمكن أن يوضح لنا كيف نصل فى آخر الأمر إلى هذه الطائفة الكبيرة المتنوعة من الخبرة الانفعالية. خذ لذلك، مثلاً، أن امتزاج الفرح الشديد بالخوف الطفيف قد يفسر لنا تلك السعادة التى يشوبها التأثم والتى قد نشعر بها عندما ننغمس فى عمليات شراء متتالية متتابعة من الأسواق .

والواقع أن الحكم النهائى على نظرية بلوتشيك ، أو أى نظرية أخرى مماثلة لها ، لن يتيسر حتى تكتمل لدينا المعلومات عن تطور الاستجابات الأصلية الأولية وما يصاحبها من ميكانيزمات الدماغ . وقد آثر فريق آخر من المشتغلين بعلم النفس أن يسلكوا سبيلاً وصفياً فى تصنيف الانفعالات . والمنحى الوصفى يقوم على عزل بعد أساسى واحد أو عدة **أبعاد** أساسية يمكن أن تصنف الاستجابات الانفعالية وفقاً لها . من هذه الأبعاد الأساسية نجد ثلاثة أبعاد أساسية تقدم بها عدة باحثين وهى : الشدة ، سار ــ غير سار ثم الاقتراب ــ التجنب .

أما بعد الشدة فإنه البعد الذى وافق عليه أكثر المشتغلين بعلم النفس . وقد سمى كذلك بمستوى الاستثارة أو التنشيط . وقد رأى دونالد لندزلى Donald Lindsley ، بناء على بعض الوقائع والبيانات الفسيولوجية ، أن معظم السلوك يمكن وصفه من حيث موضعه على بعد متصل من التنشيط يمتد من الموت ، فالغيبوبة ، فالنوم العميق ، فالنوم الخفيف ، فغالبة النعاس ، فاليقظة المسترخية ، فالانتباه المستيقظ ، فالانفعال المستثار . كما اقترحت إليزابيث دافى Elizabeth Duffy أن يستبد بمصطلح الانفعال كلمة مثل الاستثارة أو تعبئة الطاقة ، بل لقد غالى بعض الباحثين إلى درجة القول بأن الفرق الوحيد الحقيقى بين انفعال وآخر هو فى درجة الاستثارة فقط .

لكن هناك ، مع ذلك ، أدلة قوية على أن الانفعالات تتمايز عبر أبعاد أخرى غير الشدة . فإن الانفعالات ، وإن اتفقت فى مستوى الشدة ، قد تكون سارة أو غير سارة ، بحيث إن الفزع والانتشاء قد يكونان على درجة واحدة من الاستثارة . ولكنه ، مع ذلك ، يمكن التمييز بينهما بسهولة . ولقد أظهرت عدة دراسات أن بعد السار ـ غير السار ، أو شيئاً آخر مرادفاً لهذا البعد ، هو عامل مستقل عن مستوى الاستثارة . ومن بين الانفعالات التى هى أكثر استثارة يظهر الفرح ، والدهشة ، والأمل ، والانتشاء على الجانب السار ، ويظهر التقزز ، والخوف ، والغضب ، والفزع على الجانب غير السار . كما أن من بين الانفعالات التى هى أقل نصيباً من الاستثارة نجد شعور الأمومة السار والحزن غير السار .

وأما بعد الاقتراب ـ التجنب فهو يساوى ذلك التعريف الذى قدمته آرنولد للخبرة الانفعالية بأنها ميل يشعر به المرء نحو مثيرات معينة أو بالابتعاد عن مثيرات أخرى . وفى حالات كثيرة نجد الميل للاقتراب متجهاً نحو مثيرات تستثير المشاعر السارة ، بينما يكون ميل التجنب متجهاً نحو الابتعاد عن مثيرات تستثير المشاعر غير السارة . ولكن هذا ليس هو الحال دائماً مع ذلك ، ولهذا وجدنا أن بعد الاقتراب ـ التجنب يختلف بوضوح عن بعد السار ـ غير السار . خذ لذلك ، مثلاً ، أن الغضب انفعال من النوع غير السار ، ولكنه قد يتضمن اقتراباً من الشىء بغرض المهاجمة . والازدراء انفعال له بعض الجوانب السارة ، ولكنه عادة ينطوى على ميل إلى التجنب .

وبصفة عامة ، نجد أنه يمكن تصنيف هذا التنوع المذهل من الانفعالات بحسب عدة مبادئ . كما أن الاستجابة الانفعالية العامة عند الميلاد تتعرض للتمايز أثناء تطور النمو . وأننا عند بلوغ مستوى الراشدين يمكننا أن نتبين وجود عدة انفعالات أساسية تتآلف بعدة صور مختلفة لينتج عنها انفعالات أكثر دقة وتخصصاً . وأخيراً نقول : إن الخبرة الانفعالية يمكن أن نصنفها على أساس عدة أبعاد من قبيل مستوى الشدة ، السار ـ غير السار ، والاقتراب ـ التجنب .

الأنمـاط الجسمية الظاهرة

منذ ما يقرب من مائة سنة كتب تشارلز داروين أول كتاب علمى هام عن الانفعال . وفيه رأى داروين أن الأنماط الانفعالية عبارة عن استجابات موروثة حقا كان لها **نفعها البيولوجى** فى تطور الفصائل الحيوانية . وقد ركز على الأنماط العضلية الظاهرة التى يمكن ملاحظتها ـ من حركات وأوضاع جسمية . فالتكشير عن الأنياب ، وانتصاب الشعر ، والزمجرة التى ترتبط بالعداوة عند الحيوانات ، هى فى حقيقتها طرق للاستعداد للهجوم والدفاع . ثم بقيت هذه عند الإنسان فى صورة ضغط الأسنان وصر يرها عندما نشعر بالعداء والكراهية .

ثم إن هناك أنماطاً انفعالية أخرى تبدو مناقضة للكراهية . بحيث نجد أن التعبير عن المحبة يكاد يناقض سلوك الكراهية . وهذا ينسجم مع مبدأ داروين عن **التضاد** . وإذا بنا نجد تصلب العضلات ، ووقوف الشعر ، وزمجرة الكلب العدوانى تتحول إلى استرخاء لين ، وأرجحة للذنب ، وارتخاء للشعر ، وصوت لين للاستجداء والتحبب . والظاهر أن هذا السلوك يعبر به عن عدم وجود شىء يتهدد الحيوان ، وبالتالى عن أن الاتصال الاجتماعى أمر مسموح به .

وأما عند الإنسان فإننا كثيراً ما نتعرف على الحالة الانفعالية عند الفرد بحركاته وأوضاعه . ولذلك ، ترانا نحكم على الشخص المتيبس أو المتململ بالتوتر . كما أن الحركات الكبيرة القوية قد توحى بالعداوة . والاسترخاء والحركات الرشيقة تجعلنا نفكر فى المشاعر الإيجابية . وعند الإنسان نجد أن أهم التعبيرات العضلية الظاهرة عن الانفعال تحدث فى منطقة الوجه . وإننا لنقرأ وجوه الناس حتى نستبين مشاعرهم أكثر مما نلاحظ سلوكهم الإجمالى العام . وقد اختلف المشتغلون بعلم النفس زمناً طويلاً حول دقة هذه القراءة . إذ أن الدراسات الأولى ألقت ظلالاً كثيفة من الشك حول قدرة الناس على التبين الدقيق للانفعال على أساس من تعبيرات الوجه . والأدلة الراهنة تشير إلى أن الناس تستطيع أن تتبين الأنماط

الرئيسية . وإن كان من الصعب أن نميز تمييزاً دقيقاً فيما بين تعبيرات الوجه عن الانفعالات المتشابهة .

وقد كلف هـ . شلوسبرج H. Schlosberg فى دراسة حديثة له . بعض الأفراد بالنظر فى صور لموديلات يعرضون تعبيرات مختلفة على وجوههم . ثم بتقدير هذه الصور على بعدين اثنين من الأبعاد : بعد السار ـ غير السار . وبعد الانتباه ـ الرفض (والانتباه ـ الرفض عند شلوسبرج يساوى بعد الاقتراب ـ التجنب) . وتبين أن هناك اتفاقاً طيباً فى التقديرات . فأما الصور ذات التقديرات العالية فى بعد السار وبعد الانتباه فإنها توحى بانفعالات مثل السعادة . وأما الصور غير السارة ذات الانتباه فتوحى بالغضب والاهتمام . وأما الصور التى أعطيت تقديرات عالية فى السار والرفض فتوحى بالازدراء ، بينما تلك التى أعطيت تقديرات عالية فى غير السار والرفض فتوحى بالتقزز . وقد توصل شلوسبرج من بعد ذلك إلى أدلة تبين وجود بعد ثالث فى تعبيرات الوجه هذه ـ مستوى التنشيط أو الشدة .

ترى إلى أى حد تكون تعبيرات الوجه مرتبطة ارتباطاً فطرياً بالانفعال ، وإلى أى حد تكون متعلمة ؟ إن الاطفال الذين أصابهم الصمم والعمى يميلون إلى أن تظهر لديهم نفس التعبيرات التى نجدها عند الأطفال الأسوياء فى نفس المواقف وفى نفس مستوى العمر تقريباً . وهذا من شأنه أن يوحى بأنها أنماط فطرية . ولكن التعلم الاجتماعى له ، فى نفس الوقت ، بعض التأثير على طريقة التعبير بالوجه عن الانفعالات . فالأمريكيون يعبرون عادة عن الدهشة برفع الحاجبين ، بينما تجد الصينيين يخرجون ألسنتهم .

والخلاصة أن الانفعالات يمكن أن يعبر عنها بحركات بدنية إجمالية وبتعبيرات الوجه . وتعبيرات الوجه يمكن أن نصفها باستخدام أبعاد من قبيل الشدة والسار ـ غير السار ، أبعاد تقابل الأبعاد التى تصف الخبرة الانفعالية الذاتية . وعلى الرغم من أن هذه الأنماط فطرية متوارثة بدون شك عند الحيوانات الأدنى ، إلا أن

استجابات الإنسان تكشف كذلك عن وجود تأثير للتعلم الاجتماعى .

التغيرات الفسيولوجية الداخلية

كل من سبق له أن خبر الانفعال يدرك بوضوح أن أكثر التغيرات الجسمية أهمية هو التغيرات الداخلية . ترى هل تسارع دقات القلب والشعور بالانهيار والسقوط فى أعماق المعدة مجرد علامات على شىء من الاضطراب أو سوء التنظيم الداخلى ؟ لا ، وإنما هى تبدو عمليات جسمية ذات معنى . وقد وسع والتر كانون من فكرة داروين عن أن التعبير الانفعالى بمثابة عادات نافعة لها فوائدها وجعلها تشمل الاستجابات الداخلية أيضاً . ورأى كانون أن التغيرات الداخلية تمثل **استجابة طوارئ** من شأنها أن تعد الجسم **للقتال** أو **الهرب** .

على أن سلوك الأعضاء الحشوية الداخلية (من القلب ، والرئتين ، والمعدة ، والأمعاء ، وما إليها) يقع تحت سيطرة الجهاز العصبى المستقل . ولهذا الجهاز قسمان رئيسيان ـ الباراسمبتاوى والسمبتاوى وهما يعملان فى اتجاهين أقرب إلى أن يكونا متضادين . فأما الباراسمبتاوى فيختص أساساً بوظائف الجسم النباتية أو المتصلة بأعمال التغذى العادية . فهو ينشط إفراز اللعاب والعصارات الهاضمة والحركات الدودية فى القناة المعديمعوية والهضم بصفة عامة . كما أن الجهاز الباراسمبتاوى يعمل على تهدئة وإبطاء التنفس ودق القلب ويساعد فى وصول الدم إلى الأمعاء .

وأما الجهاز العصبى السمبتاوى فينهض للعمل عندما يواجه الفرد بعض الطوارئ . وكذلك يمكن النظر إلى التغيرات فى وظائف الجسم على أنها تعد وتهيئ لبذل المجهود والإنهاك. فعملية الهضم تتجه نحو البطء ، وسيلان الدم يتجه نحو الدماغ والعضلات حيث تشتد الحاجة إليه . والقلب تزداد سرعة دقاته حتى يزود هذه الأعضاء بنصيبها من الدم بصورة أسرع . والتنفس تزداد سرعته حتى يأتى بقدر أكبر من الأوكسيجين ، والكبد يطلق مدداً حاضراً من السكر المطلوب للطاقة

والنشاط . وكذلك تحدث تغيرات أخرى ذات وظائف تكيّف بعيدة الاتصال من قبيل اتساع حدقة العين ، وانتصاب الشعر، وازدياد العرق. ويقول كانون إن الجسم يكون بذلك متهيئاً للقتال أو الفرار .

وبالإضافة إلى الجهاز العصبي السمبتاوى ، نجد أن جهاز الغدد الصماء يلعب دوراً رئيسياً فى استجابة الاستنفار هذه . وجهاز الغدد الصماء هذا تسيطر عليه الغدة النخامية ، ولكن طريقة العمل تتضمن عدة هورمونات تفرزها الغدتان الكظريتان (الأدرياليتان) . والهورمونات الأدرينالية لها تأثيرها فى الدورة الدموية ، وفى الاحتفاظ بالأملاح ، وفى إنتاج السكر ، وفى السيطرة على الالتهاب . واستجابة الشدائد العصبية هذه يمكن أن تبدأها مئات من المثيرات التى تحدث الضرر المادى ، وكذلك المثيرات الانفعالية .

ثم إن الاستجابة للشدائد العصبية تتوقف كذلك على نوع الشدائد العصبية ، وهل هى مزمنة أم حادثة طارئة . وقد وصف هانز سليا Hans Selye الاستجابة الأولية للشدائد العصبية بأنها **مرحلة الاستنفار** التى تكون التغيرات الجسمية خلالها متسقة مع فكرة الاستجابة للطوارئ . ولكنه إذا امتدت واستمرت الشدائد العصبية وجدنا الاستجابة تدخل مرحلة جديدة هى **مرحلة المقاومة** . وفى هذه المرحلة نجد الجسم يعوض عن موقف الشدائد العصبية ويحاول أن يوطن نفسه على العيش معها ، إن جاز هذا التعبير . وخلال مرحلة المقاومة هذه يكون الجسم معرضاً للأذى إلى حد كبير ، ولذلك ، فإن أى زيادة فى شدة الموقف العصيب قد تؤدى بالجسم إلى مرحلة أخيرة نهائية هى **مرحلة الإنهاك** .

على أن من أهم جوانب نظرية الطوارئ عند كانون هى أن الاستجابات الجسمية فى طائفة متنوعة من الحالات الانفعالية ـ بما فى ذلك الألم والجوع والخوف والغضب ـ تكون متشابهة فى جوهرها . وقد عمل بعض المشتغلين بعلم النفس على توسيع هذه النظرية لتشمل كل الحالات الانفعالية ـ بحيث لم يعد هناك ما يفرق ويميز بين الانفعالات المختلفة غير مستوى الاستثارة العامة . على أن

هذه الفكرة قد تكون تأثرت بالتركيز الشديد على الانفعالات السلبية المستثارة ، بحيث إن استجابات الجسم عند الأمهات أثناء إرضاعهن لأطفالهن رضاعة طبيعية لابد وأن تكون مختلفة بالتأكيد . ولكننا مع ذلك نجد أنه ، حتى بالنسبة للانفعالات السلبية المستثارة ، هناك أدلة وبراهين على وجود استجابات جسمية مختلفة .

إن انفعالات الغضب والخوف تمثل حالات المقاتلة أو الهرب التى ذهب إليها كانون . وقد كان ينظر إليها فى أيام كانون على أنها متشابهة من حيث استجابة الجسم لها . كما كان يبدو أنهاتقع تحت سيطرة هورمون الغدتين الكظريتين الذى يسمى **بالأدرينالين** . ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت من بعد ذلك أن هناك على الأقل نوعين من هورمون الأدرينالين المهمة فى الانفعال ـ الأول هو **الأدرينالين** والثانى هو **النورأدرينالين** . ولهذين الهورمونين تأثيرات مختلفة على الجسم ، كما يبدو أنهما مرتبطان بانفعالات مختلفة . أما الأدرينالين فإنه أكثر ارتباطاً بالخوف ، بينما النورأدرينالين أشد ارتباطاً بالغضب . من ذلك ، مثلاً ، أن الحيوانات الوادعة المسالمة التى تروع بسهولة مثل الأرانب أكثر إفرازاتها من نوع الأدرينالين ، بينما نجد الحيوانات التى تقوم حياتها على مهاجمة غيرها مثل الأسود أو السباع فإن الغلبة عندها تكون لمادة النورأدرينالين .

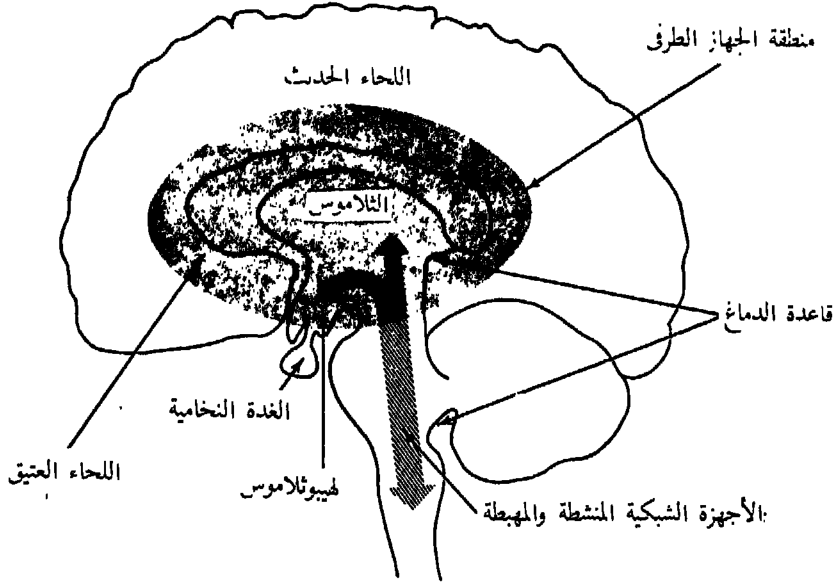
وقد تمكن الباحث دانييل فونكنشتاين Daniel Funkenstein من أن يبين أن طلاب الجامعات يستجيبون للعمل المحبط بثلاث صور مختلفة : فبعضهم يظهر الخوف ، وبعضهم يظهر الغضب الخارجى نحو المجربين أو الباحثين ، وبعضهم الثالث تبدو عليه استجابة الكآبة التى تتألف من التعبير عن غضب المرء من نفسه أو بعبارة أخرى من توجيه اللوم نحو الذات . أما الطلاب الذين عبروا عن الغضب الخارجى فقد ظهرت لديهم استجابة فسيولوجية تبين أن هورمون النورأدرينالين يتم إفرازه . على حين أن الاستجابة الأدرينالية كانت تبدو على الطلاب الذين يستجيبون باستجابة الخوف أو الاكتئاب .

وهكذا نستطيع أن نقول ، إذن ، أن الانفعال يتضمن استجابة فسيولوجية داخلية يتوسط فيها الجهاز العصبى السمبتاوى والغدد الصماء .. وأما الاستجابة للشدائد العصبية الطارئة فتتألف من استجابة طوارئ تهيئ الجسم للقتال أو الفرار ، على حين أن الشدائد العصبية المزمنة تؤدى إلى مرحلة مقاومة قد تؤدى إلى المرض النفسجسمى (السيكو سومانى) . وعلى الرغم من أن بعض الناس يرون أن التغيرات الداخلية واحدة متشابهة فى كل الانفعالات ، إلا أن هناك براهين وأدلة على أن هذه التغيرات الداخلية تختلف فيما بين الانفعالات ، أو فيما بين بعض الانفعالات على الأقل مثل الخوف والغضب .

ميكانيزمات الدماغ فى الانفعال

نظرية كانون ـ بارد الثلاموسية فى الانفعال تعيبها البساطة المفرطة ، ولكنها مع ذلك وجهت الأذهان إلى احتمال أن تكون الانفعالات بمثابة أنماط سلوكية معقدة تسيطر عليها ميكانيزمات فى الدماغ . وقد تركزت أبحاث كثيرة فى فسيولوجيا الانفعال على هذه الميكانيزمات المركزية لا على التغيرات العضلية أو المستقلة .

على أن هناك جهازين اثنين عامين فى الدماغ يظن أن لهما صلة بالانفعال . أما الأول فيسمى بالجهاز الطرفى ، وهو يتضمن أجزاء من الثلاموس والهيبوثلاموس ، وكذلك بعض المواقع القريبة المحددة من اللحاء ـ وهى اللب الداخلى للحاء ، لا الجزء الخارجى منه . وهذا اللب الداخلى قد تطور فى وقت مبكر عن الجزء الخارجى ، كما أنه لا يكاد يختلف فيما بين الإنسان والقردة والثدييات الأدنى ، على حين أن الجزء الخارجى قد ظهرت عليه تغيرات تطورية هائلة . من أجل هذا ، يتجه الظن إلى أن اللب الداخلى هو المخ العتيق البدائى كما أنه يسمى باللحاء العتيق ، بينما يسمى الجزء الخارجى باللحاء الحديث . وفى الشكل رقم (٦) تتضح هذه المناطق من الدماغ .



شكل ٦ - مناطق الدماغ ذات الأهمية بالنسبة للدافعية الانفعالية . الجهاز الطرفى - بما فى ذلك أجزاء من اللحاء العتيق والثلاموس والهيبوثلاموس - يحتوى على ميكانيزمات للتعبير جسميا عن الخوف والغضب وانفعالات أخرى ، وكذلك على مناطق للذة والألم وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالجهاز العصبى المستقل وبجهاز الغدد من خلال الغدة النخامية . على حين أن الأجهزة الشبكية المنشطة والمهبطة تتحكم فى المستوى العام للاستثارة فى الدماغ وفى الجسم .

ويلاحظ ، كما سبق أن رأينا ، أن الجهاز الطرفى متصل بكثير من الدوافع الهوميوستازية وأنه يتضمن مناطق اللذة والألم . وهو مرتبط ارتباطاً شديداً كذلك بالاستجابات المستقلة والتغيرات الجسمية المتصلة بالانفعال . كما أن تنبيه الأجزاء المختلفة من الجهاز الطرفى تحدث الخوف والغضب وبعض الاستجابات الانفعالية الأخرى .

على أن الاستجابات لتنبيه الجهاز الطرفى يمكن أن تخضع للتعلم الشرطى وأن يكون لها تأثير الدوافع الذى يكون للانفعالات المستثارة بصورة طبيعية . فقد عمل الباحثون « دلجادو » و« روبرتس » و« ميللر » N.E. Miller

J.M.R. Delgado, W.W. Roberts, على استثارة الخوف فى القطط عن طريق التنبيه الكهربى للجهاز الطرفى لديها . وقد تمكنوا ، بعد أن قرنوا بين نغمة معينة وبين تنبيه الدماغ ، من أن يستثيروا الخوف بالنغمة وحدها. ثم تمكنوا بعد ذلك من إظهار أن القطط يمكنها أن تتعلم إدارة عجلة (تدويرها) حتى تخمد صوت النغمة . وهذا هو نفس السلوك الذى يصدر عن الحيوانات عند الخوف السوى الطبيعى .

وأما ميكانيزم الدماغ الآخر ذو الأهمية فى الانفعال فإنه الجهاز المنشط الشبكى . وهو يتضح أيضاً من الشكل رقم (٦) . وهذا الجهاز يقع عند ساق الدماغ ويمتد أماماً إلى الثلاموس والهيبوثلاموس . وهو يعمل، بصفة عامة ، كجهاز إنذار غير محدد ، بمعنى أنه يستثير اللحاء ، وييسر مرور الرسائل القادمة إلى الدماغ من البيئة ، كما يزيد من تنبه الجسم . كذلك يظن أن هذا الجهاز متصل بالشعور واليقظة ، والحالات الانفعالية المستثارة . وهو لا يوجه السلوك فى اتجاه واحد معين ، وإنما نجد أن له تأثيراً منشطاً عاماً على كل أنواع السلوك . كما أن الباحثين توصلوا حديثاً إلى بعض الأدلة على وجود جهاز تهبيط (لا تنشيط) يؤدى إلى حالات من خفض الاستثارة ثم النوم .

على أن ميكانيزمات الدماغ هذه غير مفهومة بعد فهماً كاملاً ، ولكننا نعلم عنها ما يكفى لبيان أن الانفعال هو أمر يرجع إلى حد كبير إلى وظائف الدماغ . ولعل التفسير المعقول للوقائع التى تحدث أثناء الانفعال هو : أن أعضاء الحس فى الجسم تستجيب للمثير لتنقل هذه المعلومات إلى الدماغ . ثم تشترك أجزاء مختلفة من الدماغ ، ومن بينها بصفة خاصة اللحاء وبعض أجزاء الجهاز الطرفى ، فى تقدير المعلومات الواردة ، وخصوصاً من حيث أنها تنبئ بشىء سار أو غير سار . ثم إن الاستجابة الانفعالية تتوقف على عدة ميكانيزمات ، فأما الجهاز الطرفى فيشرف ويسيطر على بعد السار ــ غير السار ، وبعد الاقتراب ــ التجنب ، وأما الجهاز المنشط الشبكى فيشرف ويسيطر على مستوى التنشيط ، أو بعد

الشدة . والظاهر أن الجهاز الطرفى هو الميكانيزم الذى يؤثر تأثيراً مباشراً كبيراً فى الاستجابات الحشوية من خلال الجهاز العصبى المستقل ومن خلال الغدة النخامية التى هى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالهيبو ثالاموس . ثم إن التغيرات الحشوية قد تصبح مصدراً ثانوياً للمعلومات عن مشاعر الجسم ، وأن هذه المعلومات تعود من بعد ذلك فترتد إلى الدماغ . وهكذا نجد أن الخبرة الذاتية للانفعال تتحدد إلى درجة ما بفضل عملية التقدير المبدئية ، وإلى درجة ما بفضل المعلومات المرتدة من التغيرات الحشوية .

تأثير الانفعال فى السلوك

الانفعال يستثيره مثير خارجى ، فيستجيب الدماغ والجسم باستجابة انفعالية . فماذا يحدث عندئذ ؟ الأمر يتطلب التصرف ! وسلوك الشخص يتأثر ، ولكننا نجد هنا أيضاً خلافاً ذا تاريخ قديم حول الآثار المحددة للانفعال . أما بعض أصحاب النظريات فيرون أن الانفعال يختلف عن الدوافع بسبب أن الانفعال له تأثير سيئ على السلوك، إذ يؤدى به إلى الطراب والاختلال. وأما بعضهم الآخر فيرون أن الانفعال يمكن أن يؤدى إلى انتظام السلوك كما تفعل الدوافع . كذلك قد يكون من الممكن أن كلاً من الانفعالات والدوافع إما أن يكون لها آثار تنظيمية أو آثار مفسدة للتنظيم . ونحن الآن نبدأ أولاً بمناقشة الخلاف بين التنظيم والاضطراب ، ثم نعود فننظر فى الخوف والغضب من وجهة نظر الدوافع .

الانفعالات ـ وهل هى تؤدى إلى التنظيم أم إلى الاضطراب ؟

الناس فى حياتهم اليومية العادية يرون فى الانفعال شيئاً مناقضاً للتعقل . فالسائق الماهر قد يتحول إلى سائق خطر لو أنه اعتراه « الانفعال » . والمحامى الحاذق يعمل على أن يدفع بشاهد المعارضة إلى الضيق وبذلك يختلط عليه الأمر فتصبح شهادته متناقضة . ولعله من النصائح الطيبة ألا يتخذ المرء قراراً رئيسياً فى حياته إلا وهو هادئ غير مستثار .

وقد درس تأثير الانفعال من حيث إفساد التنظيم فى المواقف التجريبية . من ذلك ، مثلاً ، أن سيمور ساراسون Seymour Sarason وبعض أعوانه بحثوا فى ما يشعر به أطفال المدارس من قلق نحو الاختبارات . وانتهوا إلى وضع مقياس للقلق من الاختبارات تستخدم فيه الأسئلة من قبيل « هل تحمل الهم كثيرا عندما تتقدم للامتحان ؟ » واستخدمت الإجابات لهذا الاستفتاء أساساً يختار على حسبه الأطفال أصحاب القلق شديد الارتفاع أو القلق شديد الانخفاض من الامتحانات حتى يمكن التعمق فى دراستهم . وتبين أن الاطفال من أصحاب القلق المرتفع لا يحسنون صنعاً فى الامتحانات التقليدية للقدرة العقلية ، والتعلم اللفظى ، والاستدلال الإبداعى . قد تتوفر المقدرة لدى هؤلاء الأطفال من أصحاب القلق المرتفع ، ولكن الخوف من الفشل يزداد عندهم حتى يمنعهم من أن يؤدوا أداء حسناً .

مثل هذه النتائج جعلت الباحثين بول ت يونج Paul T. Young ، ودونالد هب Donald O. Hebb وغيرهما يستخلصون أن الانفعالات تختلف تماماً عن الدوافع . ولكن هل صحيح أن الدوافع لا يمكن أبداً أن تؤدى إلى الاضطراب ؟ إن الحالات الدافعة القوية قد تحدث الاضطراب فى السلوك كذلك وتعرقل التكيف الحسن .

ولقد قامت البينة التجريبية على ما للدافعية القوية من تأثير فى إفساد التنظيم . فقد تم تدريب الكلاب الجائعة على أن تمضى إلى مكان محدد لتحصل على الطعام . وبعد ذلك منعت من الحصول على الطعام بأن أقيم فى وجوهها حاجز من شبك السلك المعدنى . فأما الكلاب الجائعة بدرجة طفيفة فتعلمت أن تدور من حول الحاجز لتحصل على الطعام . ولكن الكلاب التى كانت شديدة الجوع جعلت تضغط نفسها على الحاجز ، وتحاول أن تخترقه ، وهى تصدر أصوات الضيق والاستجداء . أى أنها عجزت عن التراجع والبحث عن طريق آخر يوصل إلى الطعام ، وأن سلوكها كان منمطاً ، ومضطربا ، وغير توافقى . صحيح أننا نستطيع أن نقول إن الدوافع القوية تولد حالة انفعالية ، ولكننا سنقول عندئذ كذلك إن الانفعالات الطفيفة تولد حالة دافعية . فالأمر المهم هو أن التغيرات من

قبيل كل من الجوع والخوف يمكن أن يؤدى إلى الاضطراب فى المستويات المرتفعة الشديدة .

لكن روبرت ليبر Robert Leeper كان ممن عارضوا بشدة الفكرة القائلة بأن الانفعالات تؤدى بالضرورة إلى الاضطراب . وهو يرى أن الانفعالات إنما تنظم السلوك وتوجهه كما تفعل الدوافع تماماً . وهو يضرب على ذلك الأمثال بأسرة عادت من رحلة ، فعلمت أن بالمدينه مجرماً مولعاً بإشعال الحرائق تمكن من تدمير عدة منازل فى المنطقة . وأدى سماع هذا الخبر إلى ارتفاع مستوى القلق عندهم طبعاً . ولكن ماذا يكون له من أثر على السلوك ؟ أول شىء أنه يسهل عملية **الإدراك الحسى** ـ فقد رأوا أن غرفة أطفالهم بمثابة مصيدة للحريق . ثم نجد القلق يؤثر فى **السلوك اللفظى** وفى **العمليات الرمزية** ـ وإذا بهم لا يكادون يتحدثون عن شىء آخر أو يفكرون فيه . ثم إن القلق يزيد كذلك من **التعلم** ـ فتراهم يطالعون الكتالوجات ويتعرفون على أنظمة استشعار الحرائق . ثم نجد أن بعض العادات الجديدة ، مثل شراء صفارات الإنذار ، وبعض العادات القديمة ، مثل إحكام غلق الأبواب ، يتم **أداؤها** . وأخيراً ، نجد القلق يعمل على تحديد **أهداف** الأفراد تحديداً قوياً ـ فهم لا يتحدثون عن الأشياء السارة وإنما عن المجرم المولع بإشعال الحرائق ، وينفقون أموالهم على صفارات الإنذار لا على أشياء أخرى . وهكذا نجد الدلائل تشير إلى أن كلاً من الانفعال والدوافع يمكن أن تؤدى إلى تنظيم السلوك وتسهيله فى بعض الأحيان ، وإلى اضطرابه وفساد تنظيمه فى بعض الأحيان الأخرى . وهذه بالطبع أمور محيرة تتطلب الحل . فهل هناك مبادئ عامة يمكن أن تخرجنا من هذه الحيرة ؟

لعل كثيراً من التناقض يمكن تفسيره عن طريق قانون يركيس ـ دودسن الذى تحدثنا عنه ووصفناه فى الفصل الثانى . وهنا نجد لدينا عاملين هامين : قوة الدافع وصعوبة العمل . ذلك أن الدافع يؤدى إلى تسهيل السلوك حتى تصل قوة الدافع إلى نقطة معينة فيتحول بعدها تأثيره إلى إحداث الاضطراب . على أن موضع النقطة التى يحدث عندها التغير بالضبط يتوقف على صعوبة العمل ، بحيث نجد

أن الأعمال الأكثر صعوبة يطرأ عليها الاضطراب عند المستويات الأدنى من الدافعية . والظاهر أن نفس المبدأ يفسر لنا كثيرا من آثار الانفعال على السلوك .

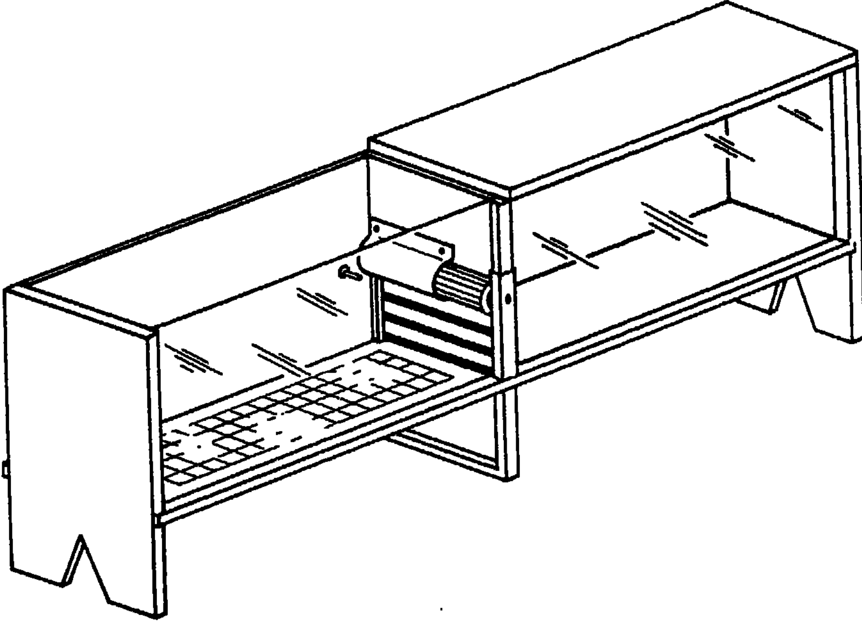
وقد استعرض ريشارد س . لازاروس Richards S. Lazarus عدداً كبيراً من الدراسات المنصبة على آثار العناء الانفعالى على أداء الأعمال . وكان العناء الانفعالى يتم استحداثه عن طريق تنظيم مواقف الاختبار تنظيما يؤدى إلى فشل المفحوص ، أو عن طريق تعقيد العمل وزيادة صعوبته حتى يؤدى ذلك إلى تشتت انتباه المفحوص . وقد أوضحت الدراسات فى جملتها أن العناء الانفعالى يؤدى ، إن كان بدرجة طفيفة ، إلى تسهيل الأداء ، وإن كان بدرجة عاليه فيؤدى إلى اضطرابه .

وجملة القول أن الانفعال يؤدى إلى تنظيم السلوك أو إلى اضطرابه. وهو قد يؤدى إلى اضطراب السلوك الراهن ، ولكنه ، مع ذلك ، قد يؤدى إلى خلق صور جديدة من السلوك تكون موجهة نحو الأهداف . والمستويات الطفيفة من الانفعال تؤدى عادة إلى التسهيل ، بينما الانفعال العنيف يؤدى إلى الاضطراب . ثم إن بعض هذه الآثار يمكن أن يصفها قانون يركيس ـ دودسن . وفى كل هذه الآثار أو النتائج نجد أن الانفعال شديد الشبه جداً بالدوافع التى قد تؤدى هى أيضاً إما إلى تنظيم السلوك أو اضطرابه .

الخوف بوصفه دافعاً

فى الإمكان تعليم الفرد أن يهرب من المثير المؤلم . من ذلك أن الطفل إن تألمت يده مرة بسبب الموقد الحار نجده بعد ذلك يسحب يده . وبفضل الإشراط أيضاً ، يمكن أن يتعلم الطفل أن يتجنب الموقد ، فينسحب راجعاً لمرأى الموقد . وفى حالة التجنب ، لا يكون الدافع عبارة عن الألم ، وإنما يكون الدافع هو الخوف . فالخوف يستثيره منظر الموقد ، واستجابة التجنب تنتقص الخوف . وقد تم إظهار هذا الأثر فى عدد من الدراسات التجريبية ، وهذا يوحى بأن الخوف

يمكن أن يعمل بوصفه دافعاً إلى تعلم الاستجابات الجديدة . ولما كان الخوف هنا ليس استجابة غير متعلمة لمنظر الموقد ، قلنا فى مثل هذا النوع من المواقف إنه بمثابة دافع مكتسب .



شكل ٧ ــ جهاز ميللر لدراسة الدافع المكتسب . وفيه يمكن توجيه الصدمة الكهربية إلى الحيوان من خلال الأرضية الشبكية فى القسم الأيسر الأبيض من الجهاز . والوصول إلى القسم الأسود الآمن إلى اليمين يتطلب إسقاط الحاجز الفاصل المطلى بشرائط بيضاء وسوداء أفقية . وهذا إنما يتحقق بأن يضغط المجرب على زرار أو بأن يضغط الحيوان على الرافعة إلى الجانب الأيسر من القسم الأبيض أو بأن يدير الساقية أو العجلة التى تقع فوق الباب .

(نقلا عن N.E. Miller. Studies of fear as an acquired drive: I. Fear as motivation and fear-reduetion as reinforcement in the learning of new responses J. exp. Psychol. 1948, 38, 89-101).

وقد كان للعالم نيل ميللر فضل إجراء التجربة الأساسية التى توضح الدافع المكتسب . فقد درس ميللر اكتساب الخوف عند الفئران البيضاء فى الجهاز الموضح بالشكل رقم (٧) . كانت الحيوانات قد وضعت أولاً فى القسم الأبيض

الواقع على اليسار . ولم تظهر الفئران فى أول الأمر شيئاً من الخوف من هذا القسم المحايد . ثم أعطيت الفئران صدمة طفيفة من خلال الأرضية الشبكية فى القسم الأبيض . وكان ميللر يسمح للحيوانات بالهرب من الألم بعد أن يسقط الباب المنزلق الذى يفصل بين قسمى الجهاز ، وبذلك يسمح بالوصول إلى القسم الأسود الذى لم تكن فيه صدمة كهربية . وإلى هنا أظهرت التجربة ببساطة أن الفئران يمكن أن تتعلم الهرب من المثير المؤلم .

ثم مضى ميللر ليبحث فى الدافع المكتسب . فوضع كل فأر فى هذا القسم الأبيض من غير أن توجه إليه فيه صدمة ، أى من غير أن يكون هناك الدافع الأولى للألم . ولنتذكر هنا أن الحيوانات لم تكن لديها استجابة حاضرة محددة لهذا القسم الأبيض فى أول الأمر . لكنها الآن ، مع ذلك ، بدأت تظهر الخوف ـ فهى ترتعد ، وتجثم ، وتتبرز ـ بمجرد أن توضع فى القسم الأبيض . أى أن المثيرات فى القسم الأبيض قد اكتسبت القدرة على استثارة الخوف بسبب الارتباط مع الصدمة . أى أنه تم تعلم الخوف من القسم الأبيض .

فهل تتوفر فى هذا الخوف المتعلم تعريف الدافع من حيث أنه يدفع إلى تعلم جديد ؟ تحقق ميللر من صحة هذا بأن أبقى الباب المنزلق بين القسمين مغلقاً ، وبأن نظمه كهربياً بحيث يسقط وينفتح عندما يدير الفأر عجلة صغيرة فوقه . وكانت الفئران الخائفة تقوم باستجابات كثيرة ، ثم تصل آخر الأمر إلى أن تلمس العجلة الصغيرة وتحركها. فإذا سقط الباب هرعت الفئران إلى القسم الأسود. وفى المحاولات التالية ظلت الفئران تقوم باستجابة تدوير العجلة . أى أن الخوف دفع إلى تعلم استجابة جديدة ، وأن خفض الخوف الذى كان ظاهراً عند وصول الفأر إلى القسم الأسود ، كان له أثر الإثابة .

ثم درس ميللر ، بالإضافة إلى ذلك ، الخوف بوصفه دافعاً عن طريق فصل الارتباط بين العجلة والباب بحيث لا يعود تدوير العجلة يؤدى إلى سقوط الباب . وبدلاً من ذلك تم تركيب قضيب معين يؤدى الضغط عليه إلى انفتاح الباب .

وفى ظل هذه الظروف توصلت الحيوانات فى آخر الأمر إلى أن تتوقف عن تدوير العجلة وتعلمت الضغط على القضيب . ومن أجل ذلك نجد أن الاستجابة المحددة ليست هى بذات الأهمية ـ وإنما العبرة بأن توصل الاستجابة إلى خفض الخوف .

كذلك قد يعمل القلق الذى يستثيره التهديد الشخصى بوصفه دافعاً . والناس تتعلم استجابات متعددة لتتجنب بها القلق ، ولكننا نسمى هذه على المستوى الإنسانى **بميكانيزمات الدفاع** . والكبت واحد من هذه الميكانيزمات . ذلك أن الشخص قد يعجز ، كما رأينا فى الفصل الثانى ، عن تذكر مادة ارتبطت بخبرة مثيرة للقلق . ووظيفة الكبت يمكن أن نشهدها فى الحالة المشهورة المسماة حالة آنا ا . التى عالجها بروبير Breuer أحد زملاء فرويد الأولين . كان على هذه المرأة الشابة أن ترعى والدها بالليل وبالنهار خلال مرضه الأخير الطويل. وذات مساء ، وهى تسمع صوت الموسيقى الصادر عن حفلة للجيران ، خامرتها ، للحظة ، الرغبة فى أن يموت أبوها سريعاً . وارتاعت آنا كل الارتياع من هذا الخاطر العابر حتى إنها كبتته فى الحال . ومكنها الكبت من أن تحتفظ باعتقادها بأنها لا تحمل غير الحب لأبيها ، ومن أن تتجنب القلق المرتبط بتمنى الموت .

على أن القلق ، إذا لم يكن بالغ الشدة ، يمكنه أن يدفع إلى استجابات ناضجة توافقية . فالطالب قد يستجيب للدرجة المنخفضة فى اختبار منتصف الفترة بأن يزيد من استذكاره وجده واجتهاده . والرجل الذى ينفر منه بالفعل كل زملائه قد يتفحص سلوكه لينظر فيما يصدر عنه من أفعال تثير البغضاء والعداء . ومن الطبيعى أن هذا النوع من تفحص الذات ليس أمراً هيناً ، وأنه قد يتطلب العلاج النفسى . لكن هناك ، مع ذلك ، بعض الناس الذين يرون أن القدر الطفيف من القلق يمكن أن يكون قوة إيجابية بالنسبة للشخص تدفعه إلى الاستجابات الإبداعية والنمو الشخصى .

الغضب بوصفه دافعاً

كان الفرض الأصلى القديم قد صيغ فى عبارات بالغة القوة تربط بين الإحباط والعدوان ـ كل إحباط لابد أن يؤدى إلى ميل للعدوان . وكل عدوان يمكن أن نرده إلى إحباط سابق . ولكننا الآن عرفنا أنه قد تكون للإحباط استجابات أخرى غير العدوان ـ مثل **النكوص** إلى السلوك الطفلى ، ومثل **الانسحاب** فى تبلد وغير مبالاة ، أو سلوك هادئ ناجح يؤدى إلى حل المشكلة . والظاهر أن الخلط هنا يقع فيما بين استثارة الانفعال ، واستجابة الانفعال ذاتها ، والاستجابة التى يدفع إليها الانفعال . ولعله مما يزيد الأمور وضوحاً أن نقوم بتعريف **الإحباط** بوصفه الحالة التى تستثير المرء انفعالياً ، وبتعريف **الغضب** بوصفه الحالة الانفعالية المتدخلة ، وبتعريف **العدوان** بوصفه واحداً من الاستجابات المتعددة الممكنة للغضب .

وقد استعرض جدسون براون Judson Brown عدداً من الدراسات التى تبين أن إدخال الإحباط فى موقف التعلم يزيد من قوة الاستجابة ويسهل الأداء. ففى دراسة قام بها آمسل A.Amsel وروسل J. Roussel تم تدريب الفئران على أن تمضى فى ممر طويل . وكان عند منتصف الممر صندوق هدف يُقدم للفئران الجائعة منه قرصٍ من الطعام . وبعد أن تتناول الحيوانات هذا القرص كان يسمح لها بالاستمرار قدماً فى النصف الثانى من الممر إلى صندوق هدف ثان يقدم لها منه قرص ثان من الطعام . وبعد أن تعلمت الحيوانات هذا التسلسل ، أدخل المجربان محاولات الإحباط التى تتألف من حذف أواستبعاد قرص الطعام من الصندوق الأول . وأظهرت النتائج أن الفئران ، عند استبعاد القرص من الصندوق الأول ، كانت تجرى أو تتقدم خلال النصف الثانى من الممر **بسرعة أكبر مما** كانت تفعل عادة . بعبارة أخرى ، يمكن القول إن الإحباط كان يزيد من الدافع لديها للوصول إلى صندوق الهدف الثانى .

لكنه من الصحيح أن الاستجابة العدوانية كثيراً ما يتعلمها المرء بوصفها

الاستجابة الملائمة لخفض الغضب أو لخفض حدة الدافع الذى أدى إليه الإحباط .

لقد بينت فلورنس جودإنف Florence Goodenough ، منذ عدة سنوات ، أن عدد مرات نوبات الغضب أو الانفجارات العدوانية عند الطفل يتناسب تناسباً طردياً مع عدد المرات التى يستسلم فيها الكبار له . بعبارة أخرى نقول : إن الطفل يثاب على هذا السلوك . والفئران يمكن تدريبها لتكون مقاتلة شرسة تهاجم غيرها من الفئران بدون استثارة ، إذا نحن عرضناها لسلسلة من النجاح السهل فى فترة مبكرة من الحياة ـ بنفس الصورة التى يدرب بها مدير مباريات الملاكمة ملاكماً محترفاً بأن يدبر له عدداً من المباريات السهلة . كذلك يمكن تدريب الفئران على أن تشب محبة للمسالمة بأن نمسك بها لنلاطفها ونربت عليها كلما أظهرت شيئاً من العدوان . وهكذا نجد أن العدوان يمكن أن يتم تعلمه بوصفه استجابة من الاستجابات .

والواقع أن العدوان ليس وسيلة فعالة كثيراً للحصول على الأهداف فى الحياة الاجتماعية . وهو إن أفاد بالنسبة للطفل مع والديه إن كانا مفرطين فى التسامح ، إلا أنه فى أغلب المواقف الاجتماعية يؤدى فى آخر الأمر إلى الانتقام . وقد وصف جون دولارد التأثير المتصاعد للعدوان فى الجماعة عندما يبدأ أحد أفرادها ، فينتقم منه الآخر ، فيعود الأول ليرد عن نفسه ، وهكذا . وهناك ما يوازى هذا ويشبهه بوضوح فى المنظمات الكبيرة ، والعلاقات الدولية ، بل وفى الدوائر الأكاديمية . والواقع أن هناك أساليب أكثر فعالية يمكن أن يستجيب بها الأفراد عند تعرضهم للإحباط ـ وهذه هى حل المشكلات ، وازدياد التواصل ، وكذلك التعاون الاجتماعى .

على أن الفرد قد يتعرض للإحباط ، ويشعر بالغضب ، ويتكون لديه الميل إلى العدوان ، ومع ذلك لا يظهر العدوان بسبب **الكفّ** . والكفّ قد يكون راجعاً إلى الخوف من العقاب أو الاستهجان الاجتماعى . وإن كثيراً من أطفال الطبقة

الوسطى فى المجتمع الأمريكى ليتعرضون للكفّ الشديد الذى يمنعهم عن العدوان . كذلك قد لا يفيد الكفّ أحياناً إلا فى زيادة الإحباط بحيث يصبح من المحتمل أن تظهر بعد ذلك انفجارات مفاجئة . ومثال ذلك أن حكومة جنوب أفريقيا استجابت للتمرد على التمييز العنصرى بقيود أشد صرامة حتى أصبح الموقف شديد القابلية للانفجار .

والعدوان حين يتعرض للكفّ لا يختفى ، وإنما يظل يبحث لنفسه عن مخرج . فقد يتم التعبير عنه بصورة غير مباشرة عن طريق الإيذاء المستتر أو عن طريق العناد . كذلك قد يتعرض العدوان لميكانيزم **النقل** ، فيعبر عنه تجاه فرد من الناس غير الشخص الذى كان سبباً فى الإحباط . وهكذا قد ينحو الموظف المغضب باللائمة على زوجته ، وقد يلوم العامل الأمريكى المحبط اقتصادياً غيره من مواطنيه اليهود أو الزنوج أو الأجانب على ما أصابه من شقاء .

كذلك ذهب أصحاب نظرية الإحباط والعدوان من أساتذة جامعة ييل إلى أن الفرد عندما يتم تعرضه للإحباط ، وتكون كل المخارج الممكنة للعدوان مسدودة سداً منيعاً تاماً ، فإن العدوان قد **يستدير ليتجه نحو الذات** فى صورة كراهية للذات ، أو نقد للذات ، أو انتحار . ولنتذكر أن بعض الطلاب عندما تعرضوا للإحباط فى تجربة فونكنشتاين حولوا الغضب إلى الداخل وأصابهم الاكتئاب . لكننا مع ذلك لا نجد الناس جميعاً على هذه الشاكلة . والظاهر أن المسألة تتوقف على درجة لوم الشخص لذاته باعتباره سبباً فى الإحباط . كما يبدو أنها تعتمد أيضاً على درجة إيمان الشخص المكتئب بأن سلوكه المكتئب سوف يحقق أهدافه فيما يتصل بغيره من الناس . على أن الشخص المكتئب قد يشعر ، من الناحية الإكلينيكية على الأقل ، أنه بذلك يعاقب الآخرين ، كما أن المنتحر كثيراً ما يظن أن فعلته هذه ستقنع الآخرين بمدى شقائه . وهكذا ، نجد أنه حتى سلوك الاكتئاب والانتحار يمكن أن يعد بمثابة استجابات موجهة نحو هدف .

والخلاصة أن الإحباط يؤدى إلى دافع انفعالى نسميه بالغضب . وهذا الدافع

يكون موجهاً نحو التغلب على العقبات التى تعترض طريق الوصول إلى الأهداف ، بدلاً من أن يكون موجهاً نحو التدمير لذات التدمير . كما أنه يمكن للفرد تعلم الاستجابات التى تؤدى إلى الهدف الأصلى وتنتقص من كل من الدافع الأصلى والدافع الناشئ عن الإحباط . وهذه الاستجابات تتضمن العدوان ، والنكوص ، والاكتئاب ، وحل المشكلات .

الفصل السادس

السلوك المدفوع ذاتيًا

منذ أيام جعلت أشهد ابنتى البالغة من العمر سنة ونصف ، وهى تلعب فى حديقة الدار . كانت منشغلة إلى حد لا يكاد يصدق ، جادة أشد الجد ، تتجول يمينًا ويسارًا ، فتلتقط طائفة متنوعة من الأشياء ـ بعض الأغصان ، عدة أحجار ، بعض اللعب ، حذاء قديمًا كان ملقى أمامها ، أداة من أدوات الفلاحة فى الحديقة ، قطعة من الخيش ، مجلة قديمة ، والقطة حين كانت تعبر أمامها . كانت ابنتى تتناول كل واحد من هذه الأشياء فتتفحصه ، وتجربه ، وتتبين مدى صلاحيته لأغراض متعددة ، ثم سمعت صوت ضحك صادر من عند الجيران فاتجهت نحو السياج الذى يفصل بيننا وبينهم لتتطلع إلى الأطفال الأكبر سناً . ورأت أن تجرب لوح التزحلق ، ولما صعب عليها أن تصعد إلى اللوح ، تقدمت أنا نحوها لأساعدها ، ولكنها ، فى نزعة استقلالها ، دفعت بيدى فأبعدتنى عنها . وأخيرًا نجحت وتزحلقت والرضا والانتصار يبدوان فى نظرتها . مثل هذا السلوك وراءه دافع قوى بلاشك .

فما هى طبيعة الدافعية من وراء كل هذه الأنواع من الأنشطة ؟ ليس هناك من خلل هوميوستازى معروف ، وليس هناك من مثير يرفع من التوتر بالمعنى المألوف ، وليست هناك حالة هورمونية بسيطة . أى أن السلوك لا يبدو أنه يعتمد مباشرة على شىء من الدوافع الهوميوستازية أو الجنسية أو الانفعالية التى سبق لنا أن ناقشناها فيما سلف .

قد افترض أصحاب نظرية الغرائز التقليدية أن هناك أنواعًا معينة من الخبرات

الحسية والمناشط السلوكية تكون مثبتة على أساس فطرى ، وأن نشاط الاستكشاف واللعب وأنشطة أخرى غيرهما ينغمس فيها الكائن الحى لذات النشاط أو لأن هذه الأنشطة تنطوى على المتعة أو الإشباع . وقد تحدث كل من تشارلز داروين ، ووليام جيمس ، ووليام ماكدوجال عن الفضول وحب الاستطلاع بوصفه غريزة أساسية . ثم أضاف جيمس إلى ذلك اللعب .

وفى العشرينيات عندما قامت المعارضة ضد أصحاب نظرية الغرائز ، أخذ كثير من أصحاب علم النفس يشككون فى الأساس الفطرى لدوافع الفضول واللعب ونحوها . من ذلك ، مثلاً ، أن كمف E.J. Kempf ذهب إلى أن هناك ثلاثة افتقارات عضوية أساسية فقط ـ تلك المتصلة بالتغذية وبالجنس وبالخوف . وفى رأيه أن هذه هى الدوافع الأولية ، وأن كل الدوافع الأخرى تشتق منها . فالحيوان الجائع قد يتعلم البحث عن الطعام فى كل الثنايا والحنايا . وبعد فترة يبدو هذا النشاط وكأنه دافع مستقل للاستطلاع ، ولكنه يكون من الممكن دائماً رده إلى الجوع ، كما يكون اعتماده عليه فى آخر الأمر . وكذلك نجد أن الرغبة فى اللعب والإبداع والنشاط يقال عنها إنها تشتق من دوافع أساسية أخرى .

ومع ذلك ، فقد حدث فى السنوات الأخيرة تحول عن تفسير حب الاستطلاع وما يتصل به من سلوك بأنها دوافع مشتقة . فقد تبين أن نظريات الدوافع المشتقة يثبت عجزها وفسادها شيئًا فشيئًا . وأصبحت هناك أدلة تشير إلى أن بعض هذه الدوافع من النوع الفطرى حقاً . وسوف نقوم فى هذا الفصل بوصف نظريات الدوافع المشتقة أولاً ، ثم نقدم الأدلة الجديدة الدالة على وجود أنواع مختلفة من الدوافع المستقلة ، وأخيرًا نناقش بعض المضامين النظرية لهذه النتائج .

مفاهيم الدوافع المشتقة

نحن إذا قلنا إن دافعا معينًا « مشتق » من دافع آخر فسيولوجى أساسى بدرجة أكبر ، لا نضيف شيئًا ذا بال . ولذلك ، فإن ما نحن بحاجة إليه هو تفسير

للعملية ـ أعنى أن نصف طريقة الاشتقاق . وفيما يلى ندرس النظريات الثلاث الهامة التى تشرح لنا طريقة الاشتقاق . أما الأولى فهى فكرة سيجموند فرويد عن أن الدوافع الجنسية والعدوانية تتحول إلى دوافع حضارية عن طريق ميكانيزم **الإعلاء**. وأما الثانية ، فهى فكرة جوردون ألبورت Gordon Allport عن **الاستقلال الوظيفى** والتى تصبح بمقتضاها بعض الدوافع منفصلة عن أصولها الفسيولوجية . وأخيرًا ، نتعرض لنظرية نيل ميللر عن **الدوافع المكتسبة والإثابات المكتسبة** وكيف أنها تحاول تفسير كيف أن الدوافع الجديدة قد يتم تعلمها عن طريق ارتباطها بالدوافع الفسيولوجية والإثابات . وسوف نبين كذلك بعض أوجه الضعف فى هذه النظريات .

الإعـلاء

كان سيجموند فرويد أول أصحاب النظريات الهامة الذين ذهبوا إلى أن بعض الدوافع مشتقة من دوافع أخرى بيولوجية أساسية . على أن منجزات الإنسان الحضارية الراقية من علوم وفنون وأخلاق وأديان لم ينبهر لها فرويد كثيرًا . فقد رأى أن الإنسان بمثابة كائن بيولوجى تستعر بداخله قوى غريزية بدائية لا يعتقلها إلا غشاء رقيق من المدنية . وقد كانت المنجزات الحضارية ، بالنسبة له ، مجرد توفيقات أو صمامات أمان فى ذلك الصراع المحتوم الذى لا يمكن تجنبه فيما بين الدوافع الأساسية من جنس وعدوان من ناحية ، وقيود المجتمع ونواهيه من ناحية أخرى .

والإعلاء هو تحويل النزعة بعيدًا عن غرضها الأصلى إلى نشاط يكون مقبولاً إلى درجة أكبر من الناحية الاجتماعية . وهو يبدأ أولاً بوصفه دفاعًا ضد نزعة يحرمها المجتمع بأسره ، أو يحرمها الوالدان بصفة خاصة . ومثال ذلك أن كثيرًا من الأطفال تكون لديهم الرغبة فى أن يلعبوا ويلطخوا بغائطهم . والآباء ، بصفة عامة ، يستجيبون استجابة سلبية لمثل هذا النشاط . ومن وسائل حل هذا الصراع هو أن نحول النزعة إلى التلطيخ والرغبة فيه إلى نشاط آخر من قبيل الطلاء بالألوان . ولذلك ، تجد الطلاء بالألوان أمرًا محبوبًا فى مدارس الحضانة ، كما نجد

أن صغار الأطفال يستخدمون الطلاء بطريقة أقرب إلى التلطيخ . ولكن هذا لا يصبح حتى الآن بمثابة الإعلاء الحق الصحيح ، وإنما يكون أقرب إلى الإبدال البسيط . أما إذا استمر الطفل يبدى الميل إلى الطلاء الإبداعى بالألوان ، قلنا إن الطلاء أصبح يفيد بوصفه مخرجًا لنزعات الطفل ، ووجدناه ينسلخ فى آخر الأمر من الميل الأصلى إلى التلطيخ والتلويث . ويقال عندئذ إن الميل إلى التلطيخ والتلويث قد تعرض للإعلاء ، فتحول إلى نشاط اجتماعى أرقى هو الطلاء بالألوان .

ومن الممكن إعلاء كل أنواع النزعات البدائية الجنسية والعدوانية . فالرغبة الطفلية فى أن يعرض المرء على الناس جسمه يمكن إعلاؤها إلى التمثيل المحترف . والفضول الجنسى يمكن أن يتحول إلى البحث العلمى . والميل السادى قد يجد له فى الجراحة مخرجًا نافعًا من الناحية الاجتماعية . وقد ذكر بريل A.A. Brill حالة مريض كان قبل العلاج يتعرض للمشاكل مع القوانين والشرطة بسبب ميله إلى استراق النظر أو التطلع إلى عورات الآخرين ، ثم تمكن بعد ذلك من أن يعلى نوازعه إلى وظيفة جديدة يبيع فيها الأدوات البصرية .

ولعل أقوى الانتقادات التى تعرضت لها فكرة الإعلاء هى تلك التى صدرت من داخل معسكر التحليل النفسى . فقد أنشأ هاينز هارتمان Heinz Hartman وأعوانه نوعاً جديداً من **سيكولوجية الأنا** ليستغنوا به عن تفسيرات فرويد لنشأة الميول ، والهوايات ، والعمل الإبداعى . ذلك أن ملاحظات الأطفال توحى بأن عددًا محدودًا من **وظائف الأنا** ـ من قبيل إمساك الأشياء باليد ، والمشى ، والإدراك الحسى ، والتفكير ـ تنشأ **بطريقة مستقلة** عند الطفل ، أعنى أنها لا تتوقف على الدوافع الجنسية والعدوانية . ولكنها **قد تصبح** ، فيما بعد ، مرتبطة بهذه الدوافع ، وذلك كما يصبح للأداء الرياضى للابن أهمية كبيرة عند الأب . وحتى عندئذ قد تتحول وظائف الأنا فيما بعد إلى وظائف **مستقلة بصفة ثانوية** ، وذلك كما ينمو الابن فلا يعود يعتمد على موافقة والده . وهكذا نجد أن من المحتمل إلى حد كبير أن يكون العالم ، والفنان ، وصاحب المهنة الراقية إنما يمارسون أنشطة إما أنها كانت دائماً خالية من

النزعات الجنسية أو العدوانية ، أو أنها أصبحت خالية من هذه النزعات .

الاستقلال الوظيفى

النظرية الهامة الثانية فى اشتقاق الدوافع هى فكرة جوردون ألبورت عن الاستقلال الوظيفى . كان ألبورت تحت تأثير رد الفعل لنظريات كل من ماكدوجال وفرويد . فلم يؤمن بأن سلوك الإنسان الراشد إنما تدفعه بصفة تامة تلك الغرائز التى تكون ثابتة منذ الولادة كما يذهب إلى ذلك ماكدوجال ، ولم يسلم بفكرة فرويد عن أن ميول الكبار إنما تنشأ عن إعلاء للنزعات الطفلية الجنسية والعدوانية . ولكنه سلم بالفكرة القائلة بأن الرضيع إنما يدفعه عدد قليل من الدوافع الفسيولوجية البدائية ، ولكن دوافع الراشدين تصبح بوسيلة ما منسلخة عن هذه الأصول الأولى وتعمل مستقلة فى السعى نحو تحقيق الأهداف المعاصرة ـ أى أنها تصبح مستقلة وظيفياً .

ولعل أشهر أمثلة ألبورت فى هذا الصدد هو مثال البحار السابق الذى يحن إلى البحر . فقد يكون هذا الرجل قد عمل بحارًا فى أول الأمر بسبب الحاجة إلى المال والرغبة فى تحصيل الرزق . ومن هنا نقول إن سلوك الإبحار عنده كان يدفع إليه شىء بسيط هو الجوع . أما الآن ، فقد تجده من أصحاب المصارف الأثرياء ممن يستطيعون سد حاجتهم إلى الطعام أضعافاً مضاعفة. ولكنه ، مع ذلك ، يحتفظ بشوقه وحنينه إلى البحر ، بل وقد يعلق صور البحر فى مكتبه ، أو قد يصل حبه للبحر إلى درجة أشد من أى وقت مضى عندما كان يزاول العمل بحارًا . وهكذا تجد أن حب البحر يصبح منسلخًا تمامًا عن دافع الجوع الأول ، وأنه يظل قائمًا بوصفه قوة فى شخصية الرجل قد تكون أكثر شدة .

ولكننا نأتى هنا مرة ثانية إلى السؤال الجوهرى عن تلك العملية التى يتحول بمقتضاها الدافع الفسيولوجى الأساسى إلى عادات تصبح بمثابة دوافع ذات استقلال وظيفى . إن من الواضح الجلى أن الدوافع الفسيولوجية فى الطفولة تؤدى إلى طائفة متنوعة من الاستجابات ، وأن عددًا قليلاً منها فقط هو الذى يصبح ذا

استقلال وظيفى . هنا نجد تفسيرًا لألبورت يقول فيه إن العادات التى تكون فى دور التكوين هى فقط التى تكون لها خصائص الدافعية . وعنده « أن الدوافع هى على الدوام نوع من السعى نحو نوع أو آخر من الاكتمال » . ولذلك ، فإن الطفل الذى يكون بصدد تعلم الكلام أو المشى أو ارتداء ملابسه يكون عنده ما يدفعه لهذا . شأنه فى ذلك شأن الراشد الذى يسعى لاكتمال عمل ناقص لديه . ومع ذلك ، فإن هذا الميكانيزم لا يفسر لنا فيما يبدو تلك الدوافع المستقلة التى تستمر طوال الحياة والتى نحن بصددها الآن . فإن الطفل لا يلبث فى آخر الأمر حتى ينتهى من تعلم الكلام ، وما تلبث الأعمال أن تكتمل عادة . هنا يجيب ألبورت بأنه على الرغم من أن المهارات العضلية يتم التمكن منها عادة ، إلا أن المهام الكبرى فى الحياة ــ وهى الفن والعلم والدين ــ لا يمكن بحكم طبيعتها أن تصل يومًا إلى حالة الاكتمال أبدًا . ولذلك ، وجدنا دائمًا أن هناك دوافع فى هذه المجالات باستمرار .

وقد تعرضت نظرية الاستقلال الوظيفى للنقد من كثيرين لعل أقدرهم وأقساهم هو بيتر بتروتشى Peter Betrocci . ويقول بتروتشى : إن العملية التى يصفها ألبورت من أنها عادة تكتسب الاستقلال الوظيفى هى فى حقيقة الأمر عادة تنتقل من دافع قديم إلى دافع جديد . فالعادة لا تتحرر تمامًا من كل الدوافع ، وإنما تتحول إلى خدمة أسياد جدد . ويضرب لذلك المثل بالرجل الخيال الذى ينزل عن صهوة جواده ليمتطى جوادًا آخر .

ويتفق بتروتشى مع ألبورت على أن البحار السابق الذى يحب البحر لا يكون دافعه فى ذلك شيئًا بسيطًا من نوع ما يتبقى من دافع الجوع . ولكنه يقول إن على المرء ألا يفترض أن عشق البحر قد أصبح منسلخًا عن كل الدوافع الأصلية إلا إذا كان قد افترض من قبل ذلك أنه لم يكن لديه من دافع إلا الجوع فقط فى بداية الأمر . ويرى بتروتشى أن البحار الشاب قد تكون دفعته دوافع أخرى أساسية مثل الدافع إلى الاجتماع بالآخرين ، والدافع إلى إثبات الذات ، والدافع إلى الاستطلاع . ثم نجده الآن ، بعد أن صار رجلاً بدينًا فى منتصف العمر يمتلك

مصرفًا ، ينظر إلى الصور البحرية من حوله . فتعود إليه الذكريات عن مزاحه الخشن السابق مع زملائه فى السفينة ، والاستثارة التى كانت تنطوى عليها الأعاصير الشديدة وروائح الموانئ الشرقية وعطورها . وقد تظل لديه نفس الدوافع القديمة ، ولكنها تكون غير مشبعة بعد أن أصبح يحيا حياة روتينية . تفصله عن الناس طبقات من السكرتاريين والموظفين ، وتحيط به حوائط خشبية مزخرفة تفصله عن مغامرات الحياة . ولذلك ، فلا عجب أن نجده قد أصبح يحن إلى البحر !

الدوافع المكتسبة والإثابات المكتسبة

أكثر المحاولات لتفسير اشتقاق الدوافع الثانوية من الدوافع الفسيولوجية حظاً من المنهجية هى نظرية نيل ميللر عن الدوافع المكتسبة والإثابات المكتسبة . وهى نظرية تختلف عن النظرتين الأخريين فى أنها تولى اهتمامًا عظيمًا لميكانيزم الاشتقاق ، وفى أنها تسعى إلى التحقق التجريبى . والفكرة الأساسية هنا هى أن المثير المحايد الذى يزواج بينه وبين بداية دافع أولى ينتهى به الأمر إلى إثارة دافع بمفرده . كما أن المثير المحايد المرتبط بإثابة أولية يكتسب بعض القيمة الإثابية الخاصة به فى آخر الأمر .

ولعلنا نذكر أن تجربة ميللر الأساسية عن الخوف بوصفه دافعًا مكتسبًا سبق أن عرضناها فى الفصل الخاص بالدوافع الانفعالية . كان ميللر قد ربط القسم الأبيض من الجهاز الموضح فى الشكل رقم (٧) بالصدمة الكهربية ، والهروب إلى القسم الأسود بالخفض من الألم . وبعد ذلك ، عندما وضعت الحيوانات فى القسم الأبيض بدون صدمات أظهرت خوفًا مكتسبًا . وكانت قد تعلمت أن تستجيب استجابة توصلها إلى القسم الأسود حيث كانت تثاب بخفض الخوف . وهكذا أصبح القسم الأبيض مصدرًا مكتسبًا لدافع الخوف ، والقسم الأسود أصبح يعمل بوصفه نوعًا مكتسبًا من الإثابة .

وقد تمكنت دراسات قام بها ولف Wolfe وكذلك كاولز Cowles من إثبات أن من الممكن اكتساب إثابة مكتسبة على أساس من دافع إيجابى مثل الجوع . ذلك أن فيشات البوكر لا تكاد تكون لها قيمة عند الشمبانزى . ولكننا إذا علمنا هذه الحيوانات أن تضعها فى ماكينات البيع لتحصل على العنب ، أصبحت هذه الفيشات أنواعًا من الإثابة المرتفعة الكبيرة . بل إن الشمبانزى تستطيع أن تتعلم أن تجذب ذراعًا وأن تتخير الصندوق الصحيح من أجل أن تحصل على الفيشة ، حتى وإن لم تكن تستطيع أن تستبدل بالفيشات الطعام إلا عند نهاية الفترة اليومية . على أنه ينبغى الالتفات ، مع ذلك ، إلى أن القيمة الإثابية لفيشات البوكر تتوقف على درجة الجوع عند الشمبانزى والحصول على العنب من ماكينات البيع . ومن هذه الناحية تصبح الفيشات أشبه بالنقود ـ ولنذكر أن النقود هى أيضًا تفقد قدرًا كبيرًا من قيمة المبادلة فى حالات التضخم الاقتصادى .

ولم تسلم نظرية الدوافع المكتسبة من النقد. فقد ذهب جدسون براون Judson Brown إلى أن الخوف وحده هو الذى تتوافر فيه الشروط اللازمة للدافع المكتسب . ذلك أن دافع الخوف يستثيره مثير ، كما أنه استجابة متعلمة لهذا المثير ، وهو يسهل الاستجابة ، كما أن خفضه يعمل بوصفه نوعًا من الإثابة . ولكن هذا التحليل نفسه لا يمكن أن يمتد لينطبق على شىء مثل الدافع المكتسب إلى النقود أو الفيشات . صحيح أن المال يؤدى بدون شك وظيفة **الإثابة** المكتسبة . ولكن ما هو **الدافع** المكتسب الذى تعمل الإثابة على خفضه ؟ أعنى أنك لا تجد هنا مثيرًا ، يكون شبيهًا بمثير الخوف ، ويستثير الرغبة فى المال . كما أن حرمان الشخص من المال ، من قبل أن يكون قد تعلم قيمته لا يخلق لديه « الدافع إلى المال » . ولذلك ، يرى براون أن القيمة الإثابية المكتسبة للعملة أو الفيشة تتوقف على دوافع أخرى مثل الجوع أو القلق .

وقد أثار نيل ميللر نفس المشكلة ولكن فى سياق مختلف عن ذلك قليلاً . ذلك أنه يبين أن كل الدراسات التى أثبتت وجود **الدافع** المكتسب إنما تعتمد على

دوافع سلبية مثل الألم . وعلى الرغم من أن الإثابات المكتسبة يمكن أن تعتمد على دوافع إيجابية مثل الجوع ، إلا أننا لا نجد دراسة واحدة تبين لنا بوضوح وجود الدافع المكتسب على أساس من الجوع . بل إن ميللر نفسه قد عجز عن ذلك على الرغم من كثرة محاولاته . ومن ذلك ، مثلاً ، أن آرلو مايرز Arlo Myers بالاشتراك مع ميللر حاول أن يبين وجود الدافع المكتسب المرتكز على أساس من الجوع فى نفس الجهاز المستخدم لإثبات وجود الخوف المكتسب . فقد وضعت الفئران فى القسم الأبيض عند ماكانت جائعة ، وكانت تستطيع أن تدخل القسم الأسود بمجرد أن تلمس الباب الذى كان ينحدر عندئذ إلى أسفل تلقائياً . وفى القسم الأسود كان يسمح لها بأن تأكل قرصًا من الطعام . وأعطيت المجموعات المختلفة من الفئران أعدادًا متفاوتة من محاولات التدريب هذه . (٧٠ أو ٣٠ أو ١٠ أو صفر من المحاولات) بحيث أصبحت إشارات القسم الأبيض مرتبطة بحالة الجوع ، وإشارات القسم الأسود بخفض الجوع .

ثم أجرى اختبار للكشف عن وجود دافع متعلم مرتكز على الجوع ، وكان الاختبار موازيًا للدراسة السابقة التى بحثت فى الخوف المكتسب . فى أول الأمر كانت الحيوانات تطعم وتسقى حتى الشبع والارتواء لعدة أسابيع . ثم توضع عندئذ فى القسم الأبيض .. وهذا يشبه وضع الفئران فى الجهاز من غير صدمات كهربية . ولم يكن الباب الموصل إلى القسم الأسود يمكن فتحه بمجرد اللمس ، وإنما كان لابد لفتحه من استجابة جديدة ــ هى الضغط على قضيب . فلو أنه كان هناك دافع مكتسب مرتكز على الجوع ، لأصبح من المتوقع أن تكون المجموعات التى حصلت على أكبر عدد من محاولات التدريب أسرع فى تعلم الضغط على القضيب . كما أن المجموعة التى لم تحصل على محاولات تدريب لا يتوقع لها أن تظهر شيئًا من التعلم ، فإنه لم تكن لديها فرصة على الإطلاق لاكتساب الدافع . ولكن النتائج ، مع ذلك ، لم تظهر وجود اختلافات أو فروق بين المجموعات فى تعلم الضغط على القضيب . أى أن المجموعات كلها تساوت فى القدرة على التعلم . أى أنه لم يتم اكتساب دافع إضافى على أساس من الجوع .

وهناك جانب آخر طريف فى تجربة مايرز وميللر هذه . ذلك أن المجموعة الضابطة ـ وهى تلك المجموعة التى لم يسبق لها أن خبرت الحصول على الطعام فى القسم الأسود ـ تعلمت أن تضغط على القضيب من أجل أن تدخل فى القسم الأسود . ولنتذكر أن هذه الفئران كانت دائمًا فى حالة شبع ورى بحيث أنه لم يكن لديها من دافع الجوع أو دافع العطش شىء . هنا يقول ما يزر وميللر إن هذه الحيوانات كان يدفعها الدافع إلى « الاستكشاف » .

الدليل على السلوك المدفوع ذاتياً

رأينا كيف أن النظريات المختلفة التى تحاول تفسير الدوافع المشتقة ـ من الإعلاء ، والاستقلال الوظيفى ، واكتساب الدوافع والإثابات ـ بها جوانب ضعف وقصور . وإنه لمن الصعب أن نفسر قدرًا كبيرًا من سلوك الإنسان بهذه النظريات . لكن هذا لا يعنى أن الفضول ، والاستكشاف ، وما شابه ذلك لا يمكن تفسيره على أساس من دوافع مثل الجوع ، والجنس ، واستحسان الوالدين . فإن الفأر **يمكن** تدريبه على كثرة الاستكشاف بأن نضع له **طعامه** دائمًا فى أماكن جديدة غير ظاهرة . كما أن حدة الفضول الجنسى عند الطفل **يمكن** أن نزيد من حدتها بأن نجعل الأمر محرمًا . واهتمام الولد بالرياضة **يمكن** تقويته باستحسان الوالدين له .

هنا ينبغى لنا أن نميز بين الدافع **الخارجى** والدافع **الذاتى** . فإنه ما من استجابة تقريبًا إلا ويمكن أن يتم تعلمها وأداؤها على أساس من إثابة من قبيل الطعام أو الاستحسان ، بما فى ذلك الاستكشاف واللعب . وفى أمثال هذه المواقف تكون الإثابة أمرًا خارجياً بالنسبة للنشاط ـ أعنى أنه لا تكون هناك رابطة ملازمة فيما بين النشاط والإثابة . فالنشاط يتم أداؤه أو القيام به **من أجل** الحصول على الإثابة . ولكن الاستكشاف ، واللعب ، وأوجه النشاط الأخرى قد تكون أيضاً مثيبة إثابة ذاتية ـ أعنى أن الفرد قد يزاول هذه الأنشطة لذاتها ، أو لما تتضمنه من لذة أو إشباع . فالإثابات الخارجية لا يمكنها أن تفسر لنا ذلك النوع من سلوك اللهو

الذى أظهرته ابنتى فى حديقة الدار . وإنما كان أكثر هذا النشاط فيما يبدو من النوع المدفوع ذاتياً .

وفيما يلى سوف نقدم الدليل على عدة أنواع جديدة من الدوافع ـ الحسية ، والفضولية ، والنشاطية ، والتناولية ، والمعرفية . وهذه يبدو أنها مستقلة عن الدوافع الأخرى ، وهى لا يتم تعلمها على أساس من دوافع أكثر بساطة . كما أنها تنطوى على سلوك يتضمن دافعية ذاتية ، وسوف نسميها دوافع ذاتية .

الدوافع الحسية

النظريات الكلاسيكية فى الدوافع افترضت أن الكائن العضوى يسعى فى أساسه إلى التخفف من الاستثارة أو خفضها . نشهد هذا الرأى فى النظرية السلوكية عند كلارك هل ، وفيها نجد المثيرات الدافعة من داخل الكائن العضوى أو من خارجه توجه الكائن نحو النشاط إلى أن يتم العثور على وسيلة يستبعد بها الدافع . ومن هنا كانت الإثابة عبارة عن خفض الدافع وما يصحبه من مثيرات . كذلك نجد الفكرة ذاتها فى نظرية التحليل النفسى عند فرويد ، وفيها نجد وظيفة الدماغ عبارة عن خفض كل أنواع الاستثارة أو القضاء عليها . فالهدف النهائى هنا هو حالة من النرفانا ـ حالة ليس فيها من الاستثارة شىء .

لاشك ، طبعا ، أن الناس تسعى إلى تجنب الاستثارة البيئية المفرطة والتوتر الداخلى . وما أن يقبل الصيف حتى تجد معظم سكان المدينة على استعداد لمغادرة ضجيج المرور ، وضغوط الأعمال ، ولغط الحديث الذى يدور فى الحفلات من أجل الهدوء والسكينة فى الريف . ولكننا نجد أن الشخص الذى خرج فى إجازة لا يلبث ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ أن يسأم ويبدأ التفكير فى الاستثارة مرة ثانية ـ مشاريع جديدة ، أفكار جديدة ، أمور جديدة يتحدث عنها المرء . فالظاهر أن الناس لا تسعى إلى انعدام الاستثارة ولا إلى الاستثارة المفرطة ، وإنما تسعى إلى مستوى أمثل من الاستثارة على أن يتضمن شيئًا من التغيير .



شكل ٨ – واحد من المفحوصين فى تجربة الحرمان الحسى . أما الأغلفة فوق اليدين فتمنع اللمس . وأما النظارات البلاستيكية فتسمح بالضوء المنتشر المبعثر ولكنها لا تمكن من إدراك الأشكال . وفى العادة تغطى الأذنان بواسطة مخدة من الأسفنج الرغوى ولكنها فى هذا الشكل قد حل محلها جهاز التسجيل الكهربى لنشاط المخ . وعلى السقف جهاز لتكييف الهواء يموه الأصوات ويخفض من الإحساس بالحرارة . ويقوم المفحوص بتقرير مشاعره وخبراته عن طريق الميكروفون .
(صورة مأخوذة عن Gateways to the Mind, Bell system science series film).

أما الرغبة الشديدة عند الناس فى الاستثارة البيئية فتتضح بشكل صارخ فى الدراسات التى أجريت على **الحرمان الحسى** فى جامعة ماكجيل . فقد أتيحت لطلاب الكليات ما يبدو فى ظاهر الأمر بمثابة الوظيفة المثالية . كانوا يُنقدون عشرين دولارًا فى اليوم مقابل ألا يعملوا شيئًا – على الإطلاق ! كانوا يرقدون على سرير مريح فى غرفة صغيرة كما يبدو فى الشكل رقم (٨) . وكانت النظارات التى يضعونها على أعينهم لا تسمح بأن تدخل إليهم إلا ضوءًا منتشرًا مبعثرًا . وكانت لفافات من الكرتون تغطى أيديهم لتمنعهم من اللمس . كما كانت

الأصوات تموه عليهم أو تغطى بواسطة طنين صادر من جهاز تكييف وغطاء للرأس من المطاط الإسفنجى. ولم يكن الطلاب يعملون شيئا فيما عدا أنه كانت تقدم لهم فترات زمنية قصيرة للأكل، وقضاء الحاجة، والتعرض للاختبارات. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل النظريات، وجد الطلاب أن حالة النرفانا هذه لا يمكن لهم أن يطيقوها أو يتحملوها. وأحسوا بالحاجة الشديدة إلى الاستثارة حتى أنهم كانوا يطلبون الاستماع إلى نشرة قديمة عن الأوراق المالية مرات ومرات. وعلى الرغم من أنه طلب إليهم أن يظلوا أطول فترة ممكنة بالنسبة لهم، إلا أن معظمهم لم يتمكنوا من تحمل الأمر لأكثر من يومين أو ثلاثة. وقد فضلوا أن يمارسوا أعمالاً أكثر مشقة، وبأجور أقل، ولكن فى بيئة مثيرة.

وقد تعرض كثير من الأشخاص لخبرات غريبة خلال فترة الحرمان الحسى. فى أول الأمر كانوا يحاولون التفكير فى مشكلات شخصية وعقلية. ولكنهم بعد فترة عجزوا عن التركيز أو مواصلة تيار التفكير. ومرت بهم فترات من الخلط، والقابلية للتهيج، والعناء. وأخيرًا بدأوا يخبرون الهلاوس البصرية ــ كانت تظهر لهم نقط من الضوء، ثم أشكال هندسية، وأخيرًا مشاهد حية واضحة. وقد اختفت هذه التأثيرات بعد انقضاء التجربة.

دوافع الفضول

البحث عن المثيرات ليس أمرًا عشوائياً. وإنما من الجوانب الهامة فى الاستثارة التى تشد اهتمام الناس جانب **الجدة** أو الطرافة. والجدة يمكن تعريفها وتحديدها على أساس مقدار ما لدى الفرد من خبرة سابقة بالمثير. وفى بعض الأحيان يصعب علينا أن نحدد مدى جدة المثير لأننا لا نكون على علم بالخلفية الكاملة عن هذا الشخص. ومع ذلك، نستطيع أن نقول إن المثير يستثير **الفضول** فى الحيوان أو الطفل أو الراشد بحسب جدته وطرافته. ولو أن المثير كان مفرطًا فى الجدة، أو لو أنه قدم إلى الكائن بدرجة مفرطة من الفجاءة لترتب على هذا أن يؤدى المثير إلى الخوف والتجنب بدلاً من الاهتمام به والإقبال عليه.

وقد نشر سلفاتورى مادى Salvatore Maddi تقريرًا عن تجربة توضح لنا وجود دافع يدفع الناس إلى تحصيل قدر معتدل من الجدة. وذلك أنه سمح لبعض الأطفال فى مدارس الحضانة باللعب بمجموعة من ثمانى لعب كانت على منضدة. ثم سمح لهم بعد ذلك بأن يتخيروا واحدة من خمس مناضد من اللعب للعب الإضافى . وكانت إحدى هذه المناضد تحتوى على اللعب الثمانية نفسها (أى أن درجة الجدة هنا كانت صفرًا بالمائة) . بينما كانت منضدة أخرى تحتوى على ست لعب قديمة ولعبتين اثنتين جديدتين (أى درجة الجدة هى ٢٥ بالمائة) . وأما الثالثة فكانت تحتوى على أربع قديمة وأربع جديدة (درجة الجدة خمسون بالمائة) . والتالية اثنتين قديمتين وست جديدة (جدة بنسبة ٧٥ بالمائة) . والأخيرة كلها لعب جديدة (جدة بنسبة مائة بالمائة) . وقد تخير الأطفال ، فى مجموعهم ، المناضد فيما بين ٢٥ بالمائة ـ ٧٥ بالمائة من الجدة . وتجنبوا حالات الإفراط فى الألفة أو فى الجدة . أى الألفة الكاملة والجدة التامة .

وعلى الرغم من أن الجدة هى أكثر الجوانب الباهرة فى المثير التى تدعو إلى الفضول ، إلا أن هناك جوانب أخرى لها أهميتها أيضًا . فلو أننا عملنا على تثبيت درجة الألفة لوجدنا الأطفال يشتد فضولهم بالنسبة للمثيرات التى تتصف بالشدة ، أو كثرة الألوان، أو التعقيد. كما أن دانييل برلاين Daniel Berlyne أثبت أن لعنصر المفاجأة أهميته أيضًا . مثال ذلك أنه لو عرضنا سلسلة من التصميمات المثلثة ثم أعقبها تصميم دائرى، لأثار ذلك قدرًا أكبر من الفضول . كما أن الفضول يزداد عند عرض صورة غير متوقعة وغير متوافقة لأسد يحمل رأس فيل . وإن كان بعض الباحثين يرون فى كل هذه الجوانب نوعًا من الجدة .

على أن بعض هذه المتغيرات متضمن فى تقديرنا نحن الكبار للموسيقى والفن والشعر . فنى السيمفونية الرائعة تجد هناك تنويعات كثيرة على الأفكار الرئيسية ، وفقرات غير متوقعة وهى كلها تلتئم خلال الحركة . والفنان الحديث الكبير ، من أمثال بيكاسو ، يدخل عن قصد عامل الجدة ، والتنافر ، وعدم التوافق ـ بل وقد يزيد من ذلك إلى حد لا يقبله الشخص العادى . ومع ذلك ، فإن الدراسة الدقيقة

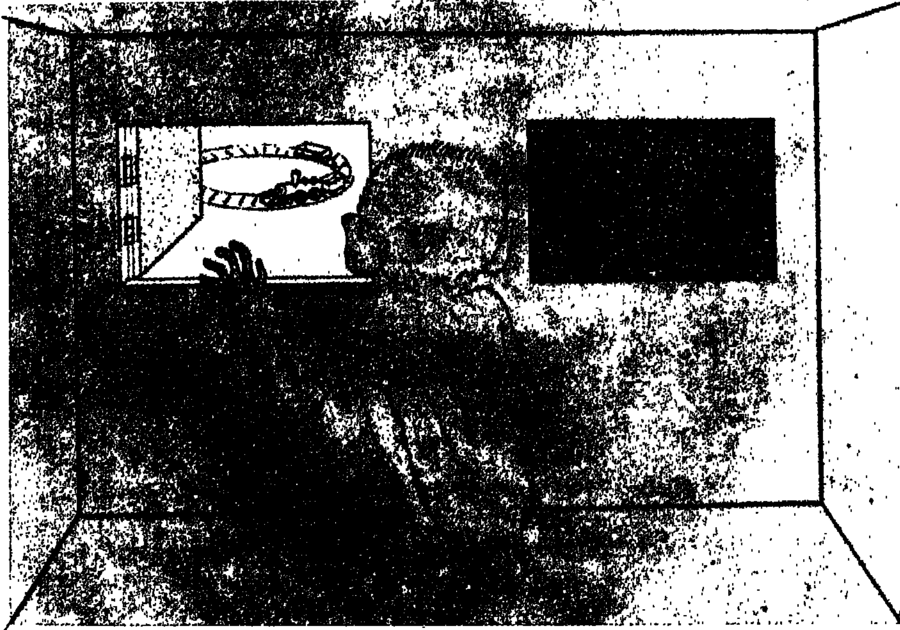
لعمل لبيكاسو سوف تكشف لنا عن الانسجام والالتئام بشكل دقيق . ولتقرأ مقطوعة غنائية من عند شيكسبير لتلاحظ الالتئام فى البيتين الأخيرين . كما أن الناس يمكنها بالتدريب السليم المناسب أن تجد فى هذه الألعاب رفيعة المستوى القدر الهائل من الإمتاع .

ثم إن كل الأشياء تصبح تافهة بغيضة بعد فترة . فما تلبث أن تسأم من تشايكو فسكى وتتحول إلى باخ . وهذه هى عملية التعود . ذلك أن الجدة تتناقص كلما تكرر العرض . وتقديم المثير المألوف إلى الطفل يؤدى إلى الضجر بل والنفور . وكلما ازداد حظ المثير من الجدة أو التعقيد ، طالت فترة التعود . وبعد أن يقع التعود ، ولايتم عرض المثير فترة من الوقت ، وجدنا أن **استعادة** الإثارة قد تحدث. واستعادة الإثارة تتوقف على درجة الجدة التى كان يتمتع بها المثير فى أول الأمر ، ومقدار العرض ، والزمن الذى انقضى بعد آخر مرة عرض فيها المثير . والمثير قد يعود إلى مستواه الأصلى من إثارة الاهتمام . فإنه بعد انقضاء عشر سنوات نجد أنه حتى تشايكوفسكى قد يستثير فضولنا .

والفضول نجده عند الأطفال الصغار جداً . فقد لاحظ جان بياجيه Jean Piaget ، ذلك الرجل السويسرى العظيم الذى اشتغل بسيكولوجية النمو ، وجود الفضول عند ابنه لوران Laurent وهو لا يزال فى الشهر الثالث من عمره . إذ علق بياجيه « خشخيشة » فوق مهده مربوطة بخيط ، فأنفق لوران خمس عشرة دقيقة وهو يهزها ويقهقه ضاحكًا . ولم تكن هناك إثابات خارجية متضمنة فى هذا العمل .

كذلك درس روبرت بتلر Robert Butler وأعوانه الفضول عند القردة . وكان كل قرد فى هذه الدراسات يوضع فى صندوق مظلم خافت الإضاءة به نافذتان صغيرتان مغطاتان . ويتضح هذا فى الشكل رقم (٩) . وكانت إحدى النافذتين مطلية باللون الأصفر ، والأخرى مطلية باللون الأزرق ، مع بقاء النافذة الصفراء مغلقة دائمًا والزرقاء غير مغلقة . فإذا ضغط القرد على النافذة الزرقاء انفتحت النافذة مما يسمح له برؤية غرفة المختبر لمدة ثلاثين ثانية . ولم يقتصر الأمر على تعلم القردة لهذه

الأستجابة من أجل الحصول على الإثابة التى هى الاستكشاف البصرى ، بل إن القردة أظهرت نهمًا شديدًا لمثل هذه الإثابة بحيث أنها لم تكد تظهر شيئًا من التشبع أو الاعتياد . وقد اختبرت مجموعة من القردة لمدة عشر ساعات فى اليوم لمدة ستة أيام متتالية فأظهرت القردة استكشافاً بصرياً ثابتاً إلى حد معتدل بنسبة ٤٠ بالمائة من المرات .



شكل ٩ـ قرد من نوع الريزوس مع جهاز الاستكشاف البصرى . والقرد هنا يتعلم أن يدفع ليفتح نافذة غير مغلقة بالمزلاج ليرى ما هو خارج الغرفة لمدة ثلاثين ثانية .
(صورة صنعت على مقتضى الأوصاف التى وردت فى : B. A. Butler.
Discrimination learning by Rhesus monkeys to visual - exploration motivation. J. Comp. Physiol. Psychol., 1953, 46, 95-98).

وتتوقف قوة هذا الدافع على طبيعة المثير البصرى . فقد كان فتح النافذة يتم بتكرار أقل عندما كانت الإثابة عبارة عن غرفة خالية منه عندما كانت الإثابة عبارة

عن غرفة فيها لعبة القطار الكهربى وهو يتحرك . كما أن أقوى درجات الإثابة كانت عبارة عن التطلع إلى قرد آخر . كما كانت الأصوات مثيبة كذلك . فقد استجابت القردة لتستمع إلى القطار أو القرد ، ولكن بتكرار أقل من استجابتها لرؤية القطار أو القرد . ثم إنه ليست كل المثيرات مثيبة . فإن القردة لم تتعلم الاستجابة من أجل أن تشهد كلبًا كبيرًا أو قردًا آخر يتألم .

ثم إن الفضول عند القردة يتوقف كذلك على مقدار الحرمان من المثير . فقد حرم بتلر القردة من الخبرة البصرية لمدد مقدارها صفر ، ٢ ، ٤ ، ٨ ساعات . وكانت الإثابة عبارة عن التطلع لمدة مقدارها اثنتا عشرة ثانية إلى مستعمرة القرود . وتبين أن الاستجابة تزداد بازدياد طول فترة الحرمان حتى أربع ساعات ، ثم استقرت الزيادة بعدئذ . وتوضح هذه التجربة أن هناك نوعًا ما من الدافع الداخلى يدفع إلى طلب الإثارة الجديدة ـ ولعله مرتبط بوظائف الدماغ ـ وأن هذا الدافع تتزايد قوته بمرور الوقت .

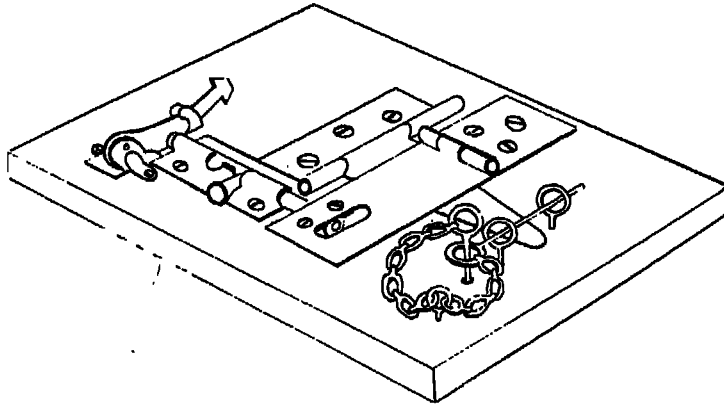
دوافع النشاط والتناول

بالإضافة إلى الدوافع إلى الإثارة الحسية والمثيرات الجديدة ، نجد عند الطفل الناشئ دافعًا يدفعه إلى **عمل** الأشياء ـ الجرى ، التسلق ، القفز ، الإمساك ، الإسقاط ، الفتح ، الإغلاق . وأبرز ما نشهد هذا يكون فى كفاح الطفل الصغير من أجل أن يمشى . ذلك أن الطفل يشد نفسه ليقف ، ويتعثر بضع خطوات ، ثم يسقط ، ثم يشد نفسه ليقف مرة ثانية ، وليحاول ثانية . وهذا الكفاح العالمى العام لا ينال إثابة من أى نوع خارجى بسيط ـ بل الواقع أن الطفل يعانى الألم ، ويكون فى أول الأمر أقل نجاحًا فى الحصول على الأشياء مما كان عن طريق الحبو . كما أن استحسان الوالدين لا يبدو أنه العامل الحاسم فى تعلم المشى .

كذلك ينفق صغار الأطفال قدرًا كبيرًا من الوقت فى أنشطة تناول الأشياء باليد من قبيل وضع الإصبع فى الخاتم ، ثم نزع الخاتم من الإصبع . وقد تمكن هارى هارلو وأعوانه من إثبات وجود دافع إلى تناول الأشياء باليد عند القردة .

وفى هذه الدراسات يوضع لغز ميكانيكى من النوع الموضح فى الشكل رقم (١٠) فى قفص القرد . وقد تعلم القردة أن يفكوا هذا النوع من اللغز بالعمل الدائب . وازداد عدد الاستجابات الصحيحة على فترة من الاختبارات اليومية دامت اثنى عشر يومًا حتى كادت القردة تصل إلى مستوى الكمال . ولابد أن جدة المثير قد زالت من قبل ذلك ، بحيث يمكن القول إن الدافع الأولى كان الرغبة فى إتقان حل المشكلة أو تناولها .

كما أن الاهتمام بالألغاز الميكانيكية يمكن أن ينخفض بالتشبع ، وذلك بعد أن تترك الألغاز فى الأقفاص فترة طويلة من الزمن . وقد وجد هارلو فى دراسة للتشبع بعد عشر ساعات أن عدد الأجزاء التى يتم فتحها فى اللغز يتناقص . فالظاهر أن تأثير التشبع يشبه التعود على المثيرات الجديدة .



شكل ١٠ - لغز ميكانيكى من ستة أجزاء يستخدم لدراسة الدافع إلى التناول والاستكشاف عند القردة . والقردة هنا تتعلم حل الألغاز وفك أجزائها من غير أن يكون هناك دافع خارجى يدفعها إلى ذلك .

(نقلا عن H. F. Harlow. Learning and satiation of response in intrinsically motivated complex puzzle performance by monkeys. J. Comp. Physiol. Psychol., 1950, 43, 289-244).

فى هذه الدراسات لم تكن تستخدم أية إثابة خارجية . ولكنه تبين بعد ذلك أن إضافة إثابة بالطعام على حل المشكلة لم يزد من كفاءة التعلم . والذى حدث ، بدلاً من ذلك ، هو أن السلوك العام اختلف وتغير . كما أن الحيوانات التى كانت تثاب بالطعام استخدمت اللغز لمجرد الحصول على الطعام ، وكان اهتمامها قليلاً بالتناول لذات التناول . ولعل هذا هو ما يحدث عندما نحول نشاطًا مثيبًا إثابة ذاتية داخلية إلى استجابة تستخدم للحصول على إثابة خارجية . إن صغار الأطفال يتميزون بالرغبة الشديدة فى تعلم عمل الأشياء . ولكن هذه الرغبة الجارفة الشديدة سرعان ما تضيع بعد أن نعرضُهم للتربية الرسمية المدرسية . وقد يكون من أسباب ذلك أن نشاط التعلم ، ذلك النشاط المثيب إثابة ذاتية داخلية يتحول إلى استجابة تستخدم فى الحصول على تقديرات مرتفعة ، أو استحسان المدرسين والأبوين ، أو الوصول إلى الكلية حيث يمكن التعرف على زوج مناسب ، أو حيث يمكن تحقيق بداية مناسبة فى مجال العمل .

الدوافع المعرفية

الدوافع التى وصفناها حتى الآن فى هذا الفصل يمكن أن ننظر إليها على أنها تتضمن الاستخدام الممتع للجهاز الحسى والجهاز العضلى عند المرء . فلماذا ، إذن ، لا تكون هناك دوافع تتضمن استخدام جهاز التفكير عند الإنسان استخدامًا ممتعًا ؟ والوظائف المعرفية هى تلك الوظائف المتضمنة فى التفكير ، واستخدام الرموز ، وحل المشكلات . والأطفال يجدون فى هذه الأنشطة متعة كبيرة ــ فهم يحبون الألغاز ، والأناشيد ، والألعاب العقلية . وهم يحبون أن يحلوا المشكلات ، وأن يلعبوا بالأرقام إذا لم تقف دونهم عوامل حضارية . بل إن الكبار المتعبين يستمتعون بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة ، وبلعب الشطرنج ، وحل المشكلات . كما أن كثيرًا من العلماء ، والمهندسين ، ورجال الأعمال ، والأطباء ، والحرفيين وغيرهم يجدون المتعة الحقة فى أعمالهم عندما تواجههم التحديات ويطلب منهم حل المشكلات الصعبة .

صحيح أن التفكير، والتذكر، وغير ذلك من العمليات المعرفية تعمل فى خدمة دوافع من قبيل الجوع، والقلق، والحاجة إلى الاستحسان. وقد سبق أن قدمنا عددًا من الأمثلة على ذلك فى الفصل الثانى. كما أن استخدام العقل قد يكون ممتعًا مشبعًا إشباعًا ذاتياً. ولكن المتعة، كما حدث بالنسبة لقردة هارلو، قد تنتزع من العمليات المعرفية المدفوعة بذاتها، إذا نحن حولناها إلى وسائل لخدمة غايات خارجية.

وقد تركز انتباه علماء النفس فى السنوات الأخيرة على جانب محدد من الدوافع المعرفية. وعلى الرغم من أن هذا الجانب جانب واحد محدود فقط من العملية، إلا أنه قد يحدد بداية عصر استكشاف للجوانب المختلفة من الدوافع المعرفية. هذا الجانب المحدد الذى نشير إليه هو الدافع الذى يدفع المرء إلى أن يكون منطقياً، متسقًا اتساقًا داخلياً، حتى تكون العلمليات الفكرية المختلفة متفقًا بعضها مع بعض. وقد قام ليون فستنجر Leon Festinger وأعوانه بتنمية هذه الفكرة إلى أكبر حد فى نظريته عن **التنافر المعرفى**.

ذلك أن فستنجر يرى أن الأفكار المحددة أو أجزاء المعلومات التى تتوفر لدى الشخص قد تكون متناسقة أو غير متناسقة بعضها مع بعض. فإن كانت متناسقة، وجدنا لدينا حالة من الانسجام، أو الاتفاق، ولم نكن بصدد أية مشكلة.. أما إن كانت لدينا قطعتان من المعلومات غير متناسقتين، أو متعارضتين تناقض إحداهما الأخرى، وجدنا لدينا حالة من التنافر تكون غير مريحة، وتدفع الشخص إلى خفض التنافر واستعادة الانسجام.

ويضرب فستنجر المثل على ذلك الشخص الذى (١) يعلم أن التدخين ضار بالنسبة له، ولكنه (٢) يستمر فى التدخين. وكما يقول فستنجر[1] :

> ... إن الشخص الذى يستمر فى التدخين، وهو يعلم أنه مضر لصحته، قد يشعر كذلك (أ) أنه يستمتع بالتدخين استمتاعًا كبيرًا يستحق من أجله تحمل الضرر،

---

(1) L. Festinger. A theory of cognitive dissonance: Stanford university press, 1957, p.2.

(ب) أن فرص تعرض صحته للضرر ليست بالخطورة التى يصورها الغير . (جـ) أنه لا يستطيع دائماً تجنب كل احتمال للضرر . ومع ذلك لا يزال يعيش . (د) أنه حتى وإن توقف عن التدخين قد يتعرض للسمنة التى تكون مضرة لصحته بنفس الدرجة . ولذلك يصبح الاستمرار فى التدخين فى آخر الأمر ، متسقاً مع أفكاره عن التدخين .

فى هذا المثال نجد ظاهرة التنافر المعرفى قد دفعت إلى التبريرات . وقد أوردت جماعة فستنجر الدليل على صحة نظرية التنافر المعرفى فى طائفة متنوعة من المواقف . مثال ذلك أن الشخص عندما يتوصل آخر الأمر إلى قرار يختار فيه واحدًا من أمرين متقاربين ، قد يجد نفسه أمام حالة من التنافر . فالرجل الذى يشترى لنفسه سيارة من نوع معين ، بعد أن يكون قد تدبر عدة أنواع مغرية أخرى ، قد يعذبه الشعور بأنه كان من الأفضل شراء نوع آخر غير الذى اشتراه . وقد أظهرت إحدى الدراسات أن الرجل فى هذه الحالة يحاول أن يخفض من حدة التنافر بأن يسعى جاداً لتحصيل المعلومات المنسجمة مع قراره ، وبأن يتجاهل المعلومات المتنافرة . وقد عرض على مجموعة من الناس الذين اشتروا حديثًا سيارة جديدة ، عدد من المجلات والجرائد التى اعتادوا شراءها وقراءتها والتى صدرت من بعد شرائهم للسيارة . ثم طلب إليهم أن يبينوا أى إعلانات السيارات قد لاحظوها وأيها قد قرأوها . وأظهرت النتائج أن المجموعة قرأت من بين الإعلانات التى لاحظوها ، نسبة مقدارها (٦٥) بالمائة من تلك الإعلانات المتصلة بالسيارات التى سبق لهم شراؤها ، ونسبة مقدارها (٤٠) بالمائة فقط من الإعلانات المتصلة بالأنواع التى فكروا فيها ولكنهم لم يشتروها . مثل هذا التخير فى استقبال المعلومات الجديدة ساعدهم على تعضيد القرار الذى اتخذوه وخفض مستوى التنافر .

من الواضح أننا هنا بصدد ظاهرة شديدة التعقيد . وأن هناك عوامل أخرى يتوقع لها أن تؤثر فى الآراء والمعتقدات . ومع ذلك ، فإن الدافع إلى الوصول إلى الاتساق المعرفى الداخلى يبدو دافعًا واقعياً حقاً . والسؤال الهام المتبقى هو : إلى أى حد يكون هذا الدافع متعلمًا ؟ مما لاشك فيه أن التعلم متضمن فى اكتساب

الرموز المعرفية وأنظمة المعتقدات . ولكن جماعة فستنجر ، مع ذلك ، يؤمنون بأنه ، وإن كانت الأفكار أمورًا مكتسبة ، إلا أن التنافر بين الأفكار دافع أساسى شأنه فى ذلك شأن سائر الدوافع الأساسية الأخرى . الواقع أننا بحاجة إلى المزيد من الأبحاث فى المستقبل حتى نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال .

مفاهيم جديدة فى الدافعية

اكتشاف ـ أو بالأحرى إعادة اكتشاف ـ السلوك المدفوع بدوافع ذاتية ترتب عليه أن يعود الباحثون إلى تدبر المفاهيم الأساسية فى مجال الدافعية مرة ثانية . فالفكرة التى تقول بأن كل الدوافع تشتق من اختلال للاتزان الهوميوستازى الداخلى ـ وهى فكرة لا تفسر لنا بالفعل ، كما شاهدنا ، دوافع الجنس والجوع وماشابهها تفسيرًا كاملاً ـ تواجه صعوبة كبيرة عند تفسير الدوافع الذاتية .

وقد جعلت هذه الصعوبة روبرت وودورث ـ أحد السيكولوجيين البارزين فى هذا القرن ـ يرفض النظريات القائلة **بأولوية الحاجات** ، need-primacy theories ، مثل نظرية كلارك هل ونظرية سيجموند فرويد ، والتى تقصر الأهمية على الحاجات الداخلية . وقد اقترح وودورث ، بدلاً من ذلك ، نظرية فى الدافعية هى **أولوية السلوك** ، وفيها يكون التركيز على الكائن العضوى الذى **يتعامل مع البيئة** . وبذلك تصبح الدوافع الذاتية من الفضول والتناول وغيرها ، مما وصفناه فى هذا الفصل ، أمثلة على الدوافع التى تدفع المرء إلى تعلم التعامل مع البيئة .

وقد كتب روبرت هوايت Robert White بحثاً هاماً ذهب فيه إلى رأى شبيه بذلك . وعنده أن كل الدوافع الذاتية المحددة بمثابة جوانب من دافع عام واحد هو الدافع إلى **الاقتدار** . وهذا الدافع إنما ينشأ فى الدماغ فقط ، لا فى اختلال الاتزان الحشوى ، وليست له استجابة استهلاكية محددة ، كما أنه لا يشبه خفض للتوتر أو خفض للاستثارة . والوظيفة البيولوجية للدافع إلى الاقتدار هى الوصول إلى **الكفاءة** فى التعامل مع البيئة . والطفل المنغمس فى اللعب

لا يكون على وعى بهذا الهدف البيولوجى . وكل ما هنالك أنه يلعب ويلهو ويحصل على المتعة فحسب. وشبيه بهذا النشاط الجنسى . فالوظيفة البيولوجية هى تكاثر النوع ، ولكن السلوك تدفعه فى الفرد رغبة فى تحصيل اللذة .

سبق أن رأينا أنه فى مدرسة التحليل النفسى يرفض أصحاب سيكولوجية الأنا من أمثال هاينز هارتمان وزملائه فكرة فرويد عن الإعلاء. وإنما ينظر الآن إلى وظائف الأنا بوصفها مستقلة فى أساسها. وحتى لو أنها ارتبطت بدوافع جنسية وعدوانية ، إلا أنها قد تعود فتصبح مستقلة فى وقت لاحق .

على أنه ليست هناك نظرية مما ذكرنا حتى الآن ـ أولوية السلوك . الدافع إلى الاقتدار ، أو استقلال الأنا ـ تتضمن أن هذه الدوافع الجديدة تحل محل الدوافع الهوميوستازية المستقرة أو الدوافع الجنسية . وكل ما هنالك أن هذه النظريات ترى أن الجزء الأكبر من النشاط اليومى (عند الطفل بصفة خاصة) تدفع إليه دوافع ذاتية بصورة ثابتة غير ظاهرة ، وأن الدوافع التى هى أكثر إلحاحاً مثل الجوع تكون لها السيطرة والبروز لفترات محدودة نسبياً .

والظاهر أن الدوافع الذاتية إلى الاستثارة والنشاط دوافع فطرية ، وأن التعلم ليس له فيها إلا دور ثانوى فقط. ولذلك ، فإن هذه الدوافع الذاتية تقدم بعض التأييد لذلك النوع من نظريات الدوافع الذى يقوم على استخدام مفهوم الغريزة . وكذلك نجد أنه لما كانت اللذة متضمنة فى الاستكشاف والتناول ، وأن الألم والخوف قد تستثيرهما المثيرات التى يتم تجنبها ، فإن نظريات الدوافع الجديدة القائمة على مبدأ اللذة تصبح متفقة تماماً مع الدوافع الذاتية هذه .

وقد رأى هارى هارلو أن الدوافع الذاتية ، شأنها شأن الدوافع الأخرى ، تعتمد على مراكز فى الدماغ يتم تنبيهها عن طريق أعضاء الحس . وهو يرى أن الدوافع التقليدية ، مثل الجوع ، تنشأ عن استثارة للمستقبلات الداخلية (وهو يذكر هنا المستقبلات التى فى المعدة ، لكنه يمكن إضافة المستقبلات التى فى الهيبوثلاموس كذلك) ، على حين أن الدوافع الذاتية تنشأ عن المستقبلات

الخارجية مثل العين . وكلاهما قد يؤدى إلى تنشيط مراكز الدماغ . وقد سبق أن رأينا فى فصول سابقة أن الدوافع الهوميوستازية ، والجنسية ، والأمومية ، والانفعالية تعتمد تمام الاعتماد على مراكز الدماغ . وأما الدوافع الذاتية فإنه لم يتم التعرف بعد على مراكز محددة فى الدماغ بالنسبة لها. وقد ذهب رونالد ب لندزلى Ronald B. Lindsley إلى أن الجهاز المنشط الشبكى له اتصال بالأمر. كما أن الجهاز الطرفى قد يكون له اتصال كذلك مادامت الدوافع الذاتية تتضمن اللذة والألم . إن علينا أن ننتظر المزيد من الأبحاث لكى نفهم الأسس الفسيولوجية للدوافع الذاتية ، وإن كان من الجائز أن نتبين أنها شبيهة بالأسس الفسيولوجية للدوافع التقليدية .

كذلك قد يكون من الممكن أن تتمكن نظرية الدوافع التقليدية من تفسير هذه النتائج. فإن الاستجابة للمثيرات ليست أمرًا خاليًا من التمييز ، وإنما هى تتوقف ، إلى حد ما ، على حالة الدماغ ـ وبخاصة على مستوى الأداء الذى كان يعمل به من قبل أن نختبره اختبار الفضول أو النشاط . والظاهر ، كما يقول جدسون براون ، أنه من غير الصحيح أن يقال إن فضول قردة بتلر **يستثيرها** المثير، مادام أن القردة كانت تعمد إلى فتح النافذة من **قبل** أن ترى المثير. وإنما قد تكون حالة معينة مثل « الضجر » هى « الدافع » من وراء بعض هذه الدوافع الذاتية . ولنتذكر أن قردة بتلر كانت أكثر دافعية بعد الحرمان الحسى . ولذلك ، فإن صورة معدلة من نظرية الدافع بحيث تتضمن حالات الحرمان الخاصة هذه قد تتمكن من تفسير الدوافع الذاتية .

والآن ، وحتى نستدير بالمناقشة دورة كاملة ، نسأل : هل من الممكن أن تكون للدوافع الذاتية نتائج هوميوستازية فى آخر الأمر؟ بالتأكيد لا ، إن كنا نعنى بالهوميوستازية وظائف الأحشاء . ولكن أليس من الممكن أن يمتد مفهوم الهوميوستازية ليشمل وظائف الدماغ ؟ إن هذا متضمن فى كلام لندزلى عندما يقول:إن هناك مستوى معينًا من الاستثارة لابد منه حتى يقوم الدماغ بأداء وظائفه

بصورة سوية . والاضطرابات المعرفية الناتجة أثناء الحرمان الحسى تؤيد ذلك أيضاً . كما أن هناك أدلة أخرى قدمها رونالد هب تبين أن الاستثارة والنشاط ضروريان فى مرحلة الرضاعة من أجل النمو السوى للعمليات الإدراكية ، ولذلك ، يصبح من الممكن أن تكون ميكانيزمات الدماغ التى تتوسط الدوافع الذاتية وسيلة لضمان النمو الملائم للدماغ ولضمان حسن قيامه بوظائفه الأمر الذى يسهل التوافق مع البيئة .

وفى الختام نقول : إن ظهور السلوك المدفوع بذاته قد أثار عدة أسئلة حول النظريات التقليدية فى الدوافع . وأنه ظهرت مفاهيم جديدة ـ أولوية السلوك ، الدافع إلى الاقتدار ، واستقلال الأنا . وأن الدوافع الذاتية متسقة تمامًا مع نظريات الغرائز واللذة فى تفسير الدوافع ، كما يمكن تفسيرها بصور معدلة من نظرية الباعث . والدوافع الذاتية قد يتضح ، فى المستقبل ، أنها تتضمن ميكانيزمات للدماغ ووظائف شبيهة بتلك الوظائف المتضمنة فى الدوافع التقليدية .

الفصل السابع

مصادر الدافعية الاجتماعية

لنتدبر حالة شاب التحق حديثًا بالكلية ـ عامر بالآمال البراقة والتوقعات العريضة . ما الذى جعله يقرر أن يقضى أربع سنوات من عمره وهو يقرأ الكتب ، ويكتب الأبحاث والتقارير ، ويستمع إلى المحاضرات ، وقد كان يملك أن يحصل على عمل ، وأن يتزوج ، وأن يجد الإشباع لكل دوافعه الفسيولوجية؟ الالتحاق بالكلية لا يمكن تفسيره على أساس من الجوع ، أو العطش ، أو حتى الجنس .

إن من الممكن بالطبع أن يكون الطالب مدفوعاً بدافع فضول ذاتى ـ تعطش لا يرتوى إلى المعرفة . وهذا قد يكون صحيحًا بالنسبة لبعض الطلاب ، ولكن معظم الطلاب تعرّض عندهم هذا الدافع الذاتى الداخلى للكف بفضل السنوات الطويلة المملة من الانخراط فى الدراسة ، أو بفضل مايسود فى المجتمع العام من عداء ونفور من الأعمال العقلية . ولذلك ، لا يمكن أن يكون فى الفضول الذاتى تفسير لهذه الرغبة الشديدة العارمة أحيانًا فى الالتحاق بالكلية .

ولو أننا سألنا الشاب . نفسه لجاز أن يقول إنه ينتظر منه أن ينخرط فى الكلية ويلتحق بها ـ وأنه سيغضب والديه إن لم يفعل . والواقع ، أن هذه الدعوى أقرب إلى أن تكون مروعة ـ أن يكون الدافع ناشئًا عن رغبات الآخرين . أو قد يقول الطالب إنه يريد أن يرتفع بمكانته ، وأن يصبح مديرًا ناجحًا . ومن المؤكد أن هذا الهدف ليس لازمًا لإشباع الجوع ، كما أنه ليس وسيلة لتجنب التعب لأن المديرين يجدون فى أعمالهم عادة مشقة أكبر مما يجد مرءوسوهم . لعلها الرغبة فى المال ؟ وهذا أمر هام ، ولكنه لا يفسر لنا السبب فى أن المليونير يستمر ويمضى فى

عمله ، ولا يملك أن يتوقف وكأنه مقهور على أمره ، لفترة طويلة من بعد أن يكون قد حصل من المال ما يكفى إشباع حاجاته الفسيولوجية بقية حياته أضعافًا مضاعفة . هنا تجد شيئًا جديدًا ـ المكانة ، أو المنزلة ، أو تقدير الذات .

قد يقول الشاب ، فى صراحة ، إنه إنما يريد أن يستمتع بوقته فى الكلية . ويكون قصده من هذا ـ بصفة أساسية ، أن يستمتع مع الناس ـ صداقات ، حفلات المدينة الجامعية ، مباريات كرة القدم . وكيف نفسر ما يجده الناس من نشوة ظاهرة عند فوز فريقهم فى كرة القدم ؟ وقد يشكو الشاب فيما بعد أن الفصول مزدحمة بالطلاب إلى حد أنه لاتتاح له فرصة « التعرف » على الأساتذة . إن هنا نوعًا من الدافع الذى لم يجد الإشباع ، دافع يدفع إلى نوع خاص من التفاعل الأجتماعى .

وكل هذه الدوافع تتضمن الناس ـ الاختلاط بهم ، والحصول على استحسانهم ، والاستمتاع معهم ، والتنافس معهم ، والسعى إلى رفع تقدير المرء لذاته معهم أو من خلالهم . هذا التفاعل مع الآخرين هو السبب فى أننا نسمى هذه دوافع اجتماعية . والسلوك الاجتماعى لا يمكن أن نفسره تفسيرًا تاماً بالجوع ، أو بالجنس ، أو بالألم ، أو حتى بالاقتدار . وفى الواقع ، أن الدوافع الاجتماعية كثيرًا ما تطغى بقوتها على الدوافع الأخرى ـ وذلك كما يحدث عندما يرمى الجندى بنفسه على قنبلة يدوية من أجل أن ينقذ أصدقاءه ، أو عندما يقسم الراهب أن يعيش حياته بدون زواج ، أو عندما يقاوم السجين السياسى صنوف التعذيب .

فما هى طبيعة هذه الدوافع الاجتماعية ، ومن أين تأتى ؟ وهل هى دوافع بيولوجية متوارثة ، أم أنها تنشأ من خلال خبرات التعلم عند الطفل عندما ينشأ فى مجتمع مؤلف من أناس آخرين ؟ فيما مضى كان يظن أنها دوافع غريزية فطرية . مثال ذلك أن داروين كتب يقول : «إن الغرائز الاجتماعية تجعل الحيوان يجد المتعة فى صحبة أمثاله ، وأن يشعر بقدر معين من التعاطف معها . وأن يقوم بخدمات متعددة من أجلها». وعند الإنسان تؤدى هذه الغريزة الاجتماعية الأساسية إلى نشأة

المجتمع المتمدين وإلى قيام الأخلاق الاجتماعية . كذلك وضع وليام جيمس الميل إلى الاجتماع بالآخرين ، والتعاطف ، والحب ، والغيرة ، والتقليد ضمن الغرائز الاجتماعية الأساسية . كما أن وليام ماكدوجال ، كما نذكر ، أدرج غريزة التجمع فى قائمته . وفى كل هذه النظريات نجد أن ميل الإنسان إلى الاجتماع ببنى جنسه ، وإلى أن يرتبط بهم بروابط المودة ، وإلى أن يتأثر باستحسان الآخرين واستهجانهم ، ينسب إلى نزعة بيولوجية غير متعلمة .

وعلى الرغم من أن الفكرة القائلة بوجود دافع اجتماعى أساسى تبدو معقولة بالبديهة ، فقد بدأ أصحاب نظريات الغرائز يفرعون وينوعون من هذه الفكرة ، ويفترضون عددًا متزايدًا من الغرائز الاجتماعية ـ من غير أن يكون لديهم على ذلك الدليل الحق . بل إنهم افترضوا غريزة اجتماعية خاصة لكل جزء من ذلك السلوك الاجتماعى المعقد. من ذلك ، مثلاً ، أن بعضهم أصر على أن هناك غريزة متوارثة تدعو الإنسان إلى أن يستر جسده عن غيره من الناس . وكان هذا القول معقولاً إلى حد كبير بالنسبة للرجال فى العصر الفيكتورى ، ولكن علماء الأنثروبولوجيا استمروا يكتبون عن قبائل لا يشعر واحد منهم بالحاجة إلى الملابس . وأصبح من الواضح الجلى أن أصحاب نظريات الغرائز يحولون ما تعلموه من قيم حضارية إلى ضرورات بيولوجية. وأظهرت الأبحاث والنتائج الأنثروبولوجية أن الدوافع الاجتماعية تتفاوت تفاوتًا كبيرًا من مجتمع إلى مجتمع ، وأنه لابد من تعلمها لا توارثها .

وهكذا أخذ علماء النفس فى العشرينات والثلاثينات يعارضون الأساس الفطرى للدافعية الاجتماعية كما كانوا يعارضون الأساس الفطرى للفضول وما شابهه من الدوافع . ومره ثانية ، وجدنا معظم أصحاب النظريات يزعمون أن الدافعية الاجتماعية مشتقة من دوافع أخرى أساسية بدرجة أكبر مثل الجوع ، والجنس ، والخوف . وذهبوا إلى أن تعلق الطفل بأمه ، على سبيل المثال ، إنما يتم تعلمه على أساس أنها هى التى تطعمه . وعلى ذلك يكون هذا النوع من الدافع الاجتماعى دافعاً ثانوياً أو مشتقاً. وبعبارة أخرى ، يصبح الإنسان مخلوقاً بيولوجياً

لا تدفعه إلا التوترات الحشوية ، ولا شىء عداها . ولكن ، لأنه يعيش فى المجتمع مع غيره من الناس ويعتمد عليهم فى إشباع متطلباته ورغباته العضوية ، فإنه تنشأ لديه حاجات اجتماعية ثانوية . وقد شهدنا فى الفصل الأخير كيف أنه تبين أن مجموع الدوافع المتصلة بالفضول مستقلة عن الدوافع الهوميوستازية ، والجنسية ، والانفعالية . كذلك نقول إن من الممكن أن يكون أصحاب نظريات الدوافع المشتقة قد تجاوزوا وغالوا ، وأن يكون هناك بالفعل أساس فطرى بالنسبة لطائفة واحدة ، على الأقل ، من الدوافع الاجتماعية العامة غير المتمايزة .

وسوف نبين فى هذا الفصل كيف تقوم النظريات المختلفة التى تقول باشتقاق الدوافع بتفسير السلوم الاجتماعى . ثم ندرس بعد ذلك الأدلة والبراهين على احتمال أن تكون هناك دوافع اجتماعية مستقلة عن الدوافع ذات الأساس الحشوى .

مفاهيم الدافعية الاجتماعية المشتقة

أصحاب النظريات الثلاث التى ناقشناها فى الفصل الأخير- وهم فرويد ، وألبورت ، وميللر- وسعوا من تحليلهم للدافعية المشتقة وجعلوها تشمل الدوافع الاجتماعية . وقد سبق أن شرحنا المفاهيم الثلاثة - الإعلاء ، والاستقلال الوظيفى ، والدوافع المكتسبة . ورأينا أن الثلاثة كلها متشابهة كثيراً فى واقع الأمر . والآن نصف بإيجاز كل واحدة من هذه النظريات .

لم يؤمن فرويد بأن هناك غريزة اجتماعية فطرية من شأنها أن تجمع بين الناس . ولكنه ذهب إلى أن ما يجمع بين الناس هو المشاعر الجنسية . وهذه المشاعر قد لا تبدو جنسية بصورة مباشرة ، وإنما هى قد تتعرض لشىء من الكفّ ، أو الإقلال ، أو التمويه. فهى تظهر فى صورة... « العلاقات الودية بين الوالدين والأطفال ، تلك العلاقات التى كانت فى أصلها جنسية تمامًا ، ومشاعر الصداقة ، والروابط العاطفية فى الزواج التى كان أصلها مستمداً من التجاذب الجنسى » .

بل إن تعلق الطفل بأمه ، فى نظر فرويد ، تعلق جنسى فى أساسه . والرضيع الصغير ، فى المرحلة الفمية ، يتعلم أن الأم هى مصدر اللذة الفمية . كما أن الطفل يشعر بالقلق إن خشى فقدان أمه بعد أن تعلم أنها لازمة من أجل إشباع غرائزه .

ولكن تعلق الولد بأمه ، فيما بعد أثناء المرحلة القضيبية ، يصبح جنسيًا بالمعنى التناسلى . ولكن القلق من الخصاء يحتم بعد ذلك ضرورة القضاء على التجاذب الجنسى . فما الذى يحدث للدافع الجنسى هنا ؟ يذهب فرويد إلى أن جزءًا من الطاقة خدم فى عملية التوحّد مع الأب ، وأن جزءًا آخر منها يتم إعلاؤه إلى مشاعر الحنان الخالية من الجنس نحو الأم .

وبهذه الصورة يفسر لنا فرويد علاقة الصحبة التى تقوم بين الوالد وابنه ، والود الذى يكون بين الأم وولدها بوصفها مشتقة من الدوافع الجنسية . كما أن التعلق العاطفى الذى يكون عند الفتاة الصغيرة نحو والديها ، وكذلك رغبتها فى الأطفال أو حبها لهم تفسر كلها على أنها مشتقات من دافع الجنس . ويستمر فرويد فى هذا الاتجاه . فالروابط بين أعضاء الجماعة مشتقة من المشاعر الجنسية فى داخل الأسرة. والرابطة نين الزعيم والأتباع إنما تقوم على أساس من العلاقة بين الأب والإبن ، على حين أن التعلق فيما بين أعضاء الجماعة بعضهم وبعض ، يمثل ما يكون بين الأخوة من علاقات .

إن أهم التساؤلات النظرية عن مفهوم تحوّل الغرائز هو إن كان التعلّق الاجتماعى الأساسى فيما بين الطفل وأمه ـ والذى تنبع منه كل العلاقات الاجتماعية والميول الأخرى ـ يمثل نوعاً من الدافع الجنسى بعد أن تعرض للإعلاء . أعنى : هل المشاعر من قبيل الحب ، والمودة ، والاتكال ، والحنان ، والتعلّق صور من الدافع الجنسى تعرضت للإعلاء . لقد انشق كثير من أتباع فرويد الأولين عنه بسبب هذه النقطة بالذات . فقد رأوا أنه أخطأ فى اشتقاق كل الدفء والمشاعر الإنسانية من الدافع الجنسى . أما آلفرد آدلر Alfred Adler فقد رأى أن الإنسان تدفعه الحوافز الاجتماعية أكثر مما تدفعه الدوافع الجنسية .

وذهب إلى أن الإنسان لديه رغبة أو ميل اجتماعى فطرى إلى أن يربط نفسه بغيره من الناس . وأن هذه العملية تبدأ من العلاقة بين الرضيع وأمه ، لكنها تتسع بعد ذلك لتشمل العلاقات الاجتماعية ، والتوحّد مع الجماعة ، والتعاطف مع سائر الناس . وأما إريك فروم Erich Fromm فقد افترض وجود دافع أساسى للاجتماع والترابط بالناس ، بينما تحدثت كارن هورنى Karen Horney عن حاجة الطفل إلى الطمأنينة فى علاقته مع والديه ، على حين أن هارى س . سليفان Harry S. Sullivan كان يؤكد على العلاقات الإنسانية . والشىء المهم فى هذه الآراء هو أنها صدرت عن قوم من أصحاب نظرية التحليل النفسى ممن كانوا يتعاملون مع المرضى فى العلاج النفسى كما كان يفعل فرويد . ولكنهم ، مع ذلك ، اختلفوا مع فرويد وذهبوا إلى القول بنوع من الدافع الاجتماعى الأساسى الذى يكون مستقلاً عن الدوافع الجنسية والعدوانية .

وأما الرجل الثانى من أصحاب النظريات ، وهو ألبورت ، فإنه يؤمن بأن حب الإنسان للتجمع أمر مكتسب . فإن حاجة الرضيع إلى الراحة البدنية التى يجدها عند أمه تؤدى فى آخر الأمر إلى رغبته فى الصحبة « الاجتماعية ، والجمالية ، والعقلية » . التى يخبرها فيما بعد . وألبورت يجيب على من انتقدوا تصوره هذا ـ الذى ينكر وجود دافع اجتماعى فطرى ـ بقوله : «إن وجهة نظره هذه هى أبسط وأوضح صياغة للحقائق الأمبيريقية التى نجدها فى مجال الدوافع »[1] . ولذلك ، فإنه من الواضح أن الحب ، وحب الاجتماع بالناس ، وغير ذلك من الدوافع الاجتماعية هى ، عند ألبورت ، بمثابة تحولات لدوافع فسيولوجية من قبيل الجوع والألم .

وكذلك يتشكك ألبورت فى وجود « غريزة الوالدية » ويقول : إن كثيراً من الأمهات لا تجد لديهن التطلع إلى الإنجاب ، بل وقد تجدهن يكرهن أطفالهن بعد الميلاد . وقد لا تؤدى الأم واجباتها إلا لكى تتجنب انتقادات الجيران أو لتتقى

---

(1) G. Allport. Motivation in personality: reply to peter A. Betrocci. Psychol. Rev., 1940, 47, 533-534.

عقاب القانون . ولكن هذه الدوافع الخارجية تجعل الأم تستمر فى أداء عملها إلى أن تصبح رعاية الطفل ، من خلال التعود والتدريب ، عملاً سارا ممتعا بالنسبة لها . ثم ينمو حبها لطفلها فتنسى الدوافع الخارجية السابقة .

وهنا يختلف بتروتشى مرة ثانية مع ألبورت ، فيزعم أن هناك عدة دوافع اجتماعية أساسية . وهو لا يقبل ما زعمه ألبورت من أن حب الطفل لأمه إنما ينبع من رعايتها البدنية له ، ويؤمن ، بدلاً من ذلك ، أن له أساساً فطرياً . وهو يؤمن كذلك بأن هناك غريزة والدية . وأن هذه الدوافع الاجتماعية الفطرية قد يفسدها أو تقضى عليها بعض الخبرات عند شخص معين . ولذلك ، فإن الحالات التى يذكرها ألبورت عن نسوة يكرهن أطفالهن قد نجد فيها خبرات سابقة من النبذ أو الكراهية . ويذكر بتروتشى حالة امرأة كانت أمها ، وكذلك أبوها ، يعاملانها معاملة وحشية . فنشأت المرأة وهى لا تهوى الأطفال ولا حتى الزواج لأنها كانت تخشى من أنها ستسىء معاملة أطفالها . كانت لديها الرغبة فى أن تكون مصدراً للعطف والحنان بالنسبة لأطفالها ، ولكنها كانت محتبسة انفعالياً فلا تملك التعبير عن عواطفها . وفيما يختص بالدافع الأساسى إلى الحب ، يقول بتروتشى إن الحب المبدئى نحو الأم يعبر عنه فيما بعد تجاه الزوجة والأطفال أو الأصدقاء . فالدافع كان دافعاً اجتماعياً فطرياً فى أول الأمر ، ولكن أساليب التعبير عنه تغيرت بنمو الشخص ونشأته .

وأخيراً نسأل عن رأى ميللر فى الدوافع الاجتماعية . يقدم لنا ميللر وجون دولارد أمثلة توضح كيفية تعلم الدوافع الاجتماعية على أساس من الدوافع المكتسبة والإثابات المكتسبة . مثال ذلك أن تعلق الطفل بأمه يرتكز ، فى نظرهما ، على أساس أنها هى التى تغذيه ، وتدفئه ، وتبعد عنه المثيرات المؤلمة ، وترعى دوافعه الأولية الأخرى . ويقول دولارد وميللر إن الأم تكون خلال السنة الأولى من الحياة مرتبطة بالإطعام فى عدة آلاف من المناسبات . وهكذا تصبح الأم إثابة مكتسبة ، ويصبح حبها مشتقاً من الجوع ، والألم ، والدوافع الأولية الأخرى .

وبالإضافة إلى الحب ، يفسر دولارد وميللر الدوافع الاجتماعية من ميل إلى التجمع ، وحب الاجتماع بالناس ، واتكال على الآخرين ، واستحسان ، ومسايرة ، وتقليد ، وكبرياء ، وأمانة بوصفها أموراً متعلمة . وتتوقف قوة كل واحد من الدوافع المكتسبة على الظروف المحددة التي تم تعلمه فيها والتي قد تختلف باختلاف الأسرة ، والطبقة الاجتماعية ، والمجتمع . وبذلك يتمكن ميللر ودولارد من تفسير التفاوت الهائل الذي نجده بين الدوافع الاجتماعية . مثال ذلك أن المشاجرة أمر له قيمته بين أطفال الطبقة الدنيا ، بينما يستهجنه أطفال الطبقة الوسطى . وفي المجتمع الأمريكي نجد الميل إلى التنافس نوعاً سائداً مقبولاً من السلوك ، على حين أنه أمر مستهجن مستنكر في بعض الحضارات أو المجتمعات الأخرى .

لقد سبق أن رأينا أن الدليل على اكتساب الدوافع على أساس من الجوع دليل ضعيف . ولذلك ، فإنه من الصعب أن نرى كيف يمكن لهذه الدوافع الاجتماعية كلها أن تشتق بهذه الصورة . بل إن ميللر نفسه اقترح نظرية جديدة عن تصريف **الدوافع في قنوات** لكي تحل محل فكرة الدافع المكتسب في حالة الدوافع الإيجابية مثل الجوع . وسوف ندرس هذه الفكرة الجديدة فيما بعد .

الدليل على الدوافع الاجتماعية الفطرية

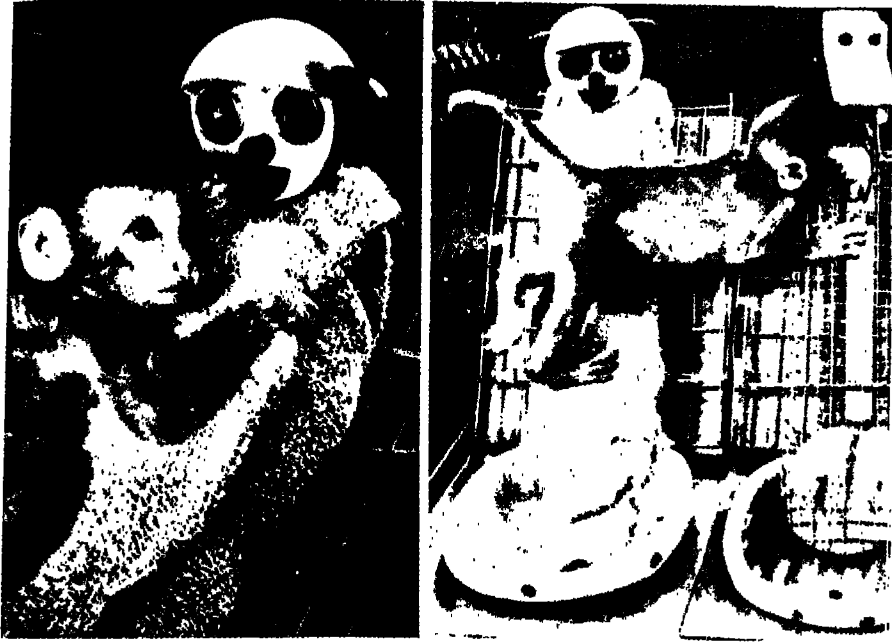
من السهل علينا أن نشهد ذلك التعلق الذي كنا نتحدث عنه بين الصغير والأم عند الإنسان وكثير غيره من الحيوانات الأخرى . فالأوزة الصغيرة تتبع الأوزة ، والقرد الصغير يتعلق ببطن أمه ، وطفل الإنسان يدفن وجهه في ثدي أمه . كذلك من السهل علينا أن نرى قوة تعلق الصغير بالموضوع الأم ـ بحيث أن الانفصال يؤدي إلى الخوف والذعر . ولكن الأمر أصعب من ذلك بكثير إن نحن أردنا أن نتبين إن كان الدافع من وراء هذا التعلق هو الجوع أو الحب . بل الواقع أنه من المستحيل أن نقرر هذا على أساس من الملاحظة الطبيعية وحدها .

ولذلك ، كان من الواجب أن نتحول إلى المنهج التجريبى لنفصل به بين تأثير هذا وتأثير ذاك .

وهذا هو بالضبط ما تم القيام به فى تجربة بالغة الأهمية أجراها هارى هارلو وأعوانه . فقد قرروا ، أثناء عملهم التجريبى العام مع القردة ، أن يقوموا بتربية بعض صغار القردة من غير أمهاتها بحيث يطعمونها من الزجاجة ويجعلونها تعيش وحدها فى أقفاص فردية . ولكى يسهلوا على القردة الرضع حياتها فى الأقفاص قاموا بتغطية أرض الأقفاص الصلبة بشىء من طبقات قماش المناشف ، وعندئذ تسنى لهم أن يشهدوا شيئاً طريفاً وهو أن القردة الرضع أخذت تتعلق وتتشبث بهذه الطبقات من القماش ـ كانت تتمسك بها وتغضب إذا انتزعت منها . وكان السلوك شبيهاً إلى حد ملحوظ بسلوك الطفل الصغير مع بطانيته أو لعبته التى «تمثل أمنه وطمأنينته» والتى لابد له من أن يصحبها إلى سريره حين ينام . وبدا وكأن هناك حاجة مباشرة إلى «راحة التصاق» ليس لها اتصال بالتغذية .

ثم أراد هارلو وأعوانه أن يختبروا صحة هذه الملاحظة بطريقة تجريبية ، فقاموا بصنع اثنتين من الأمهات البديلات تبدو صورتها فى الشكل رقم (١١) . أما الأولى فكانت تتألف من أسطوانة من شباك السلك المعدنى بها فتحة لزجاجة الرضاعة فى منتصف «الصدر» ـ وكانت تسمى هذه «بالأم السلك» . وأما الأخرى ـ وهى «الأم النسيج» ـ فكانت قطعة من الخشب لها نفس الشكل مغطاة بنسيج المناشف القطنى . وكان يمكن كذلك أن توضع زجاجة الرضاعة فى «الصدر» . ثم أضيف إلى كل واحدة من الأمين البديلتين وجه قرد بديع لم يكن له بالتجربة صلة .

أما فى التجربة الرئيسية فقد وضعت القردة المولودة حديثاً فى قفص يحتوى واحدة من الأمهات السلك وأخرى من القماش . وكانت التغذية تتم عن طريق الأم السلك بالنسبة لنصف المجموعة ، وعن طريق الأم القماش بالنسبة لنصف المجموعة الآخر . وكان السؤال الذى يتوقع التوصل إلى إجابة عنه هو : هل



شكل ١١ – قرد رضيع فى قفص مع اثنتين من الأمهات البديلات ، أحداهما مصنوعة من السلك والأخرى من النسيج . والرضيع ، وإن كان قد اعتاد تناول غذائه من الأم السلك ، الا أنه يفضل أن يتشبث بالأم النسيج .
(مأخوذ عن H. F. Harlow, Primate laboratory, University of Wisconsin. Photographs by Robert Sponholz).

سيتكون لدى القردة الرضع التعلق على أساس من التغذى أم على أساس من راحة الالتصاق؟ أما بحسب نظرية فرويد فإن التعلق ينبغى أن يرتكز على الإشباع أو الاستمتاع الفمى المرتبط بالتغذية . وأما بحسب نظريات الاستقلال الوظيفى والدوافع المكتسبة ، فإن التعلق ينبغى أن يرتكز على خفض الجوع المرتبط بالتغذية . بعبارة أخرى نقول: إن كل النظريات التى تتحدث عن دوافع اجتماعية مشتقة تتنبأ فى مثل هذا الموقف بأن يرتكز التعلق على خبرة الرضاعة .

لكن النتائج جاءت معارضة لذلك تماماً . فقد أنفقت القردة الصغار التى

كانت تتغذى من الأم النسيج كل الوقت تقريباً وهى متشبثة «بها» . دون أن تقضى شيئاً من الوقت مع الأم السلك . ومن الطبيعى أن هذه النتيجة كان يمكن التنبؤ بها على ضوء نظريات الدوافع المشتقة . ولكن تلك القردة التى كانت تتلقى تغذيتها من الأمهات السلك قضت كذلك معظم أوقاتها فوق الأم النسيج . كانت تتسلق فوق الأمهات السلك لتتغذى ثم تفر عائدة إلى الأم النسيج . لقد كان التعلق بالأم النسيج يحدث بصورة أسرع قليلاً عندما كانت التغذية مرتبطة بها . ولكن التعلق بالأم النسيج عند القردة التى كانت تتغذى من الأم السلك كان يصل إلى نفس الدرجة من القوة بعد أسابيع قليلة . صحيح أن الرضاعة قد توجه الاستجابة إلى راحة الالتصاق عند الأم النسيج بصورة أسرع قليلاً ، ولكن راحة الالتصاق هى ذاتها التى تشكل التعلق الأساسى بالأم البديلة . وهكذا نجد أن هذه الدراسات تؤيد القول بوجود دوافع اجتماعية فطرية ولا تؤيد النظريات التى تتحدث عن الدوافع الاجتماعية المشتقة .

والآن هل يمكن أن نسمى استجابة التعلق البسيطة هذه «بالحب» أو «المودة» ؟ إن من بين مانعنيه عادة عندما نتحدث عن حب الطفل لأمه ذلك الشعور بالأمن والحماية التى يجده معها . وقد ثبت وجود هذا الشعور عند القردة الرضع عن طريق تعريضها للمثيرات المخيفة ــ غرفة مفتوحة غريبة من طبيعة أطفال القرود أن يجدوها مفزعة ، أو لعبة فى صورة عنكبوت جهنمى كبير . كانت القردة الصغار تهرع فى هذه المواقف إلى الأم النسيج فى فزع ، فتتعلق بها ، ثم تهدأ هدوءاً ظاهراً . حتى إذا استعادت طمأنينتها بدأت تستكشف فى حذر ذلك المكان الغريب ، وهى تعود إلى قاعدتها من الأم النسيج بين الحين والحين . فمن منا لم يشهد ذلك عند الطفل الآدمى الذى يدخل بيتاً غريباً ؟ ولكن هذا الالتصاق المؤدى للطمأنينة لم تكن الأم السلك تزود القردة به ــ حتى وإن كانت رضاعته قد قامت عليها . ومرة ثانية نجد هنا أن راحة الالتصاق بالجسم اللين المكتنز النسيجى ، لا المثير المرتبط بالتغذى ، هى التى تزود بالأمن والطمأنينة .

ثم نسأل هل يمكن أن ينشأ هذا التعلق بالأم النسيج فى أى وقت من نشأة

القردة الصغار؟ الجواب يبدو أنه بالنفى . فلو أن القرد أتيحت له فرصة التعلق بالأم النسيج خلال فترة حرجة تبدأ من اليوم الثلاثين من العمر تقريباً وتمتد حتى اليوم التسعين ، لكان التعلق بها قوياً ، والشعور بالطمأنينة عميقاً . أما إن نشأ القرد الطفل فى عزلة كاملة ، لمدة ستة أشهر تقريباً ، ثم أعطى الأم النسيج ، وجدنا تعلقاً جزئياً ينشأ لديه ، تعلقاً يتضعضع بسهولة عندما تتعرض القردة للخوف . كما أن هذه القردة التى تكون قد فاتتها الفترة الحرجة من التعلق كثيراً ما يظهر عليها السلوك «الاجترارى» عندما توضع فى موقف غريب ومخيف . أعنى أنها تظل تجثم وتتأرجح على وتيرة واحدة وبشكل ممل بدلاً من أن تمضى إلى الأم النسيج طلباً للطمأنينة .

وتظل هذه الآثار واضحة عدة سنوات ، كما أنها تؤثر فى كل النمو الانفعالى عند القردة . ثم إن القردة التى تنشأ مع أمهات من السلك أو فى مجرد أقفاص من السلك يبدو عليها انعدام المودة ، ونقص فى القابلية للتعاون ، كما يبدو عليها العدوان المفرط ، والنقص الكامل فى الاستجابية الجنسية وذلك بالنسبة للقردة التى تنشأ فى ظروف سوية . على حين أن القردة التى تنشأ مع أمهات من النسيج يبدو عليها قدر أقل من العدوان ، وبعض القدر من الاستجابية الجنسية ، وإن كانت من نوع غير ناضج . ومن الواضح أنه على الرغم من أن الأمهات البديلات التى تكون من النسيج أفضل كثيراً من أمهات السلك ، إلا أن النمو الانفعالى يتحسن بدرجة أكبر كثيراً عن ذلك عندما ينشأ القرد مع أم حية حقيقية .

وقد وجد هارلو وأعوانه فى سلسله حديثة من الدراسات ، أن خبرة مصاحبة القردة الصغار الآخرين قد تعوض إلى حد كبير عن غياب الأم الحقيقية . فقد سمح لعدد من القردة الرضع الذين ينشأون مع أمهات بديلات من النسيج بفترات يومية من التفاعل مع اثنى عشر قرداً رضيعاً آخر فى غرفة لعب أشبه بالجمنيزيوم . وكان يبدو عليها اللعب السوى والنمو الجنسى السوى ، كما نشأت بينهم الروابط الودية . بل إنه ليمكن لفرد من أفراد فصيلة حيوانية أخرى ـ كالإنسان على سبيل

المثال ـ أن يمد هذه القردة الرضع بجزء مما تمد الأم به من واستثارة لازمة للنمو الوجدانى السوى .

ترى ما مدى قابلية هذه الدراسات الحيوانية للتطبيق على سلوك الإنسان ؟ الواقع أن هناك تطابقاً ملحوظاً فيما بين كثير من نتائج هارلو وبين دراسات الأطفال الآدميين الذين حرموا من الأمومة السوية . فقد حدث منذ عدة سنوات أن كتبت مارجاريت ريبل Margaret Ribble تقريراً عن نحو ستمائة طفل ، إما لم تكن لهم أمهات ، أو كانت لهم أمهات غير صالحات ، أو أنهم فقدوا أمهاتهم . وأن هؤلاء الأطفال أصبحوا إما ميالين إلى الَخُلْفة ، أو الاكتئاب ، أو الضعف الجسمى . كما أن بعضهم نشأت عندهم حالة تعرف بالضوى (أو الهزال التدريجى) ، وفيها يظل الطفل يذوى ويذبل إلى أن يموت .

كذلك كتبت عدة تقارير عن هذه النتائج فى عدد من الدراسات عن الأطفال الذين وضعوا فى ملاجئ الأيتام أو بيوت الإيداع . وقد كان الطعام والرعاية الطبية مناسبين فى معظم هذه الأماكن ، ولكن النقص فى الأيدى العاملة ترتب عليه أن الأطفال لا يتلقون شيئاً من الرعاية إلا للتغذية والتنظيف . وكان كثير منهم يرقد ببساطة فى أسرتهم لا يتلقون من الاستثارة المادية أو العاطفية إلا القليل . أما الأطفال الذين لم يعرفوا لهم أمًّا خلال السنة الأولى من الحياة فقد بدا عليهم الانسحاب والخلو من المشاعر العاطفية . وقد فقد كثير منهم بصفة نهائية القدرة على أن ينشأ عنده التعلق بالناس . وأما الأطفال الذين عرفوا شيئاً من الأمومة خلال السنة الأولى من الحياة ثم انفصلوا عن أمهاتهم ، فقد ظهرت عليهم تغيرات عاطفية أكثر بروزاً . عندما انفصلوا عن أمهاتهم أول الأمر ، أصبح هؤلاء الأطفال يتملكهم القلق ويعمدون إلى البكاء ، ولكن هذه الاستجابة تغيرت فى آخر الأمر إلى الاكتئاب والبلادة . وأما الأطفال الرضع فيطرأ عليهم النحول وفقدان الوزن ويظهر عليهم التأخر العقلى واللغوى . فهم يحملقون فى الفضاء ، وتظهر عليهم أعراض الاجترارية مثل التأرجح الذى لا يتوقف ، ولا يطيقون أن يحملهم أحد . كذلك يبدو عليهم أنهم قد فقدوا الاستجابية

الاجتماعية الأساسية ، وأنهم قد تحولوا إلى آلات لا تعرف العواطف . على أنه يحدث فى بعض الأحيان أن يتمكن العلاج النفسى المكثف على يد شخص دافئ محب من أن يشدّ الطفل ليخرجه من انسحابيته .

وأما الأطفال الأكبر سناً الذين تربوا فى هذا النوع غير العاطفى من المؤسسات فتكون لهم شخصيات من النوع المضطرب غير الاجتماعى . ولا تكون لهم إلا سيطرة قليلة على نوازعهم العدوانية ، كما تظهر عليهم صور متعددة من السلوك غير الناضج ، والجانح ، والمضاد للمجتمع . وهم لا يدخلون فى روابط عاطفية وثيقة ، ويظلون على انسحابهم وانسلاخهم. بعبارة أخرى نقول: إن الأطفال الذين لا يتلقون المودة والحب خلال السنوات الحرجة الأولية لا ينشأ لديهم الدافع الاجتماعى الأساسى إلى الحب والمودة .

وقد استعرض. جون بولبى John Bowlby هذه الدراسات المتصلة بانفصال الطفل عن الأم من وجهة نظره المتأثرة بالتحليل النفسى ، فاستنتج منها أن تعلق الطفل بالأم أمر أولى وليس مشتقاً من أى دافع آخر . ويقول : إن العناصر التى يتكون منها هذا التعلق هى الميول الغريزية إلى الرضاعة ، وإلى البكاء فى طلبها ، والتشبث بها ، وتتبعها ، والبقاء إلى جوارها . كما أن انفصال الطفل عن الأم يؤدى فى نظره إلى ما يسميه هو « بالقلق الأولى » . وهذا القلق لا يرتكز على الخوف من فقدان شخص تعلم الطفل أنه يحميه ويغذيه ، ولكنه قلق يقع ويحدث من قبل أن تقع هذه الخبرات ، قلق يمثل حاجة فطرية إلى الارتباط الاجتماعى .

إنه لا يزال هناك الكثير الكثير مما لا نعلمه بعد عن نشأة ونمو الروابط الودية . وإنه ليبدو أن الاستثارة خلال فترة حرجة مبكرة أمر ضرورى لازم ، وإن كان الخلاف لايزال قائماً حول طبيعة الاستثارة المطلوبة. وقد حاول بعض الكتاب تفسيرها ببساطة على أنها مسألة تعود إلى اللمس . ولكن هذا التفسير يبدو مفرطاً فى البساطة . ثم إنه قد تكون هناك اختلافات بين الفصائل الحيوانية . مثال ذلك أن ظاهرة الانطباع عند البط ، التى ذكرناها فى الفصل الأول ، تبدو أنها

صورة مشابهة للرابطة الاجتماعية الأولية . ولكنها تتضمن الاتصال البصري ، والتتبع ، لا الاستثارة اللمسية . وفى الدراسات الحديثة التى قام بها هارلو تبين أن القردة الرضع تفضل الشكل الملفوف المستدير الذى يمكن التشبث به ، أو الأم البديلة المتأرجحة على اللوح المسطح المغطى بالنسيج والذى لا يمكن تحريكه . وعند الإنسان قد نجد أن القدرة على إخراج الأصوات لها من الأهمية ما للتدليل .

والآن نتجه إلى الجانب الآخر من العلاقة الاجتماعية الأولية فيما بين الطفل والوالدين ـ وخاصة الأم . مما لا شك فيه أن دافع الأمومة دافع قوى ـ فإن الأمهات من فصائل كثيرة تقاتل من أجل صغارها وتموت من أجلها أيضا . ومع ذلك ، فإن هذا الدافع القوى لا يخدم غرضاً هوميوستازيا بالنسبة للأم ، بل وقد يعمل ضد بقائها واستمرار حياتها . ومن الطبيعى أنه يخدم تلك الوظيفة البيولوجية الهامة وهى بقاء الفصائل الحيوانية ، وإن كان يعمل بوصفه دافعاً اجتماعيا ـ أعنى أن ما يستثيره لدى الأم هو وجود كائن عضوى آخر .

أفليس من الممكن أن يكون دافع الأمومة مجرد شىء ناتج عن رغبة ـ مرتكزة على أساس هورمونى ـ فى الإرضاع ؟ ويكون هذا شبيهاً بالنظريات التى تفسر حب الطفل لأمه على أساس الرضاعة ـ وبحيث تصبح عملية الرضاعة من ناحية ، وعملية الإرضاع من الناحية الأخرى هما اللذان يفسران حب هذا لذاك وحب ذاك لهذا . الواقع أن الرضاعة هامة ولكنها ليست كل شىء .

أما فى الحيوانات العليا ، فالظاهر أن الخبرات الانفعالية المبكرة للأم لها أهمية جوهرية فى تحديد سلوك الأمومة لديها . فقد تسنى لعدد من القردة التى رباها هارلو فى دراساته من غير أم حقيقية أن تصبح هى نفسها أمهات فيما بعد . والعادة أن القردة الأم السوية بمجرد أن يولد صغيرها تراها تتناوله وتحضنه وترضعه ، كما يكون من الصعوبة بمكان أن تنتزع الرضيع من أمه عندئذ ـ ويقول هارلو إنك تكون فى حاجة إلى فريق بأسره من الرجال حتى تنتزع الرضيع من أمه . أما الأمهات القردة التى لم تعرف لها أماً ، فإنها ، على خلاف سلوك الأمومة

القوى هذا . يظهر عندها الخلو التام من الاهتمام بالخلفة ، فهى تتجاهلها ، وتنفر من محاولتها الالتصاق بها ، بل وقد تعتدى عليها وتهاجمها . ويقرر هارلو أن معظم هؤلاء الرضع ماكانت لتعيش لولا أن القائمين على رعايتها من الحراس الآدميين كانوا يطعمونها بأيديهم .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن هؤلاء الأمهات غير الكفؤات كن سليمات من الناحية الهورمونية وقادرات على الإرضاع . أضف إلى ذلك أن كل عناصر المثير كانت موجودة ـ بل إنه لوحظ أن الرضع كانت تقوم بمحاولات يائسة للالتصاق بالأمهات حتى بعد أن يتكرر ضربها لها . فكأن العامل الحاسم ، إذن ، كان هو الخبرة الاجتماعية للأم ذاتها خلال السنة الأولى من حياتها أو نحو ذلك . والظاهر أيضاً أن درجة الخبرة الاجتماعية ذات أهمية أيضاً . فإن القردة الرضع التى تربت على أمهات بديلات والتى سمح لها بالالتصاق بغيرها من القردة الرضع أو أفراد الإنسان قد أظهرت سلوك أمومة سليم . كذلك نجد أن خبرة الأم بالرضيع الأول قد تستثير فى الأم بعض دافع المحبة ، وإن كان هذا الدافع لا يظهر بصورة مباشرة . فإن اثنتين من هذه الأمهات غير الكفؤات قد أتيح لهما أن تنجبا طفلاً رضيعاً ثانياً وهما تظهران نحوه سلوك الأمومة . بل الواقع أن سلوك الأمومة لدى هاتين القردتين يبدو مبالغاً فيه ، وأنهما تفرطان فى حماية الرضع فلا تسمحان للرضع بالتخلى عن الالتصاق الجسدى بهما إلا بعد فترة زمنية أطول مما تفعل الأمهات السويات .

كذلك نجد أن شعور الأمومة عند المرأة يتوقف على ماكانت قد حصلته من خبرات انفعالية فى طفولتها . فإن الملاحظات الإكلينيكية على المستوى الآدمى تؤيد نتائج هارلو من أن الأمهات اللاتى تتعرضن هن أنفسهن للحرمان العاطفى كثيراً ماتجدن صعوبة فى التعامل مع أطفالهن. وبنفس الصورة قد تكون الأمهات المفرطات فى الحماية تبحثن عن الحب أو تنشدنه لدى أطفالهن ، ولذلك فإنهن بذلك يقفن حائلاً بينهم وبين أن تنشأ عندهم عادة الاستقلال .

نشأة الدوافع الاجتماعية

حتى وإن سلمنا بالفكرة القائلة بأن هناك دافعاً أساسياً فطريا اجتماعيا ينشأ خلال فترة مبكرة حرجة من الخبرة بعلاقة مودة . سوف نجد أنفسنا لا نزال عاجزين عن تفسير الدوافع الاجتماعية المعقدة . من الممكن أن يكون كثير من الدوافع الاجتماعية العامة ـ الميل إلى التجمع ، الصداقة ، العضوية فى الجماعة ـ عبارة عن مجرد امتدادات للرابطة الأساسية بين الطفل وأمه . والظاهر ، كما سبق أن رأينا ، أن هناك شيئاً قريباً من هذا له أهميته فى نشأة دافع الأمومة . ومع ذلك ، فإن الروابط المبكرة تظل هى الأقوى . كما أن تعميم الروابط الودية لا يسير عشوائياً بدون قواعد . فالناس تشعر بأنها أشد قرباً من أعضاء الأسرة . وأنها أكثر قرباً من مجموعتها الحضارية الفرعية منهم إلى غيرها ، وأكثر قرباً إلى مواطنيهم منهم إلى غيرهم . ولسوء الحظ أنك لا تجد إلا قلة غير عادية من الناس يشعرون حقا بالرابطة الوثيقة بينهم وبين البشرية عامة وكل معاناة البشر .

وقد قيل : إن هناك ثلاثة ميكانيزمات تفسر نشأة الدوافع الاجتماعية ، وأنها فى جوهرها متشابهة . أما الأول فهو فكرة فرويد عن **الشحنة النفسية**. فقد افترض فرويد ضمن نظريته عن الليبيدو الجنسى ، أن قدراً معيناً من الطاقة الليبيدية ترتبط بأى شىء يكون مشبعاً للرضيع . أما فى أول الأمر فإن هذا الشىء يكون ثدى الأم ، وأما فى آخر الأمر فإنه يكون الأم بأكملها وبوصفها شخصاً كاملاً . ثم إن هذا الارتباط يمكن أن يمتد بعد ذلك إلى الناس الآخرين القادرين على إشباع الدوافع الجنسية للطفل .وأما الميكانيزم الثانى فإنه النظرية الجديدة التى أوردها نيل ميللر عن **التصريف المتعلم للدوافع فى قنوات** ، والتى أنشأها ليكمل بها نظرية الدوافع المكتسبة التى ذكرناها من قبل. ذلك أن ميللر يبين أن كل الناس يكون لديهم عند الولادة دافع للجوع غير متمايز ، ولكنه تنشأ لديهم بعد ذلك تفضيلات مذاقية معينة وكراهيات محدودة تتوقف على التعلم الاجتماعى . ولذلك قد يتعلم أحدهم أن يستطيب أكل المحار. ولكن هذا الاستلطاف ليس دافعاً مكتسباً بعيداً عن دافع الجوع ، بسبب أن المحار يؤدى إلى خفض دافع الجوع .

ولذلك، فإن ميللر يتشكك فى أن أى فريق من الناس يمكن أن ينشأ لديهم استحسان لمذاق نشارة الخشب . أى أن الجوع أمر متضمن على الدوام . فليس هناك دافع آخر يشتبك بدافع الجوع ، وكل ما هناك أن دافع الجوع ينصرف فى قنوات معينة . وأما الفكرة الثالثة وهى التقنِّية[1] ، فإنها تكاد تتطابق مع فكرة فرويد عن الشحنة النفسية . وقد أكد جاردنر مورفى Gardner Murphy هذا المفهوم ، ولو أنه يُرجع الفضل فى هذا المصطلح إلى طبيب الأمراض العقلية الفرنسى بيير جانيه Pierre Janet ويقول : إن الفكرة قديمة جداً فى حقيقة الأمر . كذلك يورد مورفى الأمثلة عن اكتساب تفضيلات الطعام كما يفعل ميللر ، ولكنه يضيف أمثلة عن نشأة التفضيلات الجمالية .

ولو أننا سلمنا بالدليل الذى تتضمنه الفقرات السابقة والذى يوحى بوجود دافع اجتماعى فطرى ، لوجدنا أن الأفكار الثلاثة : الشحنة النفسية ، ثم التصريف فى قنوات ، ثم التقنِّيه يمكن أن تقدم لنا تفسيراً ممتازاً لنشأة الحب ، والمودة ، والشعور الاجتماعى . ذلك أن الطفل يولد ولديه دافع غير محدد لتحصيل بعض الخبرات الحسية الانفعالية المعينة التى لا يمكن توفيرها توفيراً كاملاً إلا عن طريق إقامة علاقة اجتماعية مع شخص آخر . وبالنسبة للقرد الطفل نجد أن قرداً طفلاً آخر أقدر على توفير هذه الخبرات من أم بديلة صنعت بعناية . ثم إنه بدون الخبرة الحسية الانفعالية اللازمة أثناء الفترة الحرجة المبكرة ، قد لا يتم تقنِّى هذا الدافع الاجتماعى الأساسى تجاه الخارج . وليس هناك من يعرف إن كان هذا الدافع يختفى ببساطة ، أم أنه يتجه إلى الداخل فيؤدى بذلك إلى ظهور الطفل المنسحب الاجتراری. على أن الأم تتولى فى الظروف العادية تزويد الطفل بهذه الخبرات الحسية الانفعالية ، بحيث أن الدافع الاجتماعى الأولى يتقنَّى تجاهها هى . ثم إذا كبر الطفل ، وجدنا قدرًا أكبر وأكبر من هذه الخبرات الحسية الانفعالية تقوم بتقنِّية الدافع الاجتماعى تجاهها ، وأمكننا عندئذ أن نقول إن الرابطة الودية قد قامت بين الطفل وأمه .

---

(١) التقنِّية Canalization هى إقامة قنوات جديدة لتوجيه سلوك ما إلى الإنطلاق خلالها (المترجم) .

وأما نشأة روابط المحبة الأوسع ـ مع الأب ، ورفاق اللعب ، والجماعة بوصفها وحدة كاملة ـ فيمكن أن تتحقق بعد أن تضيف الخبرات الحسية العاطفية بالناس الآخرين قنوات جديدة للدافع الاجتماعى . ومع ذلك ، فلابد من أن يرتكز إقامة القنوات الجديدة على أساس من إشباع الدافع الاجتماعى الأساسى ـ أى أنها ليست مجرد تعميم للحب من الأم إلى الآخرين . فلو أن الأب ، على سبيل المثال ، لم يكن محباً ، حتى إلى حد أنه يرفض الطفل ، لم نجد رابطة محبة تنشأ بينهما .

على أن النمو الاجتماعى للطفل لابد وأن يتأثر تأثراً كبيراً بنوع القنوات التى ينصرف إليها الدافع الاجتماعى الأساسى . مثال ذلك أن الدراسات الحديثة التى أجراها آلبرت باندورا Albert Bandura توضح أن الطفل يميل إلى أن **يتوحّد مع** ، أو ينسج سلوكه على منوال ، هؤلاء الناس الذين أظهروا الحب له . بحيث إن الولد الصغير الذى يكون أبوه نابذاً ، قد يجد صعوبة فى تقليد سمات الذكور . أما إن كانت هناك ، على خلاف ذلك ، رابطة حب قوية بين الأب والإبن ، جاز أن يعمد الأب إلى التهديد بسحب حبه ، أو أن يلوح بشىء يسير من عدم الرضا حتى يتمكن من توجيه سلوك الإبن . وهكذا يستطيع الأب أن يشكل ميول ولده ، وهواياته ، ونشاطه الرياضى ، واختياره المهنى ، واختياره لأصدقائه ، وكثيراً من جوانب السلوك الاجتماعى الأخرى .

ثم تتسع عملية التقنِّية فيما بعد حتى نجد طفل المدرسة قد أخذ يتأثر بالقيم السائدة بين رفاق اللعب ، والطالب فى الكلية قد أخذ يتأثر بتوقعات زملائه فى الجمعيات الجامعية التى يشترك فيها ، والراشد الكبير يتأثر لعضويته فى طبقة اجتماعية معينة ، أو جماعة عنصرية خاصة ، أو حزب سياسى ، أو تنظيم دينى ، أو رابطة مهنية ، أو بيئة اجتماعية . وقد درس أصحاب علم الاجتماع والأنثروبولوجيا أنظمة القيم فى الجماعات والحضارات المختلفة حتى أصبحنا نعرف شيئاً عن نوع السلوك المتوقع . ولكننا إن أردنا أن نعرف عن فرد معين كيف

سيسلك فعلاً فى موقف معين ، كان لابد من معرفة تاريخ تقنّيات الدافع الاجتماعى الأساسى عنده .

الدافعية الاجتماعية والذات

الصورة لاتزال ناقصة . ذلك أن الطفل يظل يتأثر بتوقعات الوالدين حتى وإن كانا غير موجودين من حوله ليستحسنا أو ليستهجنا. والكبار قد يظل عندهم سلوك معين من بعد أن يكون الوالدان قد ماتا بزمن طويل . ذلك أن الدوافع الاجتماعية ذات مسحة شخصية ، بمعنى أن الشخص **يشعر** وكأن هذه الدوافع صادرة من داخله هو ، أعنى أن هناك عملية استدخال تقع . فالدوافع تكون عادة متصلة بالشخص نفسه : « **أنا** أريد استحسان جماعتى ، » « **أنا** فى حاجة إلى الإنجاز ، » أو « **أنا** أشعر بالحقارة لو **أننى** فعلت هذا العمل أو ذاك . »

وقد رأى ألبورت ، حتى يزيد من نفع مفهوم الاستقلال الوظيفى عنده ، أن الأنشطة التى « تكتسب صبغة شخصية » ، أو « تتعلق بالذات » هى وحدها التى تميل إلى البقاء . وقد أظهرت تجارب عدة أن أفراد الإنسان يتحسن أداؤهم فى الأعمال إن كانت هذه الأعمال متعلقة بذواتهم . مثال ذلك أنه لو كانت التعليمات تقتصر على أن الباحثين القائمين على التجربة يريدون أن يجربوا بعض الاختبارات الجديدة ، وجدنا المفحوصين يميلون إلى التكاسل والخمول . وأما إن كانت التعليمات تنص على أن العمل يقيس الذكاء ، والشخصية ، والنضج ، أو شيئاً آخر مهماً بالنسبة للمفحوص ، وجدناهم ينشطون ويجدون . أى أن العمل أصبح « متعلقاً بذواتهم » وأصبح له معنى خاص شخصى بالنسبة لهم .

وقد استحدثت عدة تعبيرات لتفسير هذا العامل الداخلى الذى تبدو له أهمية كبيرة فى الدافعية الاجتماعية. أما المصطلح « **الأنا** » فإنه شائع . ولكننى أفضل مصطلح « **الذات** » لأنه أكثر شيوعاً عند المشتغلين بعلم النفس والعلوم الاجتماعية من أصحاب الاتجاهات النظرية المختلفة . ومع ذلك ، فليس كل المشتغلين بعلم النفس متفقين على أن مصطلحاً مثل **الذات** ضرورى . بل الواقع أن بعضهم يرفض

هذا المصطلح على أساس أن **الذات** أمر لا يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة . وإنما هى أمر يتم الاستدلال عليه . لكننى ، مع ذلك ، أرى أن مفهوم الذات . أو شيئا شبيهاً به ، أمر جوهرى لفهم الدوافع الاجتماعية .

وقد سبق لأصحاب نظرية التحليل النفسى ، بصفة خاصة . أن أكدوا أن الرضيع فى أول الأمر قد لا يستطيع أن يميز بين نفسه وبقية العالم . بين جسمه وجسم أمه ، بين الخيال والواقع . ثم يتكون المفهوم لديه ببطء ، عن طريق التفاعل مع البيئة المادية إلى درجة ما وعن طريق التفاعل الاجتماعى ، وهذا هو الأهم . ويقول هارى س . سليفان Harry S. sullivan ، وهو أحد أصحاب نظريات التحليل النفسى الحضاريين ، إن الذات تنشأ عن انعكاس تقديرات الأشخاص المهمين فى البيئة الاجتماعية . فإن كانت الأم دافئة محبة أخذ الطفل يفكر فى نفسه تفكيراً إيجابياً (أنا الطيب بتعبير سليفان The Good ME) . وأما إن كانت غاضبة أو رافضة نابذة فإن الطفل يشعر بالقلق ويفكر فى نفسه تفكيراً سلبياً (أنا السيىء The Bad me) . وهذا يوحى بأن مفهوم الذات يعتمد إلى حد كبير على الدافع الاجتماعى الأساسى إلى الحب ، ذلك الدافع الذى ناقشناه من قبل .

إننا نستمع إلى تقديرات على الدوام من هذا النوع أو ذاك طوال حياتنا . « حمادة شقى » ، « هذا ولد طيب » ، « هو ولد شاطر » ، وهكذا . وفى بعض الأحيان لا يسمع الطفل هذه التقديرات ، وإنما تراه يشعر بها عندما لا تقول الأم شيئاً ، وتكتفى بإظهار التقزز من أنه يلوث الطعام أو يعبث بأعضائه التناسلية . ولما كان حب الأم ، وحب الآخرين أمراً شديد الأهمية للطفل تراه لا يقتصر فقط على تعلم ما يفعل ومالا يفعل حتى يكتسب رضاها ويتجنب سخطها ، وإنما تراه كذلك يكتسب مفهومه عن نفسه ومفهومه عما ينبغى له أن يكون عليه على نفس هذا الأساس . فهو فى أول الأمر يكون مطيعاً ، مثلاً ، لأن ذلك يرضى أمه ، ولكنه من بعد ذلك يطيع لأن جزءاً من مفهومه عن نفسه أنه إنسان مطيع . فى

أول الأمر يؤدى العصيان إلى خوف الطفل من أن يفقد حب أمه . ولكن الطفل فيما بعد ، حتى وهو بعيد كل البعد عن أمه ، يثور عنده القلق بسبب العصيان ، لأن العصيان لا يتسق مع فكرته عن نفسه من أنه ولد مطيع . أى أن تقدير الطفل لنفسه ، أو توقيره لذاته ، ينبع من علاقات المحبة المبكرة لديه ، ويتحول فيما بعد إلى قوة دافعة شديدة .

على أن الناس تتفاوت تفاوتاً هائلاً فى مدى توقيرهم لأنفسهم . من الناس من ينشأ وهو يرى نفسه طيباً فى أساسه جديراً بالاحترام ، ومنهم من يرى نفسه غير كفء . ثم إن معظم الناس تحرص على أن يظل توقيرها لذاتها على أعلى مستوى ممكن . فإننا نتجنب الناس الذين « يتهددوننا » ، أعنى هؤلاء الناس الذين يميلون إلى أن يسببوا انخفاض توقيرنا لأنفسنا . بل إننا قد نتذكر التعليقات المتملقة التى نحصل عليها بسبب أعمالنا الدراسية أكثر مما نتذكر التعليقات السلبية . وقد فسر ارنست هلجارد كثيراً من الميكانيزمات الدفاعية المشهورة التى تحدث عنها فرويد بوصفها وسائل للاحتفاظ بتوقير المرء لنفسه عن طريق خداعه لذاته . مثال ذلك أننا قد نعمد إلى تبرير السلوك العدوانى بقولنا إننا إنما نحتج على الظلم الاجتماعى .

كذلك أمكن إثبات أهمية توفير الذات بالوسائل التجريبية . من ذلك على سبيل المثال ، أننا درسنا فى إحدى التجارب مستوى التطلع عند المراهقين من أصحاب التوافق الحسن وأصحاب التوافق السيء . وكان العمل عبارة عن عملية مضاهاة بسيطة لرموز الاختزال مع حروف الألفباء . وكان المفحوصون يسألون فى نهاية كل محاولة أن يقدروا المستوى الذى يرون أن أداءهم سيصل إليه فى المحاولة التالية ـ وتقديرهم هذا هو « مستوى التطلع عندهم » . والمعروف بصفة عامة أن الناس فى هذا النوع من المواقف يميلون إلى أن يقدروا أهدافهم فى المحاولة التالية بحيث تكون أعلى قليلاً من التقدير الذى حصلوا عليه حديثاً فى محاولتهم الأخيرة . إن معظم الطلاب من أصحاب التوافق الحسن كانوا كذلك . وأما المراهقون من أصحاب التوافق السيء فقد أظهروا نوعين منحرفين من التقدير

للأهداف ـ كانوا إما أن يخفضوا من تقديرهم للنجاح فى المحاولة التالية . أو أن يضعوا لأنفسهم أهدافاً مفرطة فى الارتفاع إلى حد غير واقعى . بعبارة أخرى . نقول : إن الخوف من الفشل كان كبيراً إلى درجة أنهم هبطوا بمستوى التطلع عندهم حتى يمكنهم أن يضمنوا النجاح ، أو أنهم كانوا **يعوضون** عن مشاعر القصور عندهم بأن يضعوا مستويات لم يكن لديهم أمل كبير فى بلوغها . أى أن هؤلاء المراهقين من أصحاب التوافق السىء كانوا فيما يظهر يحاولون مستميتين أن يحفظوا على أنفسهم توقيرهم المهتز الضعيف لأنفسهم .

ولذلك ، فإننا نرى أن الرغبة فى الاحتفاظ بالتقدير الإيجابى للذات تعمل بوصفها دافعاً قوياً . وأن هذه الرغبة مشتبكة بكثير من الدوافع الاجتماعية التى سوف نناقشها فيما بعد . وهى تساعدنا على أن نفهم السبب فى أن بعض الناس تراهم يتحملون المشاق الجسيمة ، والجوع ، والألم بسبب ماعندهم من اعتزاز بالذات . ومن المهم أن نذكر أن مفهوم الذات إنما ينشأ عن العلاقات الأسرية الهامة فى الطفولة ، وأنه على الأرجح يتأثر تأثراً أولياً بذلك الدافع الأساسى إلى العلاقات الاجتماعية الذى ناقشناه فيما سلف . وهكذا تجد أنك إذا هددت توقير الرجل لذاته فإنما تهدد توقعاته بأنه إنسان له قيمته ، جدير بأن يُحَب ، وبأن يعنى به فى أوقات الشدة ، وبأنه يشغل مكانة آمنة كريمة فى المجتمع الذى يتألف من إخوانه من الناس .

الفصـل الثـامـن

الدوافع الاجتماعية وهى تؤدى عملها

إذا كان الأصل الذى تنشأ عنه الدوافع الاجتماعية لا يزال موضع خلاف نظرى ودراسات غير قاطعة ، فإن الاتفاق يكاد يكون تاماً على أهمية الدوافع الاجتماعية فى سلوك الإنسان . ذلك أن الدوافع الاجتماعية ، سواء أكانت فطرية أم متعلمة ، أم فطرية ومتعلمة ، تسيطر على معظم سلوكنا العادى اليومى. وفى هذا الفصل الثامن سوف يدور اهتمامنا بصفة أولية على الدوافع وهى تؤثر فى السلوك . وعلى الرغم من أننا سندرس الظروف الاجتماعية التى تنشأ فيها هذه الدوافع ، إلا أننا لن نهتم بالسؤال عما إذا كانت فطرية أم مكتسبة .

ونبدأ فنسأل : ماهى هذه الدوافع الاجتماعية ؟ لقد قدم المفكرون والباحثون عدة قوائم لها ، كما أن من الممكن تقديم عدة قوائم أخرى . ولعل من أكثر القوائم تأثيراً تلك القائمة التى قدمها هنرى ا . موراى عن « الحاجات نفسية المنشأ » . والحاجات نفسية المنشأ ، أو الدوافع الاجتماعية على حد تعبيرنا ، لم يتم التوصل إليها تعسفاً . وإنما تمت دراسة عدد صغير من الناس الأسوياء دراسة مكثفة أشد التكثيف باستخدام المقابلات ، والاستخبارات ، وبعض الاختبارات النفسية التى صممت بصفة خاصة لذلك . ومن بين هذه الاختبارات نجد اختبار تفهم الموضوع الذى يستخدم الآن استخداماً واسعاً كأداة لدراسة الشخصية . واختبار تفهم الموضوع يتألف من سلسلة من الصور للناس فى مواقف مختلفة . ويطلب إلى المفحوص أن يستخدم خياله ويكتب قصة عن كل صورة . ثم يمكن استنتاج الدوافع الاجتماعية من القصص المتخيلة ومراجعتها بالأدلة الأخرى . وعلى أساس من هذا النوع من التحليل المكثف لأناس أحياء فعلاً ، تمكن موراى من

تقديم قائمة مبدئية من عشرين دافعاً اجتماعياً . وهذه نجدها موضحة فى الجدول رقم (١) ومعها تعريفات مختصرة .

الجدول رقم (١)
قائمة الدوافع الاجتماعية عند موراى

الدافع الاجتماعى	تعريف مختصر له
الاتضاع Abasement	أن يخضع المرء فى سلبية إلى قوة خارجية . أن يتقبل الإصابة أو اللوم ، أو النقد ، أو العقاب . أن يستسلم . أن يستكين لقضائه . أن يعترف بالدونية ، أو بالخطأ ، أو بأنه لم يحسن صنعاً ، أو بالهزيمة . أن يعترف ويكفر . أن يلوم نفسه ، أو يقلل من شأنها أو يشوه نفسه ـ أن يسعى إلى الألم ويستمتع به ، أو بالعقوبة ، أو بالمرض ، أو بالمكروه .
الإنجاز Achievement	أن يحقق شيئاً صعباً . أن يتمكن من ، أو يسيطر على ، أو ينظم أشياء مادية ، أو بعض أفراد الإنسان ، أو الأفكار . أن يقوم بهذا بأكبر سرعة ممكنة أو بأكبر قدر ممكن من الاستقلال . أن يتغلب على العقبات ويبلغ مستوى مرتفعاً . أن يتفوق المرء على نفسه . أن ينافس الآخرين وينبذهم . أن يرفع المرء من اعتباره لنفسه بأن ينجح فى ممارسة بعض المواهب .
الانتماء Affiliation	أن ينجذب المرء إلى شخص آخر وأن يستمتع بالتعاون معه أو بالتبادل معه (ويكون هذا الشخص الآخر شبيهاً بالمرء أو محباً له). أن يدخل السرور ويتودد إلى شىء محبوب . أن يتمسك بصديق ويظل مخلصاً له .
العدوان Aggression	أن يتغلب على مقاومة بالقوة أو العنف . أن يقاتل . أن ينتقم لإصابة أو ضرر . أن يهاجم ، يصيب ، أو يقتل شخصاً آخر . أن يقاوم شخصاً آخر بعنف أو أن يعاقبه .
الاستقلال Autonomy	أن يتحرر المرء ، أن ينفض عن نفسه القيود ، أن يتخلص من الأسر أو الحبس . أن يقاوم القهر والتقييد . أن يتجنب أو يتخلى عن الأنشطة

التى تمليها السلطات المسيطرة . أن يكون المرء مستقلا وحرا حتى يسالك وفق هواه . أن يكون غير مرتبط . غير مسئول . أن يتحدى الأعراف .

العمل المضاد Counteraction	الاقتدار أو التعويض عن الفشل بإعادة السعى أو المحاولة . أن يحاول المرء إزالة الاهانة باستئناف التصرف . التغلب على الضعف . وكبت الخوف . مسح الإهانة بالعمل . البحث عن عقبات وصعوبات من أجل التغلب عليها . أن يحتفظ المرء باحترامه لذاته وبكبريائه على مستوى عال .
الدفاع Defendance	الدفاع عن الذات ضد التهجم والنقد واللوم . أن يخفى المرء أو يبرر فعلة سيئة ، أو فشلاً ، أو إهانة . الدفاع عن الأنا .
الإحترام Deference	الإعجاب بأحد الرؤساء وتأييده . أن تمتدح أو تكرم أو تؤبن . أن تستلم عن طيب خاطر ورضى لتأثير شخص أنت مرتبط به . أن تتأسى بنموذج وتحتذيه . أن تساير التقاليد .
السيطرة Dominance	أن تسيطر وتتحكم فى بيئتك الإنسانية . أن تؤثر فى سلوك الآخرين أو توجهه عن طريق الإيحاء ، أو الإغراء ، أو الإقناع . أو إصدار الأوامر . أن تثنى الشخص عن شيء أو تقيده أو تمنعه من شيء .
العرْض Exhibition	أن تترك انطباعاً . أن يراك الآخرون ويسمعوك . أن تستثير الآخرين أو تروعهم أو تدهشهم أو تخلب ألبابهم أو تسليهم أو تصدمهم أو تغريهم .
تجنب الأذى Harmavoidance	أن تتجنب الألم ، أو إصابة البدن ، أو المرض أو الموت ، أن تهرب من موقف خطير . أن تتخذ الإجراءات الاحتياطية .
تجنب الدونية Infavoidance	أن يتجنب الإهانة . أن يغادر المواقف المحرجة أو يتجنب الظروف التى قد تؤدى إلى التحقير أو السخرية أو الاستهزاء أو عدم اكتراث الآخرين . أن يمتنع المرء عن التصرف بسبب الخوف من الفشل .
الحنو Nurturance	أن تقدم التعاطف وتشبع حاجات شيء عاجز : رضيع أو أى شيء يكون ضعيفاً ، عاجزاً ، متعباً ، غير مجرب ، مشوهاً ، أو مغلوباً على أمره ، مهيناً ، وحيداً ، منبوذاً ، مريضاً ، مختلطاً عقلياً . أن تقدم المساعدة لمن كان فى خطر . أن تغذى ، أو تساعد ، أو تعضد ، أو تسرى عن ، أو تحمى ، أو تواسى ، أو تمرض ، أو تبرئ .

التنظيم Order	أن ترتب الأشياء . أن تحقق النظافة ، أو النظام ، أو الاتزان ، أو الاتفاق . أو الترتيب ، أو الدقة .
اللعب Play	أن تتصرف بقصد «اللهو» من غير قصد آخر . أن تميل إلى الضحك وإطلاق النكت . أن تسعى إلى الاسترخاء الممتع بعد الإجهاد . أن تشترك فى الألعاب ، أو الرياضة ، أو الرقص ، أو حفلات الترفيه أو لعب الورق .
الرفض أو النبذ Rejection	أن تفصل نفسك عن شىء غير مرغوب فيه أو منفر . أن تستبعد أو تتخلى عن ، أو تلفظ ، أو لا تكترث بشىء وضيع . أن تتعالى على شىء أو تهجره .
الحسية Sentience	أن تسعى إلى الانطباعات الحسية وتستمتع بها .
الجنس Sex	أن تنشئ علاقة عشق وتمضى فيها . أن تمارس المباشرة الجنسية .
طلب المساعدة Succorance	أن تجد لحاجاتك شخصاً متفاهماً يعينك على إشباعها . أن تجد من يمرضك ، أو يعضدك ، أو يسندك ، أو يكتنفك ، أو يحميك ، أو يحبك ، أو ينصح لك ، أو يوجهك ، أو يتسامح معك ، أو يعزيك ويسريك . أن تظل قريباً من شخص مخلص يحميك . أن تجد لنفسك سنداً دائماً .
الفهم Understanding	أن توجه الأسئلة العامة أو تجيب عنها . أن يكون لك اهتمام بالنظريات . أن تتأمل ، أو أن تصوغ صياغة نظرية . أو أن تحلل . أو أن تتوصل إلى التعميمات القائمة .

(مأخوذة عن : C. S. Hall and G. Lindzey. Theories of personality. New York: wiley, 1957) .

ولو أنك تفحصت قائمة موراى بعناية وجعلت تطبقها على أصدقائك ونفسك ، لوجدت أنها بمثابة وصف حساس إلى درجة فائقة لأنماط الدوافع فى الحياة العادية اليومية . تخيل أنك خرجت من أحد الامتحانات الصعبة ، وأنك وزملاءك جعلتم تسترجعون الخبرة وتحللونها . سوف تجد أن بعض الزملاء يهاجمون الأستاذ على أنه وضع امتحاناً صعباً غير عادل (العدوان) . وأن نفراً آخر منهم اتخذوا من الدرجة مؤشراً على قصورهم وعجزهم (الاتضاع) . وأن آخرين عزموا ببساطة على أن يعملوا

بجد أكثر فى المستقبل (العمل المضاد Counteraction) . بينما يرفض بعض الآخرين أن يعترفوا بالدرجة أو قد نجدهم يكذبون بشأنها (الدفاع) . أو قد يتخلى بعض الطلاب عن هذا المقرر (تجنب الدونية) . وفى مثل هذا الموقف . قد يقدم بعض الطلاب بضع كلمات قليلة من التعاطف والتشجيع (الحنو) لأخرين يبدو أنهم فى حاجة ماسة إليها (طلب المساعدة) . وبالطبع سوف ترد إلى الذهن أمثلة أخرى عديدة .

قد يكون من الممكن عند هذه النقطة أن نناقش كل واحد من هذه الدوافع الاجتماعية قليلاً . ولكننا بهذا لن نوفى أى دافع من هذه الدوافع حقها . ولذلك، فإننا سوف نتخير اثنين من هذه الدوافع لنناقشها بشيء من التفصيل . وهذان الدافعان- الإنجاز والانتماء- لم يقتصر الأمر على أنهما قد درسا دراسة أكثر تفصيلاً من الدوافع الأخرى ، وإنما نجد لها أهمية خاصة متميزة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن هذا الفصل سيكون أكثر تشبعاً بهذين الدافعين وهما الإنجاز والانتماء ، لابد لنا من أن نلتفت إلى أن هذين الدافعين يمثلان على الأقل عدة دوافع كثيرة . وسوف نتمكن فى المستقبل من استكشاف بقية الدوافع الأخرى بنفس الصورة والتفصيل .

الدافع إلى الإنجاز

كان دافيد ماكليلاند وأعوانه أكثر من توسعوا فى دراسة الدافع إلى الإنجاز . كما كانت طريقة البحث فى الدافع إلى الإنجاز امتداداً لمنهج موراى فى اختبار تفهم الموضوع . فى العادة تعرض أربع بطاقات لاختبار تفهم الموضوع بجهاز العرض على شاشة أمام المفحوصين ، ثم يطلب إليهم أن يكتبوا قصة فى خمس دقائق مسترشدين بعدة أسئلة . والصورة إما أن تختار أو أن تصنع خصيصاً لتوحى بأفكار الإنجاز . وبعد ذلك تقدر القصص ويتم تقويمها بحسب مضمون الإنجاز فيها .

وقد عرف ماكليلاند الإنجاز بأنه الأداء فى ضوء مستوى الامتياز أو مجرد

الرغبة فى النجاح . وعند تقدير الدافع إلى الإنجاز تتم قراءة كل قصة ثم يتخذ قرار عام حول وجود أو عدم وجود خيال الإنجاز فيها . فإن كان خيال الإنجاز موجوداً ، يكون علينا عندئذ أن نحكم بوجود أو عدم وجود مكونات محددة للإنجاز ، مثل التعبير عن رغبة فى الإنجاز (على سبيل المثال «هو يريد أن يصبح طبيباً») ، ووصف النشاط الموصل إلى النجاح («هو سيبذل قصارى جهده») ، أو توقع الوصول إلى الهدف («هو يفكر فى اليوم الذى سيصبح فيه مشهوراً») . ثم تقدر الدرجات لهذه المكونات ونحوها ، وتجمع الدرجات بعد ذلك ليتم التوصل إلى مؤشر رقمى لقوة دافع الإنجاز عند فرد معين . والمقياس أقرب إلى أن يكون معقداً ، ولكنه مع التدريب يمكن أن يصل الطلاب إلى التمكن منه والاتفاق فيه .

وإليك مثالاً لقصة تتضمن مغزى عن الإنجاز القوى . والقصة كانت استجابة لصورة يظهر فيها ولد صغير فى المقدمة ومشهد خيالى لعملية جراحية فى الخلفية .

> هذا الولد الصغير يحلم باليوم الذى يكون قد أكمل فيه تعليمه وأصبح طبيباً عظيماً مشهوراً . وربما تبرز هذه الصورة شخصاً قد اشتهر بالفعل بسبب أبحاثه . وقد سأله أبوه أو أحد أقربائه عما يريد أن يفعله عندما يكبر ، وهو يحاول أن يطلعهم على الصورة العقلية التى يحملها فى ذهنه عن نفسه بعد ثلاثين سنة . الولد يفكر فى المتعة والإثارة الكبيرة التى يخبرها الطبيب عندما يجرى جراحة دقيقة يستنقذ بها حياة إنسان . الولد سوف يمضى إلى الالتحاق بالكلية ليصبح فى آخر الأمر طبيباً مشهوراً فى العالم بأسره[*] .

من الواضح جداً أن هذا المفحوص يعبر عن رغبة قوية فى الشهرة والنجاح . وقد ينكر المفحوص مثل هذا الدافع القوى إلى الإنجاز لو أنه سئل عنه صراحة ، ولكنه قادر على أن يكشف عنه فى موقف الخيال هذا . كذلك قد لا يكون طموحه بالضرورة فى اتجاه الطب ، وإنما فى مجالات التجارة ، أو الأدب ، أو الخدمة الاجتماعية . فإن المضمون الطبي للقصة تمليه الصورة ، ولو أن المفحوصين

---

* From J.W. Atkinson (ed.) Motives in fantasy, action, and society. Princeton, N.J.: Van Nostrand, 1958.

الآخرين قد يركزون على الخوف من عملية جراحية أو على مشاعر التأثم من أن شخصاً ما قد أصيب .

هل يؤدى الدافع إلى الإنجاز إلى تسهيل التعلم والأداء؟ لنتذكر أن هذا هو واحد من التعريفات الجوهرية للدافع . والواقع أن عدداً كبيراً من الدراسات قد أظهر أن من كان ذا دافع قوى إلى الإنجاز يتعلم الاستجابات بصورة أسرع وأحسن من أصحاب الدافع المنخفض إلى الإنجاز. ولكنه مع ذلك لا يمكن الحكم بأن الأفراد من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز يكون أداؤهم أفضل بطريقة تلقائية فى كل الأعمال . فإنهم قد لا يتفوقون فى الأعمال المملة الروتينية التى لا تنطوى على شىء من التحدى. ولذلك ، كان من اللازم أن يستثار الدافع إلى الإنجاز عندهم.

وهذا هو ماأظهرته بوضوح دراسة أجرتها إليزابيث فرنش Elizabeth G.French . فقد كلفت طلاب كلية للقوات الجوية أن يقوموا بعملية ترميز بسيطة فى ظل ظروف مختلفة ثلاثة : أما فى ظروف الاسترخاء فقد قيل للمفحوصين إن المجرب يريد أن يتحقق من بعض الاختبارات ، وأما فى ظرف الاندفاع إلى العمل فقد قيل لبعض الطلاب الآخرين أن الاختبار يقيس الذكاء وأن النتائج قد تؤثر فى مستقبلهم المهنى ، وأما المجموعة الثالثة فقد تم تحفيزها ودفعها بعوامل خارجية عن طريق مكافأة تعطى للخمسة الأوائل وهى أن يسمح لهم بالخروج قبل الآخرين بساعة كاملة يقضونها فى نشاط حر. كذلك كان الدافع إلى الإنجاز قد تم قياسه بصورة لفظية من اختبار ماكليلاند ، كما كانت كل مجموعة من المجموعات الثلاثة قد قسمت إلى فئة من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز وفئة من أصحاب الدافع الضعيف إلى الإنجاز.

وتبين نتائج دراسة فرنش أنه لم تكن هناك فروق ملحوظة فى مجموعة ظرف الاسترخاء بين فئة الدافع القوى وفئة الدافع الضعيف ـ لم يكن هناك ما يتحدى فئة الدافع القوى إلى الإنجاز. وأما فى المجموعة الثانية عندما كان الأمر يتصل بالذكاء والمستقبل المهنى ، فإن أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز أحسوا بما يستثيرهم فتحسن أداؤهم . وأما أطرف النتائج فلعلها تلك التى ظهرت فى مجموعة الإثابة الخارجية ، إذ تبين أن أصحاب الدافع الضعيف إلى الإنجاز استجابوا قليلاً

لإغراء الساعة الحرة ، بينما لم يستجب لذلك أصحاب الدافع القوى . وتؤيد دراسات أخرى هذه النتيجة ـ وهى أن أصحاب الدافع القوى لا يسهل حفزهم بالجوائز الخارجية ونحوها . وإنما هم يحسنون صنعاً عندما يحصلون على متعة الإنجاز بعد القيام بالعمل بمستوى مقبول فى ضوء معايير للتفوق .

فما هى الصفات الأخرى لأصحاب الدافع القوى للإنجاز؟ هم أميل إلى الثقة بالنفس وإلى تفضيل المسئولية الفردية ، وإلى تفضيل المعرفة المفصلة بنتائج أعمالهم . وهم يحصلون على درجات مدرسية طيبة . تراهم نشطين فى مناشط الكلية والبيئة ، يتخيرون الخبراء لا الأصدقاء ليشتركوا معهم فى الأعمال ، ويقاومون الضغط الاجتماعى الخارجى . وهم يستمتعون بالمخاطرة المعتدلة فى المواقف التى تتوقف على قدراتهم الخاصة ، لا المواقف التى ترتكز على الحظ الصرف والتى لا يكون لهم فيها يد أو تأثير مثل المراهنات على سباق الخيول .

وبصفة عامة ، نجد أن أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز تتوفر فيهم صفات كثيرة من النوع الذى تجده لدى رجل الأعمال الطموح صاحب الرأس الصلبة . ولذلك ، فلا عجب أن تراهم يؤثرون المهن من نوع سمسار الأسهم أو مديرى المصانع . وقد جعلت هذه العلاقة ماكليلاند يؤمن بأن أصحاب المشاريع ـ المنظمين ، والمخاطرين ، وبناة الاقتصاد فى العالم ـ إنما يكون دافعهم الأساسى الأول هو الرغبة فى الإنجاز .

وهنا نجد أن نظرية ماكليلاند تسير عكس الافتراض السائد عند معظم رجال الاقتصاد ، وعند رجل الشارع ، من أن أصحاب المشاريع إنما يحفزهم « دافع الربح ». ولكن ماكليلاند ، مع ذلك ، يقول إن النهم إلى المال ليس مقصوراً على أصحاب المشاريع . ومثال ذلك أن المرابين (أو مقرضى الأموال) فى الهند هم على التأكيد من حب المال والرغبة فى الربح بمنزلة الرأسماليين البريطانيين فى القرن التاسع عشر ، ولكن من غير أن تكون لهم نفس خصائص « بناء الامبراطورية » . وأصحاب المشروع يحرثون أموالهم مرة أخرى فى توسيع المشاريع والأعمال . أضف

إلى ذلك أن ماكليلاند يرى نفس النوع من سلوك أصحاب المشاريع لدى مديرى المصانع فى البلاد الشيوعية حيث يكون الدافع إلى الربح أقل ما يمكن . ومع ذلك ، تجد المديرين الشيوعيين يسعون جاهدين إلى الانتشار والاتساع وإلى الإنتاجية وإلى النجاح .

ويذهب ماكليلاند إلى أن أصحاب المشاريع إنما يدفعهم دافع أساسى أولى هو الدافع إلى الإنجاز . وهم إنما يأبهون للأرباح والدخل الخاص لأن هذه الأمور تستخدم فى قياس كفاءة المرء واقتداره . أى أن المال يصبح رمزاً للنجاح . ويقدم ماكليلاند الدليل على أن المديرين فى بلاد متفاوتة مثل الولايات المتحدة ، وايطاليا ، وبولندة الشيوعية يحصلون على درجات عالية فى الدافع إلى الإنجاز . فأصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز إنما يبتغون التقدير بالأسلوب المحسوس الملموس وهو المال جزاءً على جهودهم من أجل الإنجاز .

فكيف ينشأ لدى الفرد الدافع إلى الإنجاز ؟ يبدو أنه يتوقف على قيم الوالدين وعلى مدى الاهتمام والتأكيد الذى يكون لديهما عن مثل هذا الشيء . مثال ذلك أن ماريون ونتربوتوم Marion Winterbottom قامت بقياس الدافع إلى الإنجاز عند مجموعة من الأولاد فى الثامنة من العمر فى بيئة صغيرة فى الولايات الوسطى من الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم ربطت بين ذلك وبين ما ذكرته أمهاتهم عن الأساليب التى استخدمت فى تنشئتهم وتربيتهم . ووجدت أن أمهات الأولاد من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز كن يتطلبن الاستقلال والتمكن فى سن أكثر تقدماً مما فعلت أمهات الأولاد من ذوى الدافع الضعيف إلى الإنجاز . ومثال ذلك أن الأولاد من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز عندما بلغوا السابعة كانت الأمهات قد بدأن يطالبن الأولاد بمعرفة شوارع المدينة وأحيائها ، وبأن يحاولوا بعض الأمور الجديدة الصعبة بمفردهم ، وبأن يتحلوا بالنشاط والحيوية وكثرة الطاقة ، وبأن يتخيروا أصدقاءهم بأنفسهم ، وبأن يوفقوا فى المباريات والتنافس . كذلك كان هؤلاء الأمهات لا يفرضن إلا القليل من القيود على تصرفات الأولاد ، وإذا فرضن قيوداً طالبن أولادهن بالتمكن منها فى سن مبكرة .

كما أن هؤلاء الأمهات كن يحسن تقدير المستويات التى يبلغها الأولاد ويثبنهم عليها بالاحتضان والقبلات . على حين أن أمهات المجموعات ذات الدافع الضعيف كن أكثر تقييداً ، ولم يكن يشجعن الاعتماد على الذات حتى ظل الأولاد أكثر اعتماداً على الأسرة .

الدافع إلى الانتماء

الانتماء دافع اجتماعى هام آخر . وهو يختلف تماماً عن الدافع إلى الإنجاز ، ويكاد أن يكون مناقضاً له تماماً . والشخص الذى لا يكون لديه أساساً إلا الدافع إلى الإنجاز قد يقدم للمجتمع إسهامات هامة ، ولكنك قد لا ترتاح كثيراً للحياة معه . ولكن هناك أناساً آخرين أكثر اهتماماً بالعلاقات الإنسانية . ولنتذكر أن الأفراد الذين يكون دافعهم الأساسى إلى الإنجاز يفضلون العمل مع الخبراء من أجل أن يتموا الأعمال . أما أولئك الذين يكون الدافع إلى الانتماء قوياً لديهم فيفضلون العمل مع الأصدقاء أو مع الرفاق المخلصين حتى وإن تأثر العمل تبعاً لذلك . ومن الواضح أن هنا فرقاً أساسياً عند تحديد الأشياء التى هى أكثر أهمية .

وقد تضمن الجدول رقم ١ ذلك التعريف الذى أورده موراى للدافع إلى الانتماء، وهو يشير فى أساسه إلى رغبة المرء فى أن يكون مع الناس فى علاقة حب وصداقة . وقد تم تعريف الدافع إلى الانتماء تعريفاً يتناسب مع تقدير قصص اختبار تفهم الموضوع بأنه « اهتمام من جانب شخصية أو أكثر من الشخصيات فى القصة بأن تقيم ، أو تحافظ على ، أو تستعيد علاقة ود إيجابية مع شخص آخر . » كما وضعت طريقة لتقدير الدرجات فى الانتماء شبيهة بتلك الطريقة التى استخدمت فى الدافع إلى الإنجاز . وهذه الطريقة تتضمن التعبير عن الرغبة فى علاقة صداقة ، والخوف من النبذ ، والأنشطة المتجهة نحو إقامة علاقة ، والسعى إلى تحصيل العلاقة الوثيقة بوصفها هدفاً . على أن بعض قصص اختبار تفهم الموضوع المعينة أفضل من غيرها فى استخراج قصص الانتماء . وإليك مثالاً لقصة من قصص هذا الاختبار تتضمن مادة كثيرة توحى بالدافع إلى الانتماء :

« اثنان من طلاب الكلية الأصدقاء لم يقابل أحدهما الآخر منذ فترة طويلة . ثم مقابلة بالصدفة وسرور بأن يلتقى الواحد بصاحبه . أو لعله يوم عودة الخريجين أو يوم الدفعات القديمة . لقد كانت بينهم صداقات حميمة وثيقة فى الكلية . ولعلهم الآن يستعيدون الذكريات . سوف يمضون الأمسية معاً ثم يخططون للقاءات أخرى فى المستقبل » .

وقد تبين من عدة مواقف أن قياس الانتماء باختبار تفهم الموضوع قياس فعال مرض. فمن ذلك ، مثلاً ، أن شبلى وزميله فيروف T.E. Shipley and J. Veroff طبقا استخباراً سوسيومترياً على أعضاء بيت من بيوت المدينة الجامعية . وكان كل عضو من أعضاء هذا البيت يكلف بتقدير شخصية كل واحد من زملائه فى السكن من حيث العدوانية ، والصداقة ، والخداع ، والجبن ، والتعاون ، ونحو ذلك . وقد طبق الاستخبار فى المسكن بعد أن يطلب من كل عضو أن يقف بدوره حتى تقوم الجماعة بتقديره . وكان يظن أن هذا الموقف قد يثير الخوف من احتمال النبذ ، كما يثير الدافع إلى الانتماء . ثم أعقب ذلك مباشرة تطبيق اختبار تفهم الموضوع وتقدير الاستجابات من حيث الدافع إلى الانتماء . وتبين أن هذه المجموعة التجريبية ، إذا قورنت بمجموعة أخرى لم تطالب بالاستجابة للاستخبار السوسيومترى ، عمدت إلى كتابة قصص تتضمن قدراً أكبر من مضمون الانتماء .

والآن كيف يؤثر الدافع إلى الانتماء فى الأداء ؟ أما الفرد الذى يشتد عنده الدافع إلى الإنجاز وتقوى عنده النزعة الفردية فإنه يعمل بجد واجتهاد أكثر إذا وجد نفسه منغمساً فى المشكلة . وأما الفرد الذى يشتد عنده الدافع إلى الانتماء أولاً فإنه قد لا ينغمس ويتحمس كثيراً لإنجاز العمل وإنهائه . فإن للناس أهمية عنده تفوق أهمية العمل . بل الواقع أن مثل هذا الشخص قد يجد من الصعب عليه أن يظل فى غرفته بمفرده لكى يدرس ويستذكر ـ وإنما يفضل أن ينضم إلى جماعة تناقش أمراً أو أن يخرج فى نزهة مع صديق . فهل هناك أية مواقف يؤدى فيها الدافع إلى الانتماء إلى تسهيل أداء العمل ؟

---

(1) From Atkinson. Ibid.

أجرت إليزابيث فرنش دراسة قامت فيها بمقارنة أداء العمل عند الأفراد من أصحاب الدافع إلى الإنجاز بأدائه عند الأفراد من أصحاب الدافع إلى الانتماء وذلك فى ظل نوعين من الظروف. كان العمل بالنسبة لمجموعة من أربعة أشخاص عبارة عن إعادة تكوين قصة قصيرة من عشرين جملة أو عبارة. وكان لدى كل عضو من الجماعة خمس وحدات مكتوبة على بطاقات، وكان يسمح له بأن يحدث الآخرين عنها ولا يسمح له بأن يعرض عليهم البطاقات. وكان نصف المجموعات يتكون من أناس من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز، ونصفها الآخر من أفراد ذوى دافع قوى إلى الانتماء.

وأما الظرفان التجريبيان فقد تألفا من معلومات **تغذية مرتدة** مختلفة. ومعنى هذا أن كل مجموعة كانت تطالب بالتوقف عدة مرات أثناء العمل ليتم إخبارها بمدى إجادتها للعمل الذى تقوم به. وكان يقال لنصف مجموعات الإنجاز ونصف مجموعات الانتماء أنهم يؤدون العمل بكفاءة واقتدار. كما كان ينوه ويشاد بالأشياء التى يحسنون صنعها، أى أن التنويه والإشادة كانت تنصب على أداء العمل. وكان هذا الظرف يسمى **بالتغذية المرتدة المتصلة بالعمل**. وأما بقية مجموعات الإنجاز والانتماء فقد أعطيت ما يسمى **بالتغذية المرتدة المتصلة بالمشاعر**. أعنى أن ما قيل لهم كان ينصب على الانسجام الاجتماعى فى المجموعة. كأن يقال لهم إنّ المجموعة كانت تعمل فى انسجام ويمتدحون أنهم أتاحوا لكل منهم فرصة المشاركة والإسهام، وأن صبرهم يتسع لسماع الاقتراحات الضعيفة، وأن مناقشاتهم كانت ودية، وهكذا. ومن الواضح جداً أن هذين النوعين من التغذية المرتدة كانت لهما آثار مختلفة.

وقد تم تقدير الدرجات للمجموعات على أساس عدد العبارات التى وضعت فى مكانها الصحيح، مع إعطاء درجات إضافية للانتهاء من العمل فى حدود الزمن المسموح به. وأظهرت النتائج أن المجموعات ذات دافع الإنجاز كان أحسن أدائها مع التغذية المرتدة المتصلة بالعمل. على حين أن المجموعات ذات دافع الانتماء لم يحسن أداؤها بالتغذية المرتدة المتصلة بالعمل، وإنما بالتغذية المرتدة

المنصبة على المشاعر. وبذلك يتضح أن المعلومات المرتبطة ارتباطاً محدداً بالعمل تكون مفيدة أو دافعة بالنسبة للأفراد المتوجهين نحو الإنجاز لا الأفراد المتوجهين للانتماء. وأما الأفراد من ذوى الدافع إلى الانتماء فإنهم يحسنون الاستجابة للمعلومات المتصلة بالجوانب الإنسانية من الموقف، وذلك على خلاف أصحاب الدافع للإنجاز. وتقول فرنش أيضاً إن المناخ العام فى كل من نوعى المجموعات كان مختلفاً اختلافاً ملحوظاً واضحاً. أما مجموعات الإنجاز فكانت حريصة على إكمال العمل، وتتنافس بعنف. وأما مجموعات الانتماء فكانت أكثر هدوءاً وأقل توتراً، يبدو على أفرادها ميل كل واحد منهم ميلاً ودياً إلى صاحبه وإلى المجرب.

والآن نسأل كيف ينشأ الدافع إلى الانتماء؟ وهل هناك شيء يقابل التدريب على الاستقلال الذى يقدم للأطفال من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز؟ مما يؤسف له أن ما نعلمه عن نشأة الانتماء أقل من ذلك بكثير. هناك بعض الملاحظات العامة تشير إلى أن آباء الأطفال من ذوى الدافع إلى الانتماء يزيد اهتمامهم وتأكيدهم على العلاقات الأسرية الوثيقة وعلى الالتزام بسلطة الوالدين. كذلك يبدو أنهم يشجعون الاتكال بدلاً من الاستقلال. ولكن هذه الحقائق، مع ذلك، لم تتأكد بعد، ولم يصبح مقطوعاً بصحتها حتى الآن.

ثم إن هناك بعض الشواهد على أن الانتماء مرتبط بالقلق. فقد استخدم ستانلى شاختر Stanley Schachter أداة غير اختبار تفهم الموضوع لقياس الانتماء، وأظهر أن زيادة القلق تميل إلى زيادة الدافع إلى الانتماء. كانت مجموعات من الطالبات قد طلب إليهن أن يشتركن فى تجربة وقيل لهن إنهن قد يتعرضن لصدمات كهربية أقرب إلى أن تكون مؤلمة. ثم عرض عليهن جهاز كهربى بشع المنظر، وقيل لهن إن التجربة لن تبدأ إلا بعد فترة تأخير مقدارها عشر دقائق، وأنهن يستطعن خلال هذه الفترة أن ينتظرن وحدهن أو مع الجماعة. وكانت هذه هى مجموعة القلق المرتفع. وأما فى مجموعة القلق المنخفض فلم يعرض الجهاز الكهربى، كما تمت طمأنة المفحوصات إلى أن الصدمة ستكون طفيفة لاتحدث ألماً. وأما حقيقة الأمر فكانت أن الصدمة الكهربية لم توقع على

أى واحدة من أفراد المجموعتين . وكانت المسألة كلها أن يتبين الباحث إن كانت المفحوصات سيؤثرن البقاء مجتمعات أم منفردات بعد أن يتعرضن للخوف .

وأظهرت النتائج أن معظم الإناث فى مجموعة القلق المرتفع أردن البقاء مع الأخريات ، على حين أن معظم أولئك اللائى كن بمجموعة القلق المنخفض لم يأبهن كثيراً أيبقين وحدهن أم مع الآخريات . بعبارة أخرى ، يمكن القول إن القلق يزيد من الانتماء، وأن بقاء المفحوصات معاً يؤدى فيما يبدو إلى خفض القلق بالنسبة لبعض الناس . وقد انصبت بعض الدراسات على معرفة السبب الدقيق فى ذلك . وبينت بعض البحوث أن الأفراد القلقين يريدون أن يقارنوا أنفسهم بالآخرين حتى يتمكنوا من تقدير انفعالاتهم وتقرير مدى الخوف الذى ينبغى أن يكونوا عليه . لكن هذه المقارنة يبدو أنها تتم بصورة غير لفظية ، فقد تبين أن الأفراد القلقين يفضلون أن يظلوا معاً ولو لم يسمح لهم بأن يتحدث بعضهم إلى بعض . ويرى بعض الباحثين الآخرين أن بقاء الناس معاً يتيح الفرصة للتنفيس الانفعالى أو تحويل الانتباه . وأخيراً قد يكون تفسير هذه الظاهرة أن بعض الناس قد تعلموا أن يسعوا إلى غيرهم أو أن يبحثوا عنهم عندما يشتد بهم القلق ـ شأنهم فى ذلك شأن قردة هارلو عند تشبثها بالأمهات .

ومما يتصل بهذا أن شاختر وقع على اكتشاف طريف آخر . فقد تبين له أن الطالبات اللائى رغبن فى الانتماء عند التعرض للقلق كن فى الأغلب من نوع الطفل الوحيد فى الأسرة أو الطفل الأول الذى يولد بها . وأن الأطفال الذين يتأخر مولدهم فى الأسرة كن أقل ميلاً إلى ذلك . بل إن حقيقة الأمر أنه تبين أن الطالبات من نوع الطفل الثالث فى الأسرة كن أقل ميلاً إلى ذلك من الطالبات من نوع الطفل الثانى ، وأن الطالبات من نوع الطفل الرابع فى الأسرة كن أقل ميلاً إلى ذلك من الطالبات من نوع الطفل الثالث . وهذه النتيجة التى توصل إليها شاختر توحى بأن الأطفال الذين يولدون أولاً للأسرة تكون لهم فرصة أكبر متاحة لتعلم الاتكالية على الوالدين .

ومن الطبيعى أن الموقف ليس بمثل هذه البساطة . وأول الأسباب أن الرجال يختلفون عن النساء فى الاتكالية ، وذلك كما تبين من بعض الدراسات . وفى الحضارة الأمريكية لا يتقبل كثيراً من الذكر أن يكون اتكالياً أو أن يلتمس التسرية عند الآخرين . ثم إن نوع القلق يبدو ذا أهمية أيضاً . ففى دراسة أجريت على الذكور تبين أن الخوف من الصدمة الكهربية يزيد الانتماء ، على حين أن القلق من أن يضطر الواحد منهم إلى امتصاص زجاجة الرضاعة كان يجعل المفحوصين يؤثرون فيما يبدو البقاء بمفردهم . وقد يكون أن هذه التجربة الأخيرة أثارت قدراً مفرطاً من القلق المتصل بالاتكالية . على أى حال ، نحن نجد أن هناك عدة عوامل ذات صلة . وأن كل هذه الأبحاث تنطوى على فكرة أن الدافع إلى الانتماء يتضمن التدريب على الاتكالية أثناء الطفولة ، على حين أن الدافع إلى الإنجاز يتضمن التدريب على الاستقلال .

الدوافع الاجتماعية والمجتمع

للدوافع الاجتماعية ، من قبيل الإنجاز والانتماء، كما رأينا، تأثيرات هامة على الأداء فى الظروف المختلفة . وكذلك رأينا أن هذه الدوافع الاجتماعية تتأثر كثيراً جداً بطرق تنشئة الأطفال ، وقيم الوالدين ، وتكوين الأسرة . والسؤال الآن هو : ما الصلة بين هذه الدوافع الاجتماعية عند الفرد وبين المجتمع بأسره؟ من الواضح أن هناك علاقة بين الدوافع التى تكون لدى أفراد المجتمع وبين القيم السائدة فى هذا المجتمع . كذلك من الممكن جداً أن تكون هناك علاقة فيما بين هذه الدوافع الفردية والقيم الاجتماعية من ناحية ، والنمو الاقتصادى ، والتكوين السياسى ، والمستوى الحضارى للمجتمع من ناحية أخرى .

إن معظم المؤرخين ، ورجال الاقتصاد ، وعلماء الاجتماع يفسرون الدوافع الفردية فى ضوء الظروف والأحوال الاجتماعية التى يعيش فيها الفرد . وهكذا نجد مثلاً أن دافيد ريسمان David Riesman يذهب إلى أنه عندما بدأت المدنية الأوروبية فى العصور الوسطى تفضى إلى قيام الرأسمالية ، بدأ

المجتمع يحتاج إلى أصحاب المشاريع الذين ينشئون الصناعات ويسايرون الازدياد فى عدد السكان . كما يشير أناس آخرون إلى اكتشاف الموارد الطبيعية ، ووجود المناخ الملائم الأمثل ، أو إلى افتتاح مناطق تسويق جديدة . وأما المؤرخ العظيم آرنولد توينبى Arnold J. Toynbee فيقول ببساطة إنه إذا توفرت المثيرات البيئية والاجتماعية المناسبة ـ فلا تكون مفرطة فى السهولة أو مفرطة فى الصعوبة ـ أمكن للمجتمع أن يقدم استجابته الإبداعية .

لكن دافيد ماكليلاند يرى القصور فى كل وجهات النظر السابقة . وهو لا ينكر أن هذه العوامل هامة . مثال ذلك أن الأجواء المدارية قد تزود الناس بمدد وفير من الطعام حتى لا يتبقى إلا الدافع الضئيل إلى التغيير ، على حين أن الأجواء قاسية البرودة قد تجعل الإنسان ينفق كل جهده فى أن يحفظ على نفسه الحياة . كما أن ازدياد السكان يؤدى فى بعض الأحوال إلى تنشيط الاقتصاد . ومن الصحيح أيضاً أن اكتشاف الزيت فى أرض صحراوية فقيرة له تأثير عميق على الاقتصاد . وقد أجرى ماكليلاند دراسات منهجية على مجموعة كبيرة من البلاد التى تقع فى المنطقة المعتدلة حيث ينبغى أن نقلل كثيراً من العوامل المناخية . وتبين أن ازدياد السكان لا يكون مرتبطاً على الدوام بالرخاء والرفاهية ، بل إنه كثيراً ما يؤدى إلى انخفاض فى النمو الاقتصادى . كما وجد أيضاً أن البلاد المتكافئة من حيث الموارد الاقتصادية تتفاوت تفاوتاً هائلاً فى مدى استغلالها لهذه الموارد . ولذلك ، فلابد أن فى الأمر شيئاً آخر .

ويذهب ماكليلاند إلى أن هذا الشىء الآخر أمر سيكولوجى ـ وهو الدافع الاجتماعى عند الشعب فى البلد . ويرى على التحديد أن تلك البلاد التى نمت فى أطفالها دافعًا قوياً إلى الإنجاز ، أفادت من وراء ذلك مكاسب اقتصادية فى السنوات التالية بعد أن شب الأطفال وصاروا من أصحاب المشاريع . وبالإضافة إلى ذلك ، وضع ماكليلاند اختباراً عبقرياً لتمحيص صحة هذا الفرض .

فى أو الأمركان على ماكليلاند أن يبحث عن مقياس للنمو الاقتصادى يكون

متماثلاً بالنسبة للدول الأربعين الواقعة فى المنطقة المعتدلة التى قام بدراستها . وهذا ليس بالأمر السهل ، ولكنه استقر أخيراً على كمية القوة الكهربية التى تنتجها الدولة مقارنة بعدد السكان فيها . ذلك أن كل الصناعة تتوقف على القوة الكهربية . ولذلك فإنها تزودنا بمؤشر للنمو الاقتصادى . وكانت بيانات القوة الكهربية ميسورة للسنوات ١٩٢٩ و ١٩٥٠ . وتبين أن هذه الدول المتعددة تفاوتت تفاوتاً كبيراً فى الزيادة التى طرأت على إنتاج القوة الكهربية خلال هذه الفترة .

وأما بالنسبة لمقياس الدافع إلى الإنجاز ، فقد كان ماكليلاند يريد شيئاً يبين درجة الاهتمام بالإنجاز الذى يتعرض له الأطفال . وقد تخير كتب المطالعة أو كتب القراءة التى يستخدمها الأطفال فى الصفوف الثانى والثالث والرابع من سنوات ١٩٢٥ و ١٩٥٠ . واختيرت من هذه الكتب بعض القصص بصورة عشوائية ، وتم تقدير الدرجات لها من حيث الدافع إلى الإنجاز بطريقة شبيهة بالطريقة المستخدمة فى القصص التى نحصل عليها باستخدام اختبار تفهم الموضوع. وبذلك أصبح لدى ماكليلاند مقياس لدرجة الاهتمام بالإنجاز من قبل بداية فترة النمو الاقتصادى أو التدهور الاقتصادى ، ومقياس آخر عند نهاية هذه الفترة .

وقد أظهرت النتائج أن هناك علاقة إيجابية بين درجة الدافع إلى الإنجاز فى كتب القراء للأطفال حول سنة ١٩٢٥ والنمو الاقتصادى مقدراً بالتغيرات فى إنتاج القوة الكهربية فيما بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٥٠ . ومعنى هذا أن البلاد التى تحققت بالنسبة لها أكبر زيادة فى الإنتاج الكهربى (مثل بريطانيا العظمى) كانت فى كتب القراءة للأطفال فى سنة ١٩٢٥ بها أكبر درجة من الاهتمام بالإنجاز ، بينما كانت البلاد ذات الزيادة الصغيرة أو الانخفاض (مثل بلجيكا) ذات اهتمام قليل بالإنجاز. وأما من الناحية الأخرى، فلم تكن هناك علاقة بين الإنجاز الذى يبدو فى كتب القراءة لسنة ١٩٥٠ والزيادة فى إنتاج القوة الكهربية. على أن لهذه النقطة الأخيرة أهميتها . فإنها تعنى أن أفكار الإنجاز فى كتب المطالعة للأطفال ليست **نتيجة** للتوسع أو النمو الاقتصادى . كما تعنى أن هناك عاملاً هاماً فى النمو الاقتصادى هو درجة الاهتمام

الذى أظهرناه للأطفال فى الأجيال السابقة بالإنجاز وضرورته . فالمغزى هو أننا إذا حفزنا الأطفال إلى الإنجاز ، وجدناهم يقومون بالأشياء المطلوبة لتنمية الاقتصاد عند ما يكبرون . أى أن الدافعية تسبق النمو الاقتصادى ! .

والآن هل من الممكن أن يكون قيام المدنيات العظمى وانحلالها قد اعتمد على الدافع إلى الإنجاز ؟ قام ماكليلاند بتمحيص هذه الفكرة أيضاً . خذ على سبيل المثال ، تلك المدنية الإغريقية الكلاسيكية المتركزة فى أثينا . كانت الإغريق القديمة قد بدأت تنمو اقتصادياً خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، ولكنه لم يحدث إلا فى القرن السادس قبل الميلاد أن بدأت أثينا تظهر معالم المدنية التى ستتحول إليها . وخلال القرن الخامس قبل الميلاد وصلت إلى ذروتها فى العصر الذهبى عصر بيريكليس . وكانت هذه هى الفترة التى عاشت فيها الشخصيات الشهيرة من أمثال إيشيلوس ، ويوربيدس ، وأرستوفانيس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطوطاليس ، والتى قدموا فيها إسهاماتهم الرائعة الهائلة إلى المدنية الغربية ، كذلك كانت هذه الفترة فترة قوة اقتصادية هائلة . وبعد ذلك بزمن قصير ، انهزمت أثينا فى حرب البيلوبونيز (Pclopennesian war) على يد أسبرطة وبدأ اضمحلالها .

هنا نجد الرأى التقليدى يتلخص فى أن قيام هذه المدنية الرائعة كان نتيجة للازدهار الاقتصادى . وهذا الازدهار بدوره أنتج الأفراد المتوجهين نحو الإنجاز المرتبطين بالمدنية المزدهرة النامية . بينما ينسب الاضمحلال عادة إلى الحرب البيلوبونيزية غير الموفقة ، تلك الحرب التى كان يقدر أنها سوف تستنزف طاقات أهل أثينا وتؤدى إلى فقدان الدوافع . ولكن ماكليلاند ، مع ذلك ، يذهب إلى أن الدافع إلى الإنجاز يسبق فترة أقصى النمو ، وأن اضمحلال المدنية يسبقه انحدار فى الدافع إلى الإنجاز .

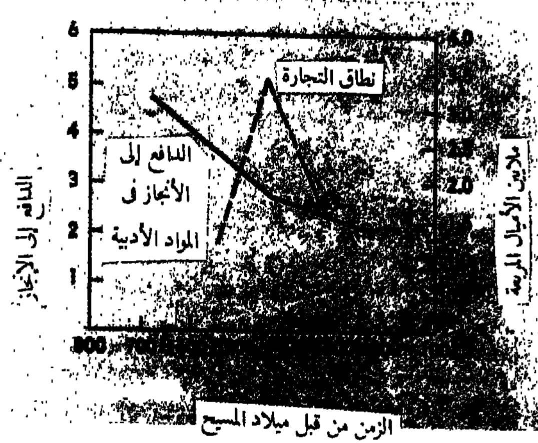
فكيف نقيس النمو الاقتصادى والدافع إلى الإنجاز فى مثل هذه المدنية القديمة؟ عزم ماكليلاند وأعوانه على أن يستخدموا مجال التجارة بوصفه مؤشراً على النمو الاقتصادى ، بسبب أن كثيراً من الرفاهية والرخاء فى أثينا كان يرتكز على التجارة

الخارجية التى امتدت من الأطلسى حتى البحر الأسود . ومن الممكن تقدير مدى انتشار مجال التجارة هذا فى الأوقات المختلفة عن طريق الأماكن التى تم فيها الكشف عن الجرار الأثينية . وكانت هذه الجرار تحمل النبيذ وزيت الزيتون وهما أكبر عناصر التجارة . على أن الجرار التى تنتمى إلى القرون السادس والخامس والرابع يمكن التعرف عليها من أشكالها وتصميمها ، كما كان قد تم تسجيل الأماكن التى عثر فيها على هذه الجرار . وبذلك يصبح من الممكن أن نرسم خريطة تقريبية لنطاق التجارة فى القرون الثلاثة التى تقابل فترات النمو ، والذروة . والاضمحلال فى المدنية الأثينية .

أما الدافع إلى الإنجاز فى المدنية الأثينية فقد تم قياسه من عينات من الأدب ـ الدراما ، والخطب الجنائزية ، والأشعار ، وخطب الحرب ، وما إلى ذلك . وقد تم اختيار عدد متشابه من كل نوع من هذه الأنواع من فترة النمو المبكرة (من القرن التاسع حتى سنة ٤٧٥ ق . م) ، والذروة (من سنة ٤٧٥ إلى ٣٦٢ ق . م) ، والاضمحلال (٣٦٢ ـ ١٠٠ ق . م) . ومن الأمثلة على فترة النمو المبكرة الشاعر هوميروس ، وبيزيكليس من فترة الذروة ، وديموسثينس من فترة الاضمحلال .

وتتضح النتائج فى الشكل رقم (١٢) . ومنه يتبين أن نطاق تجارة أثينا ارتفع من حوالى ١,٢ مليون ميل مربع فى القرن السادس قبل الميلاد إلى ٣,٤ مليون ميل مربع فى القرن الرابع . ويوضح هذا التغير الأزدهار الاقتصادى والتدهور الاقتصادى ، كما أنه يقابل الازدهار الحضارى والاضمحلال الحضارى. وأما مقياس الدافع إلى الإنجاز فإنه يكشف عن شيء طريف . فقد كان الإنجاز ـ أو السعى إلى النجاح ـ على أشده فى الفترة المبكرة للنمو ، تلك الفترة التى سبقت الذروة الاقتصادية والحضارية . كما أنه هبط بالفعل فى وقت الذروة ، واستمر ينخفض خلال الاضمحلال . مثل هذه النتيجة تلقى ضوءاً جديداً تماماً على الحرب البيلوبونيزية . ذلك أن هذه الحرب لم تدمر الروح الأثينية ، وإنما كانت الروح الأثينية قد دب بالفعل فيها الانحلال . وقد كتب الكثير عن التحلل الشخصى للأثينيين خلال

عصرهم الذهبى . وإنه لمن المحتمل أن فقدان الدافعية هذا هو ما أدى إلى الهزيمة الحربية والخسارة .



شكل ١٢ ـ الدافع إلى الإنجاز ونشأة المدنية الأثينية واضمحلالها . وتظهر الثروات الخاصة بالمدنية الأثينية بمدى اتساع نطاق التجارة . وأما الدافع إلى الإنجاز ـ كما يتضح فى المواد الأدبية ـ فقد كان مرتفعًا من قبل أن تبلغ المدنية ذروتها ثم بدأ ينخفض من قبل الاضمحلال (مأخوذ عن D.C. Mc Clelland. The achieving society. Princeton: Van Nostrand, 1961.)

ولكن السؤال مع ذلك يظل قائماً : ما هى العوامل التى تؤدى إلى ازدياد الدافع إلى الإنجاز فى المجتمع ؟ لقد رأينا أن الدافع إلى الإنجاز تنميه فى الطفل أمور مثل دفء الوالدين ، والأب غير المسيطر ، ومعايير الإنجاز المرتفعة . ومع ذلك فإننا نستطيع أن نمضى فى التساؤل : ما الذى يجعل الوالدين يسلكان بهذه الطريقة ؟ إن من المحتمل أن يكون الوالدان على غير وعى بالآثار بعيدة المدى للطرق التى يتبعونها فى تنشئة الأطفال . بعبارة أخرى ، من المحتمل أن الآباء يريدون الاستقلال فى أطفالهم فيترتب على ذلك بصورة عرضية أن يصبح الأبناء من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز . ومن ناحية أخرى ، قد نجد أن الآباء الذين يدفعون أبناءهم إلى حد مفرط إلى الإنجاز يجدون فى آخر الأمر أن أبناءهم قد نفروا من الإنجاز تماماً ومن

كل ما يتعلق به . فهذا التفسير ، كما نرى ، ينسب الإنجاز إلى ظروف عارضة أو مصادفة .

كما أن العقائد الدينية والأخلاقية فى الحضارة أو المجتمع قد تؤثر فى الدافعية الاجتماعية . فقد نسب عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر Max Weber قيام الرأسمالية فى شمال أوربا وشمال أمريكا إلى ما أسماه « بالخُلُق البروتستانتى » . ذلك أن الخلق البروتستانتى ، على خلاف ما يشيع فى العقيدة الكاثوليكية الكلاسيكية من نفور من الدنيويات ، ومن التواد بين الإخوة ، ومن تحريم للربا ، يعلم أتباعه أن النجاح الشخصى وجمع رأس المال أمور طيبة عند الله . بل إن العمل الشاق الجاد هو خير ما يدفع به المرء عن نفسه شكوكه الدينية ، ومشاعر النقص والقصور ، أو الرغبات الجنسية . وقد مضى ماكيلاند يمحص صحة هذا الفرض . وتبين له أن معدلات إنتاج القوة الكهربية ، مقارنة بالموارد الطبيعية كانت أعلى فى البلاد البروتستانتية منها فى البلاد الكاثوليكية . وبذلك يبدو أن سلوك أصحاب المشاريع ينمو بدرجة أكبر على الأفكار الدينية فى البروتستانتية منه فى الكاثوليكية .

على أن الأفكار الدينية الجوهرية المرتبطة بالإنجاز والنمو الاقتصادى ليست هى الفروق العقائدية المعتادة فيما بين البروتستانتية والكاثوليكية . وإنما هنالك عدة «قيم محورية» يمكن أن نجدها شائعة فى كثير من أديان العالم ، وهذه القيم هى ذات أهمية هنا . ففى الهند ، على سبيل المثال ، نجد أن أعضاء طوائف اليانية Jain والبارسّية Parsee من الزاهدين هم الذين يحرزون النجاح البارز فى مجال الأعمال والتجارة لا أعضاء طائفة البَرَهْميين الهدوسيين Hindu Brahmans . وأما فى اليابان فإننا نجد البوذية Zen Buddhism هى المرتبطة بالنجاح الاقتصادى ، كما يفسر التقدم اليهودى فى التجارة على أنه مرتبط بقيام الحركة المعادية للأحبار اليهود antirabbinical Hassidic . ويقول ماكليلاند إن القيم المحورية فى هذه المذاهب المنجزة تتضمن تأكيد الخبرة الدينية الفردية لا الخبرة الدينية المرتبطة بالطقوس ، وكذلك تأكيد الاعتماد على الذات بدلاً من

الاعتماد على خبراء الدين ، وتتضمن أيضاً فى كثير من الأحيان نوعاً ما من الزهد أو إنكار الذات . بالاختصار ، هم المتطهرون (puritans) فى العالم ! .

والآن لنتوقف لحظة ونتدبر مضامين هذه النظريات والحقائق . الواقع إنه لمن المدهش أن يكون متغير سيكولوجى مثل الدوافع إلى الإنجاز ذا أهمية كبيرة فى الأمور الاقتصادية ، إننا لانقصد طبقاً أن نغمط دور العوامل الاقتصادية التقليدية ، ولكننا نستطيع ، كما يقول ماكليلاند ، أن نتعرف على النمو الاقتصادى من واقع كتب المطالعة التى يستخدمها الأطفال بدرجة أكبر مما نستطيع القيام بذلك على أساس من البيانات الخاصة بالسكان : بل إنه لمن المدهش بدرجة أكبر أن تكون الأفكار الإنسانية كل هذه الأهمية . صحيح أن أستاذ الجامعة تبهره كثيراً أهمية للأفكار ، ولكن كم واحد منا فاته أن يدرك أن الإنسان ليس دائماً تلك الضحية السلبية لتاريخه وبيئته ، وأنه قادر على أن يتصور الخطط العظيمة وأن يصوغ العالم ويبنيه وفق هذه الخطط .

خـاتـمـة

نحن قطعنا شوطاً طويلاً من اكتساب الخلايا اللاسعة عند الميكروستوما إلى قيام الحضارة الأثينية وسقوطها . إن موضوع الدافعية والانفعالات يغطى مجالاً شديد التنوع والتعقيد. وقد رأينا من المد والجزر فى المحاولات التى بذلت لفهم هذه الطائفة الصعبة من الظواهر-الغرائز، الدوافع ، الدوافع الداخلية ، النظريات ذات الدافع الواحد ، وذات الدوافع الثلاثة ، وذات الدوافع المتعددة ، والهوميوستازيا ، ووظائف الدماغ ، والكفاءة البيولوجية ، والدوافع المتعلمة ، والدوافع غير المتعلمة ، والدوافع ذات الأوجه الكثيرة ، والمحددات الفسيولوجية والاجتماعية . ولدينا الاكتشافات الجديدة المثيرة- مراكز اللذة والألم فى الدماغ ، دوافع الفضول ، والاستكشاف ، واللعب ، وأولوية الحب ، والمودة ، ومتعة الالتصاق. فما هى مضامين كل هذا ؟ وإلى أين ستمضى بنا سيكولوجية الدافعية ؟ .

فى رأيى أن مجال الدافعية والانفعال هو الآن فى فترة من السيولة الإبداعية التى ستؤدى بنا تدريجياً إلى صورة جديدة عن طبيعة الإنسان. أما فى الماضى، فقد كان مجال الدافعية والانفعال تحكمه نظريتان - نظرية فرويد الكلاسيكية والنظرية السلوكية الكلاسيكية . وكانت صورة الإنسان فى نظرية فرويد أنه مخلوق تدفعه غرائز جنسية وتدميرية متوارثة غير شعورية تسعى دائماً إلى التعبير عن نفسها فى بيئة اجتماعية محبطة . وكانت نظرة السلوكية أن الإنسان مخلوق يستلقى فى الظل وعمليات الأيض أو التمثيل الغذائى ماضية فى طريقها عنده ، يتجه أحياناً إلى النشاط بفعل الشمس المحرقة وبإغراء كوب الشراب البارد. واليوم لا نظن أن هناك واحداً من علماء النفس

الأحياء يمكنه أن يقبل أى واحدة من وجهتى النظر هاتين : فما هى الصورة الجديدة الآن ؟ .

نقول أولاً إن المعركة القديمة فيما بين الوراثة والبيئة قد ماتت إلى حد كبير . فالإنسان لم يقذف به إلى العالم وهو مزود بغرائز جاهزة غير مرنة ، كما أنه ليس قطعة سلبية من الصلصال يقوم المجتمع بتشكيلها فى أنظمة للقيم محددة. وإنما الإنسان يولد مزوداً بعدد كبير من الإمكانات التى تتفاعل مع عالم مادى واجتماعى معقد لتتكون من ذلك طائفة متنوعة من الأنظمة الدافعية . ولعنا لا نستطيع أن نجد دافعاً واحداً يكون فطرياً تماماً أو يكون مكتسباً تماماً . وإنما الإمكانات البيولوجية تنصرف فى قنوات أو تتعرض للكف ، تتسع أو تنقبض . ونحن لا نزال حتى الآن نجهل الإمكانات الكاملة عند الإنسان .

على أن هناك اتفاقاً متزايداً على أن إمكانات الإنسان تتوقف إلى حد كبير على تركيب دماغه ، ذلك التركيب المعقد إلى حد لا يكاد يصدق. والدافعية ليست مجرد توترات حشوية أو حاجات أنسجة . وإنما هى تتوقف على دماغ مزود بميكانيزمات للذة والألم ، ويسيطر بنفسه على مستوى الاستثارة فيه ، كما أنه شديد الحساسية للوقائع الخارجية والداخلية على السواء . والظاهر أن لكل الدوافع جوانب داخلية وجوانب خارجية .

ثم إن الإنسان لا يقتصر دوره على أن يدفع عن نفسه المثيرات المؤذية ليسعى إلى طمأنينة الموت أو النيرفانا . وإنما هو يتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع البيئة . فهو فضولى ، محب للعب ، مبدع خلّاق . وهو يتصور الأفكار العظيمة ، ويلتمس المعانى ، ويتخذ الأهداف الاجتماعية الجديدة ــ وهذه الأشياء التى تنتج عن خياله هو تراها تؤثر من بعد ذلك فى سعيه ، وفى نمط الدافعية عنده ، وفى مجرى المدنية .

وأخيراً ، نجد أن الدفء والانتماء عند الإنسان ليسا عبارة عن ظاهرتين مصاحبتين طعمتا فيه كما تطعم الأعضاء الغريبة فى الجسم بحيث يظهران فى إيقاع دورى . بل إن تقديم الحب وتلقيه جزء من الطبيعة البيولوجية للإنسان شأنهما شأن

الحاجة إلى التبول . فإننا نشعر بالرغبة الجنسية فعلاً ، ولكننا نلتمس كذلك المحبة والمودة . ونحن نكرة ، ولكننا نلتمس كذلك التقارب والتوقير. بل إننا نحاول أن نحب ذواتنا ونوقرها .

وصورة الإنسان هذه صورة منبثقة فى دور الاكتمال ، ولكن قد يكون الإنسان ذاته لا يزال بعد فى دور الانبثاق والاكتمال . إننا جميعاً ندرك أن كثيراً من الناس لا تنطبق عليهم هذه الصورة . فإن السيكوباتى الوحشى الذى يلقى بقنبلة فى مدرسة للأطفال الصغار يبدو أن الكراهية تنهش قلبه ــ أو لعله الخوف . كذلك قد لا تكترث الأقوام الجائعة فى العالم قليلاً ولا كثيراً بالإبداع ، بل ولا يحب أقرباءهم فى بعض الأحيان . فإن بعض الدوافع لابد من أن تشبع حتى تنبثق الدوافع الأخرى . ولعله من الصحيح أن هناك نوعاً من الترتيب الهرمى للدوافع .

ويقد ذهب ابراهام ماسلو Abraham Maslow إلى أن للإنسان عدداً من الدوافع الأولية الغريزية تتروح فيما بين الدوافع **الدنيا** والدوافع **العليا** . وهذه تنتظم فى ترتيب هرمى يقابل المستوى التطورى المفترض للدافع . وأول المستويات هو **الدوافع الفسيولوجية** مثل الجوع ، ثم **دوافع الأمن** مثل الخوف ، ثم **دوافع الحب**، ودوافع التقدير ، وأخيراً ، الدافع إلى **تحقيق الذات** . وكلما انخفض مستوى الدافع ، ازدادت أهميته لبقاء الكائن الحى ، وكان ظهوره فى مرحلة مبكرة من عملية التطور. كذلك يشير الترتيب الهرمى إلى ترتيب ظهور الدوافع فى نشأة الفرد ــ فالدوافع الفسيولوجية تظهر مبكراً ، ودوافع التقدير متأخرة ، ودوافع تحقيق الذات بعد ذلك بكثير ، أو قد لا تظهر أبداً .

ثم نصل إلى أهم نقطة عند ماسلو ــ فالدافع الأعلى لا يظهر عادة إلا إذا تم إشباع الدوافع التى تكون من دونه . فالكوريون الجياع تراهم يخاطرون بحياتهم وهم يلتقطون النفايات والبقايا بالقرب من معسكرات الجيش الأمريكى وقريباً من مرمى أسلحتهم ، والناس الذين حسنت تغذيتهم وحدهم الذين يملكون أن يفكروا فى الأمن والطمأنينة . ودوافع الحب ، على قوتها ، لا تملك أن تجعل الخائف يقبل على

الناس . ثم إذا انخفض الخوف ، بدأت تظهر دوافع الحب . فإذا تم إشباع دوافع الحب ، بدأت تظهر دوافع التقدير . والشخص الذى يكون بحاجة ماسة إلى الحب قد يضحى باحترامه لذاته ، بل وقد يزحف عائداً إلى محبوبه الذى عذبه . ومن الواضح أن هناك كثيراً من حالات الاستثناء لهذا الترتيب الهرمى ـ كالأم التى تندفع وسط البيت المحترق لتنقذ صغارها ، والرجل الوطنى الأسير الذى يمنعه كبرياؤه من أن يأكل طعام المحتل الذى يراه طعاماً حراماً ، وهكذا ـ ولكن الذى لاشك فيه أن فكرة ماسلو لها قيمتها وقدرتها على الإيحاء .

وأخيراً ، وبعد أن تشبع كل الدوافع الدنيا ، يقول ماسلو إنه يظهر دافع معين إلى **تحقيق الذات** . والواقع أن هذا الدافع من الصعب وصفه لأنه لم يعرف عنه إلا القليل . وإنما يقصد ماسلو بهذا الرغبة فى اكتمال الذات ، أى أن يقوم المرء بما هو أهل له ، أو أن يحقق المرء مالديه من إمكانات . قد يكون معنى ذلك بالنسبة لإنسان ما أن تصبح أماً مثالية ، وقد تعنى بالنسبة لآخر أن يصبح رياضياً من الدرجة الأولى ، أو فناناً مبدعاً . وقد أجرى ماسلو دراسات إكلينيكية لعدد من الناس الذين قدر أنهم يحققون ذواتهم ـ بعض طلاب الجامعة ممن يؤدون أعمالهم كاملة ، وبعض الشخصيات التاريخية مثل أبراهام لنكولن ، وآلبرت اينشتاين ، وإليانور روزفلت ، وجين آدامز . وتبين لماسلو أن هؤلاء الناس يتصفون بأنهم واقعيون ، يتقبلون أنفسهم والآخرين ، تلقائيون ، مبدعون ، وأنهم قادرون على أن يدخلوا فى علاقات حب ناضج .

ومع ذلك ، فلازلنا لا نعلم إلا القليل عن دافع تحقيق الذات مما يفرض علينا أن نعده لا يزال فى مرحلة الفروض . ولكنه مع ذلك يبين لنا أن دراسة الدوافع عند الإنسان لم تكتمل بعد . ومن يدرى فلعل المستقبل أن يمكننا من بحث نزعة الإنسان إلى تحقيق ذاته ، ومن بحث الدوافع التى تجعل الإنسان ينشط أنشطة فلسفية ودينية وأخلاقية ، ومن بحث جهود الإنسان التى يبذلها لفهم معنى وجوده على الأرض. هذه هى الآماد البعيدة لميدان تخصيص آخذ فى الاتساع بسرعة ، فإننا لا نملك اليوم الأجوبة ومن يدرى فلعلك أنت أيها القارئ تتكفل بالتوصل إلى بعض الأجوبة فى المستقبل.

قــراءات مختــارة

الفصلان الأول والثانى :

Carroll, J. B. Language and thought, Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1964.
Hochberg, J. E. Perception, Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1964.
Hyman, R. The nature of psychological inquiry. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1964.
Lazarus, R. S. Personality and adjustment. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1963.
Mednick, S. A. Learning. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1964.

الفصل الثالث :

Bindra, D. Motivation — a systematic reinterpretation. New York: Ronald, 1959.
Brown, J. S. The motivation of behavior. New York: McGraw-Hill, 1961.
Hall, J. F. The psychology of motivation. Philadelphia: Lippincott, 1961.
Murray, E. J. Sleep, dreams, and arousal. New York: Appleton-Century-Crofts, 1965.
Titelbaum, P. Physiological psychology. Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1965.
Young, P. T. Motivation and emotion, New York: Wiley, 1961.

الفصل الرابع :

Ford, C. S., and F.H. Beach, Patterns of sexual behavior. New York: Hoeber, 1952.
Kinsey, A. C., W. B. Pomeroy, and C. E. Martin. Sexual behavior in the human male. Philadelphia: Saunders, 1948.
Kinsey, A. C., W. B. Pomeroy, C. E. Martin, and P.H. Gebhard. Sexual behavior in the human female. Philadelphia: Saunders, 1953.
Lazarus, R. S. Adjustment and personality. New York: McGraw-Hill, 1961.
Monroe, R. L. Schools of psychoanalytic thought. New York: Holt, Rinehart and Winston (Dryden), 1955.

الفصل الخامس :

Arnold, M Emotion and personality. Vol. I. Psychological aspects. Vol. II Neurological and psychological aspects. New York: Columbia University Press, 1960.

Rethlingshafer, D. Motivation as related to personality. New York: McGraw-Hill, 1963.

Rotter, J. B. Clinical psychology. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1964.

Young, P. T. Motivation and emotion. New York: Wiley, 1961.

الفصل السادس :

Berlyne, D. E. Conflict, arousal, and curiosity. New York: McGraw-Hill, 1960.

Berlyne, D. E. Conflict, arousal, and curiosity. New York: McGraw-Hill, 1960.

Fiske, D. W., and S. R. Maddi (eds.). Functions of varied experience. Homewood, Ill.: Dorsey, 1961.

Woodworth, R. S. Dynamics of behavior. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1958.

الفصلان السابع والثامن :

Atkinson, J. W. (ed.). Motives in fantasy, action, and society. Princeton, N. J.: Van Nostrand, 1958.

Lambert, W. W., and W. E. Lambert. Social psychology, Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1964.

McClelland, D. C., J. W. Atkinson, R. A. Clark, and E. L. Lowell. The achievement motive. New York: Appleton-Century-Crofts, 1953.

McClelland, D. C. (ed.). Studies in motivation. New York: Appleton-Century-Crofts, 1955.

McClelland, D. C. The achieving society. Princeton, N. J.: Van Nostrand, 1961.

Mussen, P. H. The psychological development of the child. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1963.

Schachter, S. The psychology of affiliation. Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1959.

Schein, E. H. Organizational psychology, Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1965.

Stacey, C. L., and M. F. DeMartino. Understanding human motivation. Cleveland: Allen, 1958.

خاتمة :

Maslow, A. H. Motivation and personality. New York: Harper, 1954.

المصطلحات الواردة
بالكتاب حسب ترتيب ورودها[1]

الفصل الأول

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
تصور ، مفهوم	١	Conception
دافعية	١	Motivation
ذكاء	١	Intelligence
استعداد	١	Aptitude
أداء	١	Performance
إنجاز	٢	Achievement
قلق	٢	.Anxiety
إدراك حسي ، إدراك	٣	Perception
ذاكرة	٣	Memory
تفكير	٣	Thinking
دوافع	٣	Motives
انفعالات	٣	Emotions
الحاجة إلى المكانة	٣	Status need
مفهوم	٣	Concept
غريزة	٣	Instinct
فرض	٥	Hypothesis
النظريات المعرفية	٥	Cognitive theories
إرادة	٦	Will
ملكات العقل	٦	Faculties of the mind

(١) يذكر المصطلح فقط عند أول وروده بالكتاب .

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
العمليات المعرفية	٦	Cognitive processes
قيم	٧	Values
اتجاهات	٧	Attitudes
تكوينات	٧	Constructs
تقدير الذات	٧	Self-esteem
أمن	٧	Security
متعلق باللذة	٧	Hedonistic, Hedonic
مذهب اللذة	٧	Hedonism
نظرية اللذة	٧	Hedonistie theory
نموذج الإثارة الوجدانية	٩	Affective-arrousal model
تطور	١٠	Evolution
منعكس ، فعل منعكس	١٠	Reflex
الاختيار الطبيعى	١٠	Natural selection
مفهوم	١٠	Concept
ميل	١١	Tendency
استعداد	١١	Disposition
الغريزة الجنسية	١١	Sex instinct
غريزة العدوان	١١	Aggressive instinct
حب الاستطلاع	١١	Curiosity
المقاتلة	١١	Pugnacity
تحقير الذات	١١	Self-abasement
تأكيد الذات	١١	Self-assertion
التجمع	١١	Gregariousness
الامتلاك	١١	Acquisitiveness
البناء	١١	Constructiveness
المدرسة السلوكية	١٢	Behaviorist school
الأنثروبولوجيا الحضارية	١٢	Cultural anthropology
علم النفس المقارن	١٢	Comparative psychology
انطباع	١٢	Imprinting
باعث (دافع)	١٣	Drive

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
كائن عضوى . كائن حى	١٣	Organism
تعريف إجرائى	١٤	Operational definition
الاتزان الحيوى	١٤	Homeotasis
مكافأة . إثابة	١٥	Reward
مكافأة ثانوية	١٥	Secondary reward
الاستحسان الاجتماعى	١٥	Social approval
حافز	١٦	Incentive
حاجة	١٦	Need
هدف	١٧	Goal
إشباع	١٧	Satiation
رغبة شعورية	١٧	Conscious desire
مطلب	١٧	Want

الفصل الثانى

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
مثيرات . منبهات	١٩	Stimuli
تدمير	١٩	Destructiveness
عدوان	٢٠	Aggression
إنجاز	٢٠	Achievement
حب	٢٠	Affection
الانتماء	٢٢	Affiliation
أداء	٢٣	Performance
استجابة هدفية (أى متجهة نحو الهدف)	٢٤	Goal response
عادة القيام بالاستجابة	٢٧	Response-habit
القيمة الحافزة للإثابة (المكافأة)	٢٨	Incentive value of a reward
انتباه	٢٩	Attemtion
توقعات	٢٩	Expectations
تهيوء	٢٩	Set
نصوع	٣٠	Brightness
الدفاع الإدراكى	٣١	Perceptual defense

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
هلوسة	٣٢	Hallucination
تذكر	٣٣	Remembering
نسيان	٣٣	Forgetting
كبت	٣٤	Repression
الثقة بالذات (النفس)	٣٤	Self-confidence
احتفاظ	٣٤	Retention
خيال	٣٥	Fantazy
عمليات رمزية	٣٥	Symbolic processes
حل المشكلات	٣٥	Problem-solving
التفكير الإبداعي	٣٥	Creative thinking
استبطان	٣٦	Introspection
التحليل النفسي	٣٦	Psychoanalysis
فلتات اللسان	٣٦	Slips of the tongue
التداعي الحر	٣٦	Free association
العلاج النفسي	٣٦	Psyehotherapy
استبصار	٣٨	Insight
كفّ	٣٩	Inhibition
اكتئاب	٤١	Depression
تبلد الشعور	٤١	Apathy
استبدادي ، ديكتاتوري	٤١	Totalitarion
صراع	٤٢	Conflict
إقدام ، إقبال	٤٢	Approach
إحجام ، تجنب	٤٢	Avoidancc
مشاعر الإثم	٤٣	Feelings of guilt
لاشعوري	٤٤	Unconscious
التنويم المغناطيسي	٤٤	Hypnosis

الفصل الثالث

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
علم الأحياء ، البيولوجيا	٤٧	Biology
كائن عضوي وحيد الخلية	٤٧	Unicellular organism

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
اختلال الاتزان الحيوى (الهوميوستازى)	٤٧	Homeostatic disequilibrium
تكيّف	٤٩	Adaptation
مِجْهرى ، بالغ الصغر	٤٩	Microscopic
حامض اللبنيك	٥١	Lactic acid
آلية (ميكانيزم)	٥٢	Mechanism
سلوك البحث عن الهدف	٥٣	Goal-seeking behavior
الدمــاغ	٥٣	Brain
الهيبوثالاموس	٥٤	Hypothalamus
الغدة النخامية	٥٤	Pituitary gland
المخ	٥٥	Cerebrum
الأيض	٥٥	Metabolism
غدة صماء (باطنية الإفراز)	٥٨	Endocrine
توقع ، استباق	٦٠	Anticipation
توافق	٦٠	Adjustment
تنشيط	٦٣	Energization
المثيرات الدافعة	٦٣	Drive stimuli
إشــارة	٦٥	Cue
إشباع	٦٦	Satiation
خفض الحاجة	٦٦	need-peduction
مستقبل	٦٨	Receptor
كيميائى حيوى (كِيْميحَيَوى)	٦٨	Biochemical
تدعيم	٧٢	Reinforeoment
الجهاز الطرفى	٧٢	Limbic system
إنطفاء	٧٣	Extinction
مختص فى علم الوراثة	٧٦	Geneticist
إشعاع ذرى	٧٦	Atomic Radiation

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
	الفصل الرابع	
الأعراض العُصابية	٧٨	Neurotic symptoms
البلوغ	٧٩	Puberty
الخصائص الجنسية الثانوية	٧٩	Secondary sex characteristics
تطور	٧٩	Evolution
النوع	٨٠	Species
العُنّة ، العجز الجنسى	٨٠	Impotence, Impotency
فعالية ، مقدرة	٨١	Potence, potency
الدورة النزوية	٨١	Estrual Cycle
خصوبة	٨١	Fertility
تبويض، إباضة (خروج البويضة من المبيض)	٨١	Ovulation
رحم	٨١	Uterus
الغدد اللبنية	٨٢	Mammary glands
استخبار ، استبيان	٨٢	Questionnaire
حيض	٨٣	Menstruation
سن اليأس ، سن انقطاع الطمث	٨٣	Menopause
ذروة الدورة النزوية	٨٣	Estrual peak
الجهاز العصبي	٨٤	The nervous system
المستقبلات الحسية	٨٤	Sensory receptors
منعكس ، انعكاس	٨٤	Reflex
شوكى أو فقرى	٨٤	Spinal
لحاء ، قشرة	٨٤	Cartex
شبقى	٨٤	Erotic
حشفة القضيب	٨٤	Glans penis
البظر	٨٤	Clitoris
الحبل الشوكى	٨٤	Spinal cord
لحاء المخ ، قشرة المخ	٨٥	Cerebral cortex
مغازلة ، تودد	٨٧	Courtship

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
استدخال	٨٨	Internalization
رمزى	٨٨	Symbolic
مراهق	٨٨	Adolescent
نمطى	٨٩	Stereotyped
إيلاج	٩١	Intromission
قذف	٩١	Ejaculation
إحباط	٩١	Frustration
هِزّة الجماع	٩٢	Orgasm
استثارة جنسية عامة	٩٥	General sexual arousal
استثارة تناسلية محددة	٩٥	Specific genital arousal
نمو	٩٦	Development
نضج	٩٦	Maturation
استمناء	٩٧	Masturbation
الجنسية المثلية	٩٨	Homosexuality
الجنسية الغيرية	٩٩	Heterosexuality
المراحل الجنسية النفسية	١٠٠	Psychosexual stages
الطاقة اللبيدية	١٠٠	Libidinal energy
المرحلة الفمية	١٠٠	The oral stage
المرحلة الشرجية	١٠٠	The anal stage
المرحلة القضيبية	١٠٠	The phallic stage
مرحلة الكمون	١٠١	The latency stage
مرحلة الجنسية المثلية	١٠١	The homosexual stage
المرحلة التناسلية	١٠١	The genital stage
خُلْق	١٠١	Character
خُلْق فمى	١٠١	Oral character
خُلْق شرجى	١٠١	Anal character
خُلْق قضيبي	١٠١	Phallic character
إعلاء	١٠١	Sublimation
غشيان المحارم ، زنى المحارم	١٠٢	Incest

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
غيرة	١٠٣	Jealousy
عقدة أوديب	١٠٣	Oedipus complex
قلق الخصاء	١٠٣	Castration anxiety
توحّد	١٠٣	Identification
حسد القضيب	١٠٤	Penis envy
التطبيع الاجتماعى	١٠٦	Socialization
الضبط الاجتماعى	١٠٦	Social control
المشاعر نحو المحارم	١٠٧	Incestual feelings
تناقض وجدانى	١٠٩	Ambivalence
الطمأنينة الانفعالية	١٠٩	Emotional security
سيطره	١٠٩	Dominance
خضوع	١٠٩	Submission
اتكالية	١٠٩	Dependence
استقلالية	١٠٩	Independence

الفصل الخامس

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
ردود أفعال . أرجاع	١١٠	Reactions
النظرية الثلاموسية	١١٣	Thalamic theory
الحيوانات وحيدة الخلية	١١٦	Protozoa
نوبات الغضب (أو الغيظ)	١١٨	Temper tantrums
السادية	١١٨	Sadism
تفريغ	١٢٠	Discharge
العملية الشرطية	١٢٠	Conditioning process
تعميم	١٢١	Generelization
انطفاء	١٢١	Extinction
تقليد	١٢٢	Imitotion
إشارات	١٢٣	Cues
تقدير الذات	١٢٣	Self-esteem

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
تعقل	١٢٥	Intellectulization
إنكار	١٢٥	Denial
تكوين رد الفعل	١٢٥	Reaction formation
صدمة	١٢٥	Trauma
عصابي (مريض نفسي)	١٢٦	Neurotic
ذهاني (مريض عقلي)	١٢٦	Psychotic
إحباط	١٢٦	Frustration
الإشراط	١٢٨	Conditioning
استبطان	١٢٩	Introspection
تمايز	١٣٠	Differentiation
أبعاد	١٣٢	Dimensions
الشدة	١٣٢	Intensity
سار ـ غير سار	١٣٢	Pleasantness-unpleasantness
الاقتراب ـ التجنب	١٣٢	Approach-avoidance
استثارة	١٣٢	Arousal
تنشيط	١٣٢	Activotion
تضاد . تناقض	١٣٤	Antithesis
استجابة طوارئ	١٣٧	Emergeney reaction
الجهاز العصبي المستقل	١٣٧	Autonomic nervous system
نظير التعاطفي (الباراسمبتاوي)	١٣٧	Parasympathetic
التعاطفي (السمبتاوي)	١٣٧	Sympathetic
معديمعوي	١٣٧	Gastrointestinal
جهاز الغدد الصماء	١٣٨	Glandular endocrine system
الغدة النخامية	١٣٨	Pituitary gland
الغدتان الكظريتان (الأدريناليتان)	١٣٨	Adrenal glands
مرحلة الاستنفار	١٣٨	Stage of alarm
مرحلة المقاومة	١٣٨	Stage of resistance
مرحلة الإنهاك	١٣٩	Stage of exhaustion
استجابة الاكتئاب	١٤٠	Depressive reaction

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
نفسجسمى (سيكوسوماتى)	١٤٠	Psychosomatic
الجهاز الطرفى	١٤١	The limbic system
اللحاء العتيق	١٤١	Paleocortex
اللحاء الحديث	١٤١	Neocortex
الجهاز المنشط الشبكى	١٤٣	Reticular activating system
الشعور	١٤٣	Consciousness
منمّط	١٤٧	Stereotyped
شدة ، عناء	١٤٨	Stress
باعث (أو دافع) مكتسب	١٤٩	Aequired drive
ميكانيزمات الدفاع	١٥١	Defense mechanisms
الكبت	١٥١	Repression
نكوص	١٥٢	Regression
انسحاب	١٥٢	Withdrawal
استهجان اجتماعى	١٥٥	Social disapproval
النقل	١٥٥	

الفصل السادس

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
ذاتى ـ داخلى	١٥٧	Intrinsic
إعلاء	١٥٩	Sublimation
استقلال وظيفى	١٥٩	Functional autonomy
إبدال	١٦١	Substitution
سادى	١٦١	Sadistic
النظر الجنسى	١٦١	Voyeurism
سيكولوجية الأنا	١٦١	Ego psychology
وظائف الأنا	١٦١	Ego functions
خارجى	١٦٩	Extrinsic
ملازم ـ فطرى	١٦٩	Inherent
دوافع ذاتية	١٧٠	Intrinsic motives

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
النرفانا	١٧١	Nirvana
الحرمان الحسى	١٧١	Sensory deprivation
القابلية للتهيج (أو الإثارة)	١٧٣	Irritability
هلاوس بصرية	١٧٣	Visual hallucinations
فضول (حب الاستطلاع)	١٧٣	Curiosity
تعوّد	١٧٥	H alituation
اهتمام	١٧٦	Interest
تشبّع	١٧٨	Satiation
الدوافع المعرفية	١٨١	Cognitive motives
التنافر المعرفى	١٨٢	Cognitive dissonancc
تبرير	١٨٣	Rationalization
أولوية الحاجة	١٨٤	Need-primacy
أولوية السلوك	١٨٥	Behavior-primacy
مستقبلات خارجية	١٨٧	Exteroceptors

الفصل السابع

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
بالبديهة ـ بالحدس	١٩١	Intuitively
الدافعية الاجتماعية المشتقة	١٩٣	Derived social motivation
توحد	١٩٤	Identification
ترابط	١٩٥	Relatedeness
أمن ، طمأنينة	١٩٥	Security
الميل إلى التجمع	١٩٥	Gregariousness
حب الاجتماع بالناس	١٩٦	Sociablity
غريزة الوالدية	١٩٦	Parental instinct
مسايرة	١٩٧	Conformity
تصريف الدوافع فى قنوات	١٩٨	Drive channeling
راحة الالتصاق	١٩٩	Contact comfort
اجترارى	٢٠٢	Autistic

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
ميال إلى المخالفة ، مخالف	٢٠٣	Negatvistic
ضوى ، هزال	٢٠٣	Marasmus
اجترارية	٢٠٤	Autism
جانح	٢٠٥	Delinquent
معادٍ للمجتمع ، مضاد للمجتمع	٢٠٥	Antisocial
القلق الأولى	٢٠٥	Primary anxiety
شحنة نفسية	٢٠٩	Cathexis
الليبدو الجنسى	٢٠٩	Sexual libido
تقنِّية	٢١٠	Canalization
متعلق بالذات (بالأنا)	٢١٣	Ego-involved
الأنا	٢١٣	Ego
الذات	٢١٣	Self
مفهوم الذات	٢١٤	Self-Concept
توقير الذات	٢١٥	Self-esteem
مستوى التطلع	٢١٥	Level of aspiration
تعويض	٢١٦	Compensation

الفصل الثامن

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
نفسى المنشأ	٢١٨	Psychogenic
اختبار تفهم الموضوع	٢١٨	Thematic Apperception Test (TAT)
ترميز	٢٢٥	Coding
استخبار سوسيومترى	٢٣٠	Sociometric questionnaire
تغذية مرتده	٢٣١	Feedback
تغذية مرتدة متصلة بالعمل	٢٣٢	Task feedback
تغذية مرتدة متصلة بالمشاعر	٢٣٢	Feeling feedback
تنفيس انفعالى	٢٣٤	Catharsis
قيم محورية	٢٤٣	Core vulues

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
ظاهرة مصاحبة (أو مضافة)	٢٤٧	Epiphenomenón
سيكوباتى	٢٤٧	Psychopath
ترتيب هرمى	٢٤٨	Hierarchy
تطورى	٢٤٨	Evolutionary
دوافع الأمن	٢٤٨	Security motives
دوافع التقدير	٢٤٨	Esteem motives
دوافع تحقيق الذات	٢٤٨	Self-actualization motives

مكتبة أصول علم النفس الحديث

يشرف على ترجمتها

الدكتور محمد عثمان نجاتى

صدر منها :

- علم النفس الإكلينيكى : تأليف جوليان ب . روتر
  ترجمة الدكتور عطية محمود هنا .
  أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
  وجامعة الكويت
  الطبعة الثانية ، ١٩٨٣
- علم نفس الشواذ : تأليف شيلدون كاشدان
  ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة .
  أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر وجامعة الرياض .
  الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨
- الشخصية : تأليف ريتشارد س . لازاروس
  ترجمة الدكتور سيد محمد غنيم .
  أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
  وجامعة الإمارات العربية .
  الطبعة الثانية ١٩٨٤ .
- التعـلم ترجمة الدكتور محمد عماد الدين إسماعيل .
  أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس وجامعة الكويت .
  الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ .

- الاختبارات والمقاييس : تأليف ليونا ا . تايلر
ترجمة الدكتور سعد عبد الرحمن .
أستاذ علم النفس بجامعة الكويت
الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ .
- علم النفس الاجتماعى : تاليف وليام و.لامبرت وولاس ا.لامبرت
ترجمة الدكتورة سلوى الملا .
أستاذ علم النفس المساعد بجامعة القاهرة وجامعة الكويت
الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .
- الدافعية والانفعال : تأليف إدوارد ج.موراى
ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة
أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر وجامعة الملك سعود وجامعة الكويت
الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .
دار الشروق

مكتبة التحليل النفسى والعلاج النفسى

بإشراف الدكتور محمد عثمانى نجاتى

- معالم التحليل النفسى: تأليف سيجمند فرويد
  ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى
  الطبعة السادسة . ١٩٨٦
- الكف والعَرَض والقلق : تأليف سيجمند فرويد
  ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى ،
  الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣ .
- الأنا والهو :تأليف ببيجميند فرويد
  ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى
  الطبعة الخامسة ، ١٩٨٨ .
- ثلاث رسائل فى نظرية الجنس :تأليف سيجمند فرويد
  ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى ،
  الطبعة الثانية ، ١٩٨٥
  دار الشروق

للدكتور محمد عثمان نجاتى

- الإدراك الحسى عند ابن سينا ، بحث فى علم النفس عند العرب .
  الطبعة الثالثة (مزيدة ومنقحة) . دار الشروق ببيروت ، ١٩٨٠
- علم النفس فى حياتنا اليومية .
  الطبعة الثانية عشرة (مزيدة ومنقحة) . دار القلم بالكويت ، ١٩٨٥
- علم النفس الصناعى .
  الطبعة الثالثة (مزيدة ومنقحة) مؤسسة الصباح بالكويت ، ١٩٨٠
- المدنية الحديثة وتسامح الوالدين .
  الطبعة الثانية (منقحة) . دار النهضة العربية بالقاهرة ، ١٩٧٤
- علم النفس الحربى .
  الطبعة الثالثة (منقحة) (نفد)
- ملامح جريمة القتل .
  بالاشتراك مع آخرين ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ١٩٧١
- القرآن وعلم النفس .
  الطبعة الثالثة ، دار الشروق ببيروت ، ١٩٨٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

